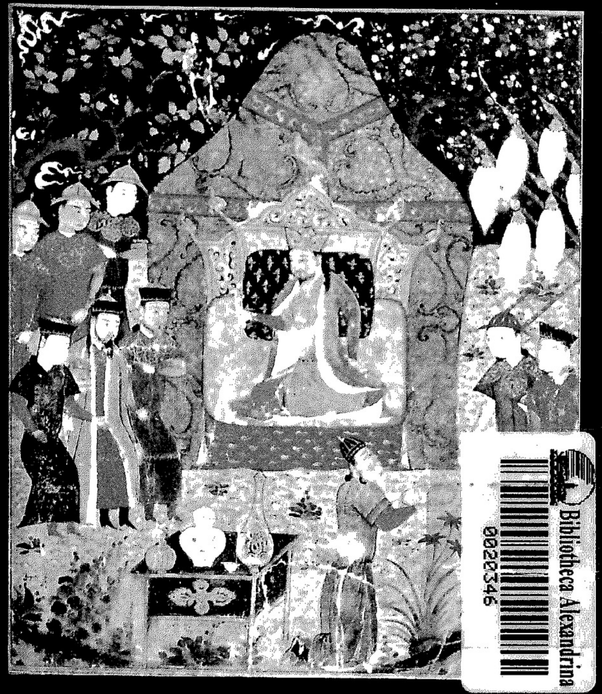
دكتور ثروت عكاشة

إعصار من الشرق

"جنكيزخان"



دار الشروق

مخطوطة جامع التواريخ . جنكيز خان جالسا على عرشة ومن حولة حاشيته .
دار الكتب القومية بباريس . هراة . من العصر التيموزى (١٤٢٥) .

إعصار من الشرق

الطبعة	السنة	الناشر
الطبعة الأولى	١٩٥١	دار الفكر العربى
الطبعة الثانية	١٩٥٧	الكتاب الذهبى
الطبعة الثالثة	١٩٦٢	الناشر الحديث
الطبعة الرابعة	١٩٧٥	دار المعارف
الطبعة الخامسة	١٩٩٢	دار الشروق

الإخراج الفنى

الفنان حلمى التونى



القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٢٤٥٧٨ - ٣٩٢٤٨١٤

برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

دكتور ثروت عكاشة

إعصار من الشرق
"جنكيزخان"

دار الشروق

إهــداء

إلى الأديب الفنان رجاء النقاش

كلمة أولى

للمغول تـاريخ حـافل بـالأحداث ، اعتمـد حقبةً مـن الزمـن على الأساطير ، واعتمـد حقبةً أخرى على الأخبار المرويّـة على ألسنة رواة تختلـف ميـولهم واتجاهاتهم فتـأثـروا بها عُـرف عـن المغول مـن بطـش وعنف ؛ كما اعتمد على ما جاء على ألسنة قوم لاعلم لهم بحديث المغول فـاكتفـوا بقليـل لايفيـد . ثم اعتمـد أخيراً على أخبـار قـوم يطلقـون لأخيلتهم تصوير الوقائع فى صورة عجيبة أخـّاذة .

وقد شجّع هـؤلاء وهؤلاء أن المغول أنفسهم كـانوا غير مَعْنيينّ بأن يكـون لهم تـاريـخ مـدوَّن ، يجمـع مـالهم على حقيقتـه ، ويقطَـع على المسرفين فى القول الطريق ، ويزوّد من لاعلـم عندهم بما ليس لديهم ، ويـردّ على المغالين شَططهـم ومغـالاتهم ، ذلك لأن المغـول كـانوا قـد شُغلـوا في أعوامهـم الأولى الصاخبـة بالغـزو والفتح عـن أن يتفرغـوا لشىء مـن هذا التدوين أو أن يشجّعـوا عليه ، كما أنهم كانوا قـد تردّوا خـلال أعوامهـم الأخيرة فى هوّة مـن الجهل نسـوا معه مجدهـم الأول وصلتهم بأسـلافهم حتى باتـوا لايعون منه شيئاً ، وإذا أُنسـى التاريخ

أهله فلا أهل له . ولقد بدا ذلك جليًّا عندما ذاب هؤلاء المغول في غيرهم من الأمم ، وطواهم المغلوبون بمعتقداتهم وعاداتهم ، وأصبحت تلك الفتوحات المغوليّة الجبّارة غير معروفة لدى شعوب الشرق أو شعوب الغرب على وجهها الصحيح ، ولم تكن غير أخبار جافة فيها كثير من الغموض وكثير من التنافر يمليها البغض وتمليها الكراهية ، وجاءت فى جملتها سلسلة ناقصة ، ثم هى على نقصها كانت غير صادقة .

وهكذا عاشت منسيّة أو شبه منسيّة تلك الفتوحات التى لاتدانيها فتوح الإسكندر ولا فتوح الرومان ، وتلك الانتصارات التى تشبه المستحيلات ، وتلك الأعمال التى جمعت بين النقيضين ، من وحشية تُثير الهَلع والفزع ، وبُطولة تحرّك الإكبار والإجلال .

وهكذا كاد التاريخ ينسى ذلك الزعيم القَبَلى الذي خرج من أقصى الشرق ، من إقليم ضيق محدود يرمى بنفسه وبجيوشه ، التى لم تكن قد لقنت فنون الحرب ولا خداع الحصار ، إلى أمم كانت لها الكثرة من الجيوش وكانت لها الخبرة الحربية والعتاد الضخم ، لينقضّ عليها كالصاعقة يتَخطّفها دولة بعد دولة ، ويثلُّ عروشها عرشاً بعد عرش، تَذلُّ بين يديه أمنع المدن وتتَداعى لهجومه أقوى الحصون ولا توقفه الأسوار الراسخة . وإذا آسيا كلها تقريبا تحت إمرتهم ، وإذا جزء من القارة الأوربية يدين لهؤلاء الفاتحين بالسيادة ، وإذا أوربا كلها فزعةً وجلة تجتمع لوقف هذا الزحف وصدّ هذا العدوان ،

فتـقيم فـى سبيـله السُـدود والـحواجز .

وكما كاد التاريخ ينسى لهؤلاء المغول هذا الجانب الحربي ، كاد ينسى لهم جـانبهم الحضـارى ، وإنَّا لنعـرف أنـه ما كـاد يتم لهؤلاء الفـاتحين الاختـلاط بالشعـوب المهـزومة حتـى تحلّلوا شيئاً فشيئـاً من عنفهـم الموروث ووحشيتهم التـي طُبعوا عليها وراحـوا يسايـرون الحضارات بخُطى وئيدة ، وما كان ذلك باليسير على هـؤلاء الذين لمّا يَطّرحوا عن أنفسهـم غبار البيئـة ولمّا يطّـرحوا عـن أنفسهم عـاداتها وتقـاليدهـا ، ولكنهم على الرغم من هذا أعطوا وأفادوا .

لقـد شرّع جنكيزخـان قوانين تنظّـم للناس حيـاتهم ، ومضى ابنُـه «أوجتاى » على نهجه ، وعاش مدته القصيرة يجمع بين شجاعة الجندى وعدل الملـك ، وجمع الناس حوله بتسـامح وسخاء غير مألـوفين لمثله ممن يخرج من صحارى « مغولستان » . كما استطاع « قوبلاى خان » بما عُرف عنـه من صفات فريـدة ومعرفة واسعـة وحكمة بالغة وحكـومة رشيدة ، أن يفـوز بإعجـاب الصينيين أنفسهـم . مـن أجل هـذا كله ، كان مثل هذا التاريخ بحلوه ومُرّه جـديراً بأن يعنى به المغول أنفسهم ، وأن يعنى به مع المغول العالم أجمع .

ولعلّ هـذا هو ما حـدا « غازان خان » (٦٩٤هـــ ١٢٩٥) إلى أن يكل إلى وزيره فضل الله رشيد الديـن الهمَذانى (٦٤٥ هـــ ٧١٨هـ) (١٢٤٧م ـ ١٣١٨م) أن يضع للمغـول تاريخًا يكون لهم سجلاً حـافلا بالحقائق مجرّداً مـن الترّهات هو « جامـع التواريخ » الذى تنتظـم هذه

الطبعة الخامسة ستاً من منمنمات نسخة له أُعدّت بهراة عام ١٤٢٥م محفوظة بدار الكتب القومية بباريس ، فضلا عن منمنمتين أخرتين من شاهنشاهنامة شيراز التى أُعدّت عام ١٣٩٧م المحفوظة بالمتحف البريطانى .

ولقد حاول نفر من المؤرخين شيئاً من هذا التأريخ ، فكان يعوز بعضَهم حديثٌ لا يعرفونه ، ويُملى على بعضهم بغضٌ يحملونه ، فأصابوا فى شىء وأخطأوا فى أشياء .

وقد أورد ابن الأثير (٥٥٥هـ ـ ٦٣٠هـ) فى كتابه المسمى بـ «الكامل» عرضًا مختصراً لفتوح المغول ، ومنعه التحفظ والحذر من أن يتورّط فيما لا يعرف ، فإذا هو لا يذكر شيئاً عن فتوح «جنكيزخان» ، وإذا هو يقنَع بسرد أخبار أشبه بالحكايات عن تلك الحرب التى شنّها هذا الفاتح الجبّار على ولايات سلطات «خوارزم» . ويحذو ابن الفرات (٧٣٥هـ ـ ٩٠٧هـ) حَذو ابن الأثير فلا يزيد شيئاً ولا يعقّب . ويحاول محمد بن النسوى ، الذى كان كاتباً للسلطان جلال الدين منكبرتى أن يجمع أحداث السنين الأولى لحكم جنكيزخان فى تفصيل ، فإذا هو يكتب شيئاً يتفق بعضه والتاريخ ويختلف البعض الآخر مع التاريخ . وله عذره، فلقد رأى عرش مولاه يتداعى أمام هجمات المغول ، وكان على وشك أن يناله هو الآخر شىء من عسفهم . ولقد عاش فترته تلك تروعه المذابح ، وتصمّ آذانه قعقة السلاح ، وتهوله رؤية الخرائب ، وتحزّ فى نفسه

صيحات اليأس فيشغله ذلك كله عن أن يستمع للحقيقة ويكتب مستوحياً تلك الحقيقة . ثم جاء مؤرخ فارسى هو عبد الله البيضاوى فجمع قليلا من الأخبار التى تتصل بالمغول وضمّنها كتابه «نظام التواريخ» . ولكن عمله هذا جاء مقصوراً على الأحداث الرئيسة، مبتوراً ينقصه كثير من التفصيل .

وكان علاء الدين عطاء المُلك الجوينى قد شَغل بعض المناصب الهامة ، واستطاع بفضل رحلاته العديدة أن يجمع شيئاً من الروايات التى تمتاز على ما فيها من غرابة بشىء من الصدق عن مهد الإمبراطورية المغولية ، فحاول بما اجتمع له من ذلك أن يضع تاريخاً لفتوح «جنكيزخان» وخلفائه، إلا أنه كان يعوزه الكثير مما يتصل بالسنين الأولى لجنكيزخان ، فنراه قد أهمل ذكر الروايات المغولية المتصلة بأسلاف جنكيزخان ، والتى تبعد فى القدم إلى الأزمنة الأسطورية ، لذلك جاء تاريخه خِلْواً مما يعرّف بأصول القبائل المغولية وبأنساب الأمراء والرؤساء .

وبعد علاء الدين عاش مؤرخ معروف هو عبد الله بن فضل الله الذى وضع كتاباً فى تاريخ المغول أسماه « تاريخ وصاف » . وعلى الرغم مما اجتمع لهذا المؤلف من أحداث كاد يخفيها وراء أسلوبه المسجوع الملىء بالمحسّنات اللفظية ، فقد جاء كتابه أقربَ إلى الأدب منه إلى التاريخ .

* * *

وفى ظل هذه البحوث الشرقية نشأت محاولات غربية ، مانشكّ فى أن هذا التراث الشرقى كان مادتها . وكانت بعض هذه المحاولات ترجمة لما كُتب فى العربية ، وبعضها تأليفاً استُعين فيه بتلك المادة العربية . ولقد قرأت شيئاً من هذا مما كتب فى العربية ، وقرأت شيئاً منه فى اللغات الأوربية لاسيما الإنجليزية والفرنسية ، فهالني هذا التاريخ، ولاسيما تاريخ المؤسس الأول لدولتهم «جنكيزخان» . ورأيت فيه صورة من القسوة العارمة التى لا تأبه للشدائد ، والعنف الصاخب الذى يستهين بالمصاعب ، والإقدام الجرىء الذى يشقّ طريقه وسط العقبات ، ورأيت فيه صورة من الأمل تملأ النفس فلاترتدّ عن تحقيقه .

رأيت هذا كله فأعجبت به ، لم تَعْنِنى صورته التى وقع عليها ، وإنما عنَتنى الصورة التى حفَزت إليه . ثم رأيته تاريخاً بدأ على صورة وانتهى على صورة . بدأ قاسياً فكان وحشياً ، وانتهى بالمشاركة فى ألوان من الحضارات والمدنيات ، وكان من هؤلاء الغزاة الفاتحين علماء ومشرّعون. ثم لقد كان تاريخاً على كل حال ، شَغل من تاريخ العالم صفحات طويلة ، وكان شأنه شأن كل غزو ، إن اتصف بالشر لما فيه من عدوان وسلب ، فهو يتصف بالخير لما فيه من إيقاظ للشعور وإثارة للهمة . وما أردت أن أقف منه موقف المؤرخ ، وإنما أردت أن أجعل منه قصة أقصها ، لا أسرده سرد المؤرخين ، بل أدع تفصيل ذلك لهم ، وحسبى أن أستصفى منه دقيقه الحىّ .

* * *

وهذه سيرة « جنكيزخان » تكشف لنا عما حققته وحدة أمة المغول البربرية المتوحشة من معجزات مازالت حديث التاريخ ، يقف عندها المؤرخون حيارى. لقد اكتسحت جيوش المغول الوديان والسهول والجبال والبحار والغابات لأنها كانت متّحدة متآخية ، يجمع بينها شعور واحد بخطورة ماتحمل من تبعات ، وما تضطلع به من مسئوليات . وعلى الرغم من تخلّفها وتأخرها فإنها صرعت شعوباً ذوات حضارات قديمة ، وأذعن لبطشها أهل هذه الحضارات . وما استطاعت تلك القبائل المتخلّفة أن تنال من هذه الشعوب المتحضرة إلاّ بفضل وحدتها ، وانقسام هؤلاء انقساماً جرّهم إليه الترف الضال والشهوات العابثة والخلاف القاتل والنفاق البغيض.

ولقد تعرّض العرب لما تعرّض له غيرهم من غزوات هؤلاء المغول، ودفعوا الثمن نفسه الذى دفعه أبناء الصين ، لم يغنهم كفاحهم ولم يردّ عنهم جهادهم ، إذ كانوا قد تنكرّوا لحياة الجهاد والكفاح ، وشغلوا بالفتن والمؤامرات ، وتفننّوا فى الاستمتاع بملاذ الحياة ، وأسرفوا فى ذلك على أنفسهم . ولولا بقية من خير عَمرت به النفوس، وبقية من عزّة تحركت فى القلوب ، وبقية من إباء لمّا تزل تعيش عليها الأفئدة ، لذهبت ريحهم وأصبحوا أثرًا بعد عين . وهكذا قُدِّر لهذه البقية الباقية من هذا كله أن تخرج بالعرب من وقعة عين جالوت صامدين أمام جيوش المغول الجرّارة، لم تلحقهم هزيمة ولم يبوءوا بفشل .

* * *

وكان بى إكبار ، حين أخرجت هذا الكتاب في طبعته الأولى للناس عام ١٩٥١ ، لجنكيزخان قائداً ومحارباً ، تستهـوينى منذ أمد تلك المثل الجريئة المملـوءة شجاعـة وإقداماً ، ويستهـوينى أن أجمع النـاس معى عليها ، كما كان بى إشفاق على الشعـب العربى ، فأردت أن أدُلّهم على مواطن الضعف حين يختلفون ويتفرّقون ، وبواعث القُوة مع الوحدة ، وأن أذكرّهم بماض كادوا يخرّون فيه صرَعـى للجبين حين لانوا وهانوا أمام قوات بربرية متوحشـة لم تكن لها حضارتهم ولم يكن لها عزّهم ولا جاههم .

واليـوم أشعر بـالرثـاء « لجنكيزخـان » والـدولة التـى أنشأهـا على الجماجم ، وأعتزُّ بشعوبنـا التى أرجو لها وحدة شاملة تقـوّى من شأنها وتجعلها صـامدة أمام الـزحف الصهيونـى الجديد الذى ظهـر فى الأفق وكاد أن يفعل بها مـا فعله جنكيز خان ، ولن ينفعها أمـام هذا العدوان الغاشم غير أن تكون على قلب رجل واحـد ، حكومات وشعوبا . ثم ما بـالنا نـدين أولئـك البدائيين بالـوحشية مـع جهالتهـم وبداوتهم ، ولازال بيننا ممن يدّعون انتماءهم إلى المدنية مـن يأتون ما هو أشد قسوة وبربرية . إن ما فعله همج الأمـس لايقاس شيئاً بما يفعله همج اليوم من تدمير للمدن وقتل للأبرياء وعدوان على النساء والأطفال .

وفى رأيى أن مثيرى الحروب جميعاً والسّفاحين الـذين يتعطشون إلى الدماء كلهم قادة عصـابات يـغيرون عـلى الـحضارات ويهـدمون المُثل الإنسانية ، مُصـدرين فى ذلك عن النوازع الشريرة الكـامنة فـى تلك

النفوس المريضة ، ولا إخال جنكيزخان إلا كان من تلك العُصبة

واليوم تصدر هذه الطبعة الخامسة ، والحال تكاد تكون هى الحال بالأمس ، من عدوان يشنّه القوى على الضعيف ، كما لازلنا طُعمة للغاصب بما نحن عليه من تفرّق وتشتّت . وإنى لأجدها فرصة لأضرع إلى الله أن يلمّ الشمل ويجمع الشتات لتكون لنا مكانتنا بين الشعوب .

ثروت عكاشة

القاهرة فى ٢٢ ديسمبر ١٩٩١

مع المغول

إلى الشرق البعيد من تلك البادية القاحلة ، بادية « الجوبى » حيث الجبالُ شاهقة لا تَرقَى السُّحب إلى قممها ، وتمرُّ مُتطامنةً من بينها ، وحيث الرياح الهَوجاء تَعصف برمَالها ، والشمس المُتّقدة تُلهب صخورها ، وأنّى مددت الطَّرف لا تقع إلاّ على فَيافى جَرداء ، لا شجر ولا حيوان ، ولا مُدن ولا إنسان، كَلأُ هنا وهناك حول مسارب المياه التي تنساب شحيحةً بطيئة ، تثور الرياح مرةً فيثور معها غُبار تَقْذَى به العيون وتضيق منه الأنفاس ، لا يملك الإنسان معه إلا أنْ ينبطح على الأرض إلى أن تمُرّ العاصفة ويسكُن الهواء وتصفو السماء ، وتثور الرياح أخرى بالبرق والرعد فتنْهمر السماء بالبرد وتقذف بالثلج .

فى تلك البقاع التى ينتهى فيها المُناخ إلى طرفيه من قيظ لافح وبرد قارس، وبالقرب من بحيرة « بيقول » وما حولها من بُحيرات ، تَكتنفُها الحرَجات وتحلّق في سمائها جَوارح الطير ، تمُعن حينًا نحو الشمَال وتُصوِّب حينًا صوبَ الجنوب ، مُنذرةً بميلها نحو الشمال أو انحدارها إلى الجنوب بما سيَطرأُ على المناخ مَن تَقَلُّب ، وما سيصيب الجوَّ من اختلاف .

هنـاك ـ منـذ أعـوام سبعمائة خَلَتْ ـ عـاش قـوم لا رداء لهم يسترُ أبـدانهم إلاّ جلـود الحيـوان ، ولا طعـام لهم يقـوتهُم إلاّ اللبـن الخاثـر واللحم المجفف ، ولا شـيء بين أيديهم يقُون به أجسـامهم لَفْح البرد ولسع الريح إلاّ الشحم يَطلونها به . أولئك هم قبائل المَغُول بما لهم من مـراس صَعْـب وشكيمـة قويـة ، شرْعَـةُ الصحـراء شرْعَتُهُـم ، وعلى البَغضاء والعداوة نشأتهم البيئةُ المُجدبة ، وأغراهم حُبُّ البقاء .

وهم على ذلك شعب له ماض طـويل مُعن فى القدم ، امتاز بصفُرة الوجه ، والأنف الأفطس ، والشَعر السَّبْط غير المُجَعَّد بسواده الحالك وبريقه وتألقـه ، كما تميَّز بالعيون المُنحرفة التي تشـوب سوادَها زُرقةَ ، تَغلب الصُّفرة علي بَشرَتهم ، غير أن منهـم من يبدو أسمَر أو بُـرنزيًّا أو نحاسيًّا .

ومن هذا الأصل المَغُولى يَنحدر الصينيّون واليابانيون والكوريون ، وبه يتَّصل أهل منشوريا لا يَرَوْنَ لهم أصلاً غيره . والمغول ينتهون ـ كما يقول الدارسـون ـ إلى أصل « تنجوسى إيـرانى » نشأ من تـزاوج هذين العُنصرين ، وكان يُطلـق عليه « الجنس الأورالتيكى » ، وكـان موطنه الأول مـرتفعات آسيـا الـوسطى ، ومنـه أهـل التبَّت والشعـوب غير الآريـة ، ثـم انتشر غربًـا وشرقًـا . وعـاش المغـولى صاحـب الكلمـة وصاحـب السلطان تَنْزع به إلى ذلك طبيعتُـه الأولى التي خـرج بها من مَهده ، فكـان فى فارس الحاكـم الآمر ، وكـان فى الشرق الأوسط وفى آسيـا الصُّغرى السيـد المُسيطر ، وحين اقتحـم على الأوربيين بلادهـم

حتى بلغ أسوار فيينا المنيعة ، أراد أن يفرض على أهلها سلطانه . وحَسْبُنا ما يحفظه التاريخ لنا عما كان لقبائل « الهون » و« الماجيار » و«البلغار» . . . وهم من هذا العنصر ـ من جرأة وإقدام . وما وقف بُعْدُ القارة الأمريكية حائلا دون طُموحهم ، فلقد تدفَّقَت إليها جموعُهُم ؛ يحُدِّثنا بذلك الكاشفون حين يُنَبِّئُون بأن سكان تلك القارة الأوَل ينتمون إلى الأصل المغولى .

وحول بحيرة « بويور » عاش التتار ، وكانت تجمعهم بالمغول عُمومة ، ولكن هذه القُربى لم تذهب بتلك العَدَاوة التي أمْلَتْها البيئة ، فإذا هما خَصمان لا تهدأ بينهم ثائرة ، ولا يكُفُّ لهما استعدادٌ لحرب ، لا يخْلُصان من قتال إلا إلى قتال ، ولا ينفُضَان يداً من غارة إلاّ ليشغلا بها غَارة أخرى ، يَعُدّ هؤلاء على هؤلاء حركاتهم وسكناتهم ، يحُفزهم إلى هذا التطاحُن والتناحر الغلبةُ على المرعى والاستئثار بمواقع المياه .

* * *

كان الموطن الأول للمغول هو تلك القفَار التى تقع إلى الجنوب من بحيرة «بيقول» حيث تَنْسَاب أنهارٌ ستة في أرض صَلْدة جبلية منها : الأنون وأنجودا وكيرولون التي هي المنابع الرئيسة لنهر الآمو العظيم الذي يصبّ فى البحر الصينى عند « أوخستك » ، ثم «التولا» و«أورهون » و«سلنجا» التى تصُبُّ فى بحيرة « بيقول » . وتنحدر تلك الأنهار كلّها من قمم جبال «كنتى خان » وأعلاها قمة جبل «برهان » . وما عرَفت تلك البُقْعة الفسيحة التى كان يغلب عليها الجَدب

مـن وسط آسيا الجنوبى غـير تلك الأنهار الستَّة .

وفى هـذه البَـادية المُنبسطـة الأرجـاء بـدأ المغول حيـاتهَم ، وأمْلَـوا تاريخهم الحافـل ، فكانوا أولَ ما كـانوا يتنقّلون فيها بماشيتهـم وخيلهم بـاحثين عـن المرعـى واقعين على مـواقـع الحيـاة . وهـم حين يُكتَـب لماشيتهم وخيلهم أن تنمو فى كثرة يُكْتـب عليهم أن يجدُّوا فى إثر المرعى الغَنِىِّ الخَصيب . وعليهـم حمايةُ ما وقع فى أيديهم ليَحْيَـوْا ، والمكافحة دونه ليعيشوا ، هيّـأتهم الطبيعة القاسيةُ لهذه الحياة القاسيـة ، من صيد وقتـل وسَلب ، ينْهَبُـون ويُغيرون ، يقتُـل بعضهـم بعضًا لـلاستئثـارَ بالحيـاة ، وهـم على ذلك كانـوا أشدّ حَمِيّة وألهبَ غيرة وأعنـفَ قَسْوة ، وإن بَدَا للمـرأة ظلٌّ بينهـم فهم ينسَون القـوت ويذكـرونها ، وتُنْسيهم الثورةُ لها الثورةَ للقوت .

* * *

ولقـــد آتخَّذ المغـول الطبيعــة هـاديًـا ومُعلّماً . يستلهمـون منهـا ويسترشدون بها ، ففـى الشتـاء حينَ يكسُـو الجَليـد الأرضَ ويغطـى المراعى المُعشبـة فَيَضْوَى النبـت ويَذوى العُشْـب ، ولا تجد الماشية مـا تعيش عليـه فيذوب شحمُها ويضمـر لحمها ويعـرض لها الموت يحصُد منهـا الكثير ، عندهـا يكُفُّ القـوم عن ذبحهـا حتـى لا يكونـوا عونًـا للطبيعة على إفنـائها ، صابـرين على ما يعرِّضـون له أنفسهم مـن جُوع قاتل وحـرمان مميت ، قانعين بما قد ادخـروا من أُذرة يجدون فى طَبخها ما يسُدُّ رَمَقهم ، ويدفع الجوع عن صبيانهم .

وقـد ينفد مـا عند القـوم مـن زاد مُدَّخـر ، والجوع لا يقوى عليـه الصَّبر، ويسـوء معه الطبـع ، فينهضون للغـارة ، يقتُلون ويقتُلـون ، ويَسلبون وينهبـون، غير مُلْقين بالاً لما يَـزرع هذا العُـدوان من عـداوة ويغرس من كراهية. ويضيق الصِّبيـان بهذا الضيقَ كلّه وما لهم باحتمِاله جَلَدُ الكبار ، فينطلقون وراء الجرذان بهرّاواتهم ، فإن لم يجدوا جَرَوا في إثر الكلاب والذئاب بتلك السهام المتكسرّة التى نَزل لهم عنها آباؤهم .

فـإذا مـا أقبل الـربيـع بصَحـوه انقشع الغمام وظهـرت الشمـس في الأفق، فـأصابت الأرض من حـرارتها وانكشف عن وجههـا الثلج ، فاعشوشـب المرعى، واخضرّت الأرض ، ووجدت الماشية مـا تطعم فأكلـت حتى امتـلأت . عندهـا تعود الحيـاة إلى الناس كما عـادت إلى الأرض ، ويخرجـون إلى الصيـد وراء الـدِّببـة والـوُعـول والأيّـل ، ويعودون مع الأصيل بشىء منها تحمله ظهورهم، وشىء قد ربطوه إلى خيولهم ، فَـرحين بما أصابوا ، مُقبلين على هـذا الطعام الشهـىّ بعد أن سئمـوا لحوم الثعالـب والسمور والكـلاب . وإذا ما عـاد الرجـال إلى بيوتهم قَـذفوا بـالصيد إلى النـار ، وافترشوا الأرض مـن حولها، وقـد التفّ بهم أهلـوهم يستمعون إليهم ، وهـم يقصُّون عليهم مـا كان لهم من مغامـرات في الصيد ومُخاتلات يَستهوُون بـذلك النساء ويثيرون بها ضحـك الصبيان . فـإذا ما نَضـج الشِّواء امتـدت إليه أيـدى الرجـال فاستأثرت بـأطيبه ، وحاز الأطفالُ ما تقوى عليه أصـابعهم الرقيقة ، وتلمّست النساء ما يقع لهن ، والكلاب من حولهم جميعًا ترقُب فى لهَفة

تلك العظام التى يُلقى بها إليها تَعْرقها فى نَهَم وشراسة .

* * *

ولم تُنس هذه الحياةُ القاسية هؤلاء القومَ من أن يأخذوا نصيبَهم فيها من لهو واستمتاع . فهم إذا ما خَلَوا إلى أنفسهم وأخلدوا إلى السكون وأمنوا شر الحروب انكفئوا على الشراب يجرعون ويسرفون . وقد يجرُّهم هذا إلى صخب أو شغب يخرجون منه إلى أذى يُصيب به بعضهم بعضًا قولاً وفعلا . وإذا لم يأخذوا فى الشراب أخذوا فى ألوان من اللهو تمليها عليهم تلك الطبيعة ، فإذا هم قد عقدوا حَلَبات للسباق على ظهور الخيل ، وأخرى للمبارزة بالسيف ، وثالثة للمصارعة العنيفة القاسية ؛ فمن هذه الثلاثة حياتهم ، وعلى هذه الثلاثة مجدُهم وفخارهم .

ولا تَغيب المرأة عن هذا كُله إلاّ قليلا ، إذ عليها إعداد البيت ونظافته وطَهى الطعام ؛ هذا إلى أعباء أخرى ليس لها غيرها ، فكان عليها صُنع الثياب وحياكتها ، وإعداد اللبّاد لصُنع القِباب وحَلب الأبقار وتجفيف الألبان .

* * *

وهم يقيمون بيوتهم من اللبّاد السميك ، يجَعلونه قبابًا تستوى على جُذُر من القصب يُشَدُّ بعضه إلى بعض بشرائح من لحاء الأشجار قد جُدلت جَدلاً محُكما . وفى الوسط من القُبة يهيئون مكانًا لنارهم التى تَظل أبدًا مُوقده ، ويجعلون تلقاءها فى سماء القُبة منفذًا ينفُذُ منه الدخان

ويجدِّد لهم الهواء . وكما حاطـوا تلك أُلجدر القصبية من الخارج بـاللباد فهم يحوطـونها من الداخـل بالجصّ يجعلونـه لها ملاطًا ، يمـلأ ثغراتها ويستر عيوبها ويَقيها مـسّ النار ، وما أسرعها إلى تَلـك الجدر إن ظلت عاريـة . ولقد هيَّأ لهم هذا الصقـل لجُدرانهم أن يرسُموا عليها رسـومًا ويصـورروا صـوراً وينقشـوا نقـوشًا ، ليسـت إلا مـن وحـى العقيـدة الدينية ، ومن وحى الخُرافات والأساطير التى ملأت عليهم أذهانهم .

وإلى جانب تلك الرسوم والصور والنّقوش يعلّقون سلاحهم ، من دُروع مصنـوعة مـن الجلد المقـوَّى وأقواس ورمـاح ؛ هذا إلى سـلاح يكـونـون قد غنمـوه ، وآخـر يكـونون قـد اشتروه مـن تجار المسلمين الوافدين عليهم من الغرب .

وهذه القبـاب مع ضخامتهـا من اليسير حمَلهـا ، فإذا ما هـمَّ القوم بالـرحيل رفَعـوها على « اليرت » وهـى عربـة مستطيلة ، يُثبَّـت عليها البيت تثبيتًا قويًّا ، فلا الأعاصير الهوجـاء ولا الرياح العاصفة ، بقادرة على أن تُزعـزعه أو تطوِّح به مـن فوق ظهر « اليرت» ، تُقطَر العـربتان والثـلاث بعضهما إلى بعـض فتكـون أشبه بـالقطـار تجرّه عشرات مـن الثيران القـوية . ولا تـأخذ تلـك العـربات فى سيرهـا إلاّ بعد أن يتـم إعدادها كلها ، ومن ثَم يُعطى الآذنُ بالرحلة إذنه فى صوت جَهْورىّ ، فتمضى الثيران وئيدةً ومن خَلفها العربات مُتأرجحة . ويرتفع فى الجو خُـوار الثيران وصهيـل الخيـل ونُبـاح الكـلاب يخالـط ذلـك صريـر العجلات وزمر الـزامرين ، وإذا الجو امتلأ جلبةً صـاخبة يُملى بعضها

على بعض ويردد بعضها بعضًا ، والسماء قد أظلّتهم بصفائها ورقة هوائها ، والأرض قد انبسطت تحت أقدامهم مُستويةً ممتدة وكأنها بساط أخضر .

ويَصوغ هذه الحياة «ألكسندر بورودين» موسيقَى ويصوّره ألحانًا ، يستوحى فى هذا وذاك طبعا نصفُه شرقىٌ ونصفه غربىٌ ، فلقد كان يعزى إلى أب ، أمير من أمراء الكرج : وكان «بورودين» طبيبًا نبغ فى الكيمياء فبلغ الذروة ، ونبغ فى الموسيقى فأبدع وفاق ، عرفت له دولته قدره فى الأولى بعد موته فخلّدت اسمه فى الخالدين ، وعرف له العالم تفوقه فى الثانية فوضعه بين كبار الموسيقيين . وكما كان عالما فى الأولى كان موهوبًا فى الثانية ، فحلّق بخياله فى سماء تلك المناطق التى كانت غريبة على غيره ، فكل ما فيه من إحساس وشعور وتصوّر مردّه إلى مهده روسيا الذى فيه دَرج ، حتى إذا ما أخذ يصوّر بموسيقاه ما يجرى فوق فيافى آسيا الوسطى من ضَجيج للقوافل فى عُبوره ، تخالطه أصوات للعربات فى مسيرها ، معه خُوار الثيران ونُباح الكلاب وصياح الرجال وصراخ الصبيان ، وما تشهده أرضُها من معارك يصطدم فيها السلاح بالسلاح ، ويزأر فيها الرجال بالرجال ، ومن بين ذلك أناشيد الحرب تَنطلق قوية كالرعد من حناجر خشنة ، ثم ما تشهد من مجالس للحب تنبعث منها أغان هادئة لينة حُلوة . كل هذا صوّره «بورودين» فى مقطوعته «فى فيافى آسيا الوسطى» يخلط واقعه الروسى بخياله الشرقى ، تعبّر عنه موسيقى يغلب عليها لحن شرقى

أخّاذ يسيطر على ألحان رقيقة أخرى ترمز إلى صنعة الغرب ، فإذا هذا وذاك يبعث جوًا من الفتنة الآسرة ويُشيع جوًا من السحر الشائق .

* * *

ويبدو « اليرت » وكأنه بيتٌ متحرك قد انضم على ما للقوم من متاع أَوْدعوه كنوزَهم وثرواتِهم وأسلابَهم ، منها ما هو في صناديق : من حُلى فضية وثياب مطرزة موشاة بالحرير ، ومنها ما قد حُزم حزمًا من سجاجيد وطنافس ، ومنها ما قد أخذ مكانه على الأرض وفوق الجدران من سلاح وعتاد .

وتمضى القافلة يحُيط بها الرجال الأشداء في عُدَّتهم وسلاحهم ، تتقدّمها كوكبات من الفُرسان يكونون كالطليعة ، يُمعنون هنا وهناك ليؤمّنوا لها السبيل وليُؤذنونها بالشر إن وقع . يَلزمون ظهور الجياد أيامًا تبلُغ الثلاثة لا ينزلون عنها ولا يحلُّون عنها سروجها ، مجُتزئين بالزاد القليل لهم ولجيادهم يتبلّغون به . وقد انتشر الصبيان هنا وهناك يلهون حينًا بصيد الأسماك من المستنقعات والجداول التي يمُرون بها ، وحينًا بمُطاردة الذئاب ، هذا إلى ما عليهم من سَوْق الماشية ودفع الخيل وردّ ما شرد منها .

* * *

وعلى هذا فليس تاريخ المغول بالتاريخ الذى يُستقى من منابع صحيحة ، أو تؤيّده روايات سليمة ، بل لقد كان ولا يزال تاريخًا غيرَ موصول الحلقات يحوطه كثير من الغموض ، تَطغى عليه الخرافات فلا

يُعرف مكـان الخبر التاريخى مـن الخرافة، ولا مكـان الخرافة مـن الخبر التـاريخى ، وتُصوره معتقـدات القوم فى الأرواح والشيـاطين فإذا هـو شىء لم يُمله التـأريخ ولكن أملاه ذلك التصويـر . وإذا المؤرخون بعد هذا كلـه أمام قصـص من المعجـزات الخارقة عسير عليهـم أن يَعرفـوا الجانب التاريخى السليم منها .

غير أنه مما يكاد يكون مَقطوعًا به أن مغول « يكّا » كانوا أيام «كابول خان» يُسيطـرون السيطرة كلهـا على شمال « الجوبى » . ثـم كانـت لهم الغَلَبة على تلك المراعى الممتدة من بحيرة « بيقول » إلى جبال « خنجان» على حدود منشـوريا ، تلـك المراعى التى كـانت تـزدحم بـالأعشاب الكثيفة تُغطى وجهها كله وتزخر بـالماشية التى كانت تُرْبى لحماً وشحما على غيرها فى البرارى الجنوبيـة . كما كانوا يسيطرون على الـوديان التى حول نهرى « الأنـون » و«الكيرلون » تلـك الوديـان الغنية بمُـروجها الواسعة ، التى تكتنفها جبال نَبتت على مَدارجها وفى سُفوحها أشجارُ البتولا والتوت ، تهَيم خلالها صنوفٌ من الحيوان البرية .

وهكذا هيأت طَبيعـة تلك الوديان عيشًا رغـدًا لأهلها ، فعلى نباتها يعيشـون ، ومـن قَنَصهـا يطعمـون ، والمياه بين أيـديهم جـاريـة فـلا يظمئون، والمروج بـأعشابها الدائمة مَـرتع فسيح لماشيتهـم ، ولهم من لحومها وألبانها وأوبارها وجلودها ما يشتهون .

وكان « كابول خان » يفرض على القبـائل التى تحت سلطانه فريضة سنوية يؤدونها إليه ، من خيل ومـاشية ، ثمنَ دفاعه عنهم وسهره على

مصالحهم . ويموت « كابول خان » ويرث الزعامة من بعده «يسوجاى » وكان داهية فَطنًا ، فدان له المغول بالطاعة وأحسنوا له الاستجابة . ولكن ما إن ولى «يسوجاى » حتى خرجت عليه قبائل ، منها «التايدجوت» و«المركيت » وهم ما هُم شدةً ودهاء ؛ يظنون أنهم خالعون عنهم نير العُبودية الذى فرضه عليهم « كابول خان » ، يشنّون عليه الحرب مرة ويحيكون له الدسائس أخرى .

ويخرج « يسوجاى » يومًا إلى شاطئ نهر « الأنون » يتريّض ، وقد امتطى صهوة جواده وحمل صقره على ذراعه ، فإذا هو يقع بصره على زعيم من زعماء « المركيت » هو « يك شلاو » وإلى جنبه عروسه «هولون » . وأُخذ «يسوجاى » بجمال « هولون » وهالَه حسنُها . فعاد أدراجَه يستنفر أخوَين له خشيةَ أن يفلت منه « يك شلاو » وعروسه «هولون » . وعاد الإخوة الثلاثة يستحثُّون جيادهم إلى حيث قَبع « يك شلاو » وزوجُه ، يريدون بهما شرًا .

وما إن لمح « يك شلاو » « يسوجاى » وأخويه يسرعون إليه حتى عرف ما يبيِّتونه له ، وما كان يملك أن يَصْمد لهم . عندها فكّر في أن ينجو بعروسه من ذلك الشر المحيط ، فالتَفت يبحث عن مخبأ فلم يجد ، وأعجله خصومه عن أن يدبّر أمره أو عن أن يحمل معه زوجه على فرسه ، ورأت هى الشرّ يدنو من زوجها رويدًا رويدًا ، ورأت فراره دونها فيه منجاة له وإبقاء على حياته ، فتضرّعت إليه أن يُسرع فيهرب ، وناشدته أن يفعل ، ثم خلعت عنها قميصها ودفعته إليه رمزًا لما بينهما

من رباط جامع ، ووعدته إن هـي نجت فهى لا شك لاحقة به ، وإن خانها الحظ فلـم تستطع به لحاقًا ، وكـان لابد له أن يتـزوج ، فعليه أن يُطْلق اسمها على تلك العروس التى سوف يختارها . وقَبعت «هولون» حيث هـى تستقبل ما سـوف يسوُقه لها القَـدر ، تُعول وتَندُب جَـدَّها العاشـر . ومضى « يك شـلاو » على جواده ينهب بـه الأرض والإخوة الثلاثة في إثره ، حتى إذا يئسوا من اللحاق به عادوا أدراجهم إلى حيث استقرَّت « هولون » .

* * *

وحمل الإخوة « هولـون » بعد وعد ووعيد ، وبعـد أن لم تجد مناصًا من أن تـذهب معهم ، وبعد أن رأت أن الحيلـة قد تُغنى حيـث لم تُغن المقاومة . ولكـنّ القَدر جرى بغير ما قـدَّرته « هولون » ، وإذا هـى بعد أيام زوج لـ «يسوجاى» ، وما كانت تملك من أمرها شيئا .

ولم يَفُتْ « يسوجاى » أن الزعيم المركيتى سوف لا يَنسى ما كان من اغتصاب لزوجتـه ، وما فاته كـذلك أنه سوف يحرِّك لهذا الأمـر قبيلته «المركيـت » التـى تنحـدر مـن سُلالـة « التنـدرا » المعـروفين بـالشـدة والبَطش، وما فات دهـاءه أنّ معاجلة القوم قبل أن يعاجلـوه أقوى له وأسلـم ، ومن الخير أن ينهـض لهم قبـل أن يستعدوا ، ومـن الخير أن يأخذهم على غرَّة فيلقى عليهم درسًا بعد درس ، ليخافوه ويرهبوه .

من أجل ذلـك جهّز « يسوجاى » جيـوشه ، ومن أجل ذلـك فاجأ «يسوجـاى» قبائل « المركيت » . وكان لـه ما كان ، فعـاد غانماً آسراً ،

كان فيمن أسر من « المركيت » زعيمهم « تيموجن » . وكان يوم عودته من تلـك الغزوة ظافـرا هو يوم أنْ وضعت لـه « هولون» ولـدًا ذكرًا ، فكـان له مـع قومـه بذلـك فرحتـان : واحدة للظفـر ، وأخرى لهـذا الوليد .

تيموجن

وما شُغل «يسوجاى» حين عاد بـالنصر والظفر ، ولا شُغل بتأهيل قومـه وترحيلهـم ، ولكنه أُنسـى هذا كلـه وذكر شيئًـا واحدًا ، ذكـر «هولون» وما بلغه عنها مـن وضعها ولدًا ذكرًا ، فما إن أدرك أن مدينة «القبـاب» بالقـرب من جبـل «دليجون بـولداك» حتـى خَفَّ ليلقـى «هـولـون» ويتطلَّـع إلى وليـده . وهنـاك فى قبـة «هـولـون» جلـس «يسـوجاى» طـروبًـا يستمع إلى النسـوة وهـنَّ يحُدِّثنـه حديـث ولادة «هـولون» . وكـان فيما يَروينـه له بعـد أن ذكرن لـه شيئًا عما وجـدت «هولون» من عُسر وألم ، أن الوليد خرج من بطـن أمه قابضًا بأصابعه على مُضغة مـن الدم ، وكما طـرب «يسوجـاى» لسلامـة «هولـون» وسلامة الوليد طرب للذى حدَّثـه به النسوة عن هذا الوليد ، واطمأن له ، وتنبأ له مع المتنبئين بحياة مليئة بالبطش والجبروت .

وكـان «يسوجـاى» مُعجبًا بـأسيره «تيمـوجن» ، مُعجبًـا بقُوَّتـه وبطشه ، معجبًـا بما رزقه الله إياه من خلـق مكين وبِنْية قوية ، يمـلأ كل ذلك عليـه نفسه ويملأ عليـه خيالَه ، فـإذا هو يطلق على وليـده اسمه ، يستوحى من هذا الإعجاب ، ويستوحى من تلك النفس وذلك الخيال .

ولقد كان للتسمية ظلٌ من الحقيقة ، فكلمة « تيموجن » عند المغول معناها القوى الصَّلْد ، ولعلها حين أُطلقت أولاً على ذلك الأسير أُطلقت ملحوظًا فيها ذلك ، ولعل «يسوجاى » حين أطلقها على ابنه كان متفائلا له بذلك .

* * *

ونشأ الوليد فى أحضان أُمه تَغذوه بلَبنها ، حتى إذا ما حان فطامُه أخذت تغذوه بألبان الخيل والماشية ، حتى إذا ما بدأ يَدْرُج كانتَ الأم قد حمَلت بأخ له ثان .

وشَب « تيموجِن » بين عشيرته يستمع إلى أحاديثهم عن الحرب والسلب . ويُصيخ إلى أقاصيصهم وخُرافاتهم ، تملأ عليه الأولى نفسه ، وتملأ عليه الثانية عقله ، فإذا هو صورة من القوم جُرأة وبطشًا إذا ناضل ، وخُرافة وأباطيل إذا حَدَّث .

وما إن قويت ساقاه على حمله وصلُب عوده واشتدَّ ساعده ؛ حتى أخذ فيما يأخذ فيه أمثاله ، فكان عليه أن يحرس الخيل فى محابسها ويعنى بعدَّتها ، ويقف على الماشية فى مراعيها ، ويخرج فى طلب الكلأ . حتى إذا ما استوى رجلاً ، شارك فيما يشارك فيه الرجال ، وسهر معهم على الجبال ليالى الشتاء القارسة وسط العواصف الثلجية الطاغية وما من مخبأ يستترون فيه ، أو نار تبعث الحرارة في أوصالهم ؛ يصبر على الجوع كما صبر على البرد ، ويَصْمد للشدائد لا يجزع ولا يلين .

* * *

ولقد نشأ « تيموجن » كما حَدَس أبوه وتنبَّأ له قوىَّ البنية فارع الطول ممتلئ الجسم صلب العود ؛ كما رُزق عقلا راجحًا وقوة حيلة وحُسن تدبير. ولقد قذف به أبوه إلى خضَمِّ الحياة قَذْفًا ، لم يَرحم شبابه الغَض ولا عُوده اليانع : شارك فى السباق فغلب ، ورمى بالسهام فأصاب الهدف ، وصارع فَبَزّ ، كما شارك فى الرأىّ فأفاد خبرة ودراية .

بهذا نشّأه أبوه فضمنه قوى البدن والعقل .

وفى إثر « تيموجن » جرى أخوه « كاسار » يحذو حذْوه وينْسِج على منواله ؛ ولم يكن الفرق بينهما فى السن كبيراً . وكما رَمى « تيموجن » عن ساعد قوىّ ، رَمى « كاسار » عن ساعد قوى . وكان « كاسار » أقوى وأشد ، ولكنه على هذا لم يشأ أن يسبق خَطْوُه خَطْوَ أخيه ، أمنًا لشرِّه وتجنّبًا لخصومته وكيده .

* * *

ولم يكن للمغول مَدارس ولا دُور للعلم كما كان لجيرانهم من المسلمين فى القرن الثالث عشر ، فما كانوا فى بَداوتهم يَفْرغُون لشىء من ذلك ، بل لقد فرغوا لحياة البادية ، فهم بين حرب أو استعداد للحرب . وعلى الرغم من ذلك فقد أفاد هذا الشعب من الحياة ، جعلها مدرسته يَلْقَن عن محنها ، ويَستملى أحداثها ، ويُفيد من تجاربه فيها ، تمنحه الطبيعة من عُنفها بـه قوةً عليها ، ومن تَقتيرها علَيه صبرًا لها ، ومن وُعورتها دونه حيلة بها . عَرف ألاَّ حياة لضعيف ،

فأخذ فى الكثير مما يخْلُق منه بدَنًا قويًّا ؛ وعَرف ألاّ عيش لذليل ، فارتدَّ يُعمل عقله ويستمد ذهنه لينتزع من براثن الطبيعة ما يقوتُه ، واختلفت مشاهد الطبيعة بين يديه وتحت سمعه وبصره، تجمُد حينًا فتستحيل الأرض بحرًا من جمَد والسماء ظُلَّةً من غيم مكفهر ، فتعبس نفسه ويقسو طبعه ويُظلم خياله ، ثم تسيل بين يديه حينًا آخر فتستحيل الأرض عُشبًا مُخضرًا وأشجارًا مُورقة ، وتنقلب السماء قبة زرقاء متألقة بنجومها ، ويمتلئ الجوُّ طيرًا يشدو بالأنغام فتنبسط نفسه ويَرِقُّ طبعهُ ويُشرق خياله ، وإذا هو مع الحالمين يحس بالطبيعة ما حوَت من جمال ، يشعر بها ويستلهمها ، ويضم إلى أنسه بها أنسًا بما يُبدع من لهو وطرب ، لا ينسى حظه من الحياة الوادعة ؛ وإذا استسلم إلى تلك الحياة شيئًا تحرَّك منه قلبه فمضى يُفسح لحُبه ويرخى العنان لعاطفته فإذا له صفحات من حُب وعشق وغرام ، معها مغامرات ومنافسات .

وهكذا أسعفت الطبيعةُ هؤلاء الناسَ بالكثير من زاد مادىٍّ وزاد روحى وزادٍ عقلى ، وإذا هم آخر الأمر شَعب يتميَّز بقوة الجسم وقوةَ الروح وقوةِ العقل . وإذا هو مدفوع إلى أن يُرضى هذه القُوى جميعًا ، فكانت له الفتوح التى حققها ، والنصر الذى ناله ، والخروج من تلك الطبيعة المحدودة إلى بيئات أخرى ، فانتشر شرقًا وغربًا يطوى الأرض ويطوى الشعوب طيًّا .

* * *

ولقد استمع « تيموجن » كما استمعت عشيرته معه إلى المُنشدين

وهم يروون فى حَلقاتهم التى كانوا يعقدونها ويجتمع الناس إليهم فيها، ما كان لأسرته من مجَد أزلى، أوَليست تَنحدر من سُلالة «البورشيكون» ـ ذوى العيون الرمادية ـ التى تمُتُّ إلى الآلهة بسبب ؟

وما كان غريبًا على القوم أن يُصدِّقوا، فلقد نشئوا يؤمنون بتناسخ الأرواح، ويؤمنون بأن الروح الخيرة تتقمَّص جسما خَيِّرًا، وأن الروح الشريرة تتقمَّص جسما شريرًا، تخرج من مرتبَة خيرَّة إلى أخرى أعلى خيرًا، وهكذا تظل الروح فى ترقِّيها حتى تكون آخر الأمر أقرب شئ إلى طبيعة إله الخير . كان ذلك مُعتقد القوم فى الحياة، وكان ذلك معتقدهم فى «تيموجن». من أجل ذلك استمعوا إلى المُنشدين فزادوا تعلقًا به، ومن أجل ذلك استمع «تيموجن» إلى المُنشدين فزاد إعجابه بنفسه وعلوًّا بها .

وكما كان « تيموجن » يستمع إلى هذا اللون استمع إلى غيره ممّا لَفَته إلى نفسه وهيأه لحياة جادة . فلقد كان للقوم أُرجوزة سائرة يتغنّون بها، أُرجوزة أشبه شئ بالملحمة تَنتظم حياة سَلفه : تنتظم بلاءهم فى الحياة، ما كان لهم وما كان عليهم، وإذا هى تعرض حياة جَدّه «كابول خان» وما كان منه مع إمبراطور « الخطاى » الذى كان ينازعه السلطة والجاه، حين جَذبه من لحيته ذليلاً مهينًا، كما تعرض لما فعله هذا الإمبراطور بجدّه حين دسَّ له السم فقضى عليه .

وإذا عرضت الملحمة ما كان من حياة الجد، انتقلت تعرض ما كان من حياة العَم « طغرل خان » الذى عاش زعيما لقبيلة « القرايطة » تلك

القبيلة التى عُـرفت بالبطش والجبروت بين بـدو صحراء « الجوبى » .
تعرض الملحمة هـذا كلّه ويسمعه الناس ويسمعه « تيموجـن » فإذا هو فَخور بجَدّه ، فَخور بعمه ، فَخور بأبيه « يسوجاى » ، فَخور بأنه من تلك السلالة التى تنتمى إلى الآلهة ، وإذا هـذا الفخر يملأ قلبه زهواً ، ويملأ نفسـه أملا ، ويملأ خيالـه تعلقًا بذلك الجاه المأمـول والسلطان المرتقب .

ولعـل هـذا هو الـذى حبَّـب إلى نفـس « تيموجـن » أن يجلـس إلى الحكماء والإخباريين ، وكـان عندهـم علم الـدول المجاورة ، يستمـع إليهم فيُضيف إلى هذا الـذى أزكى زَهْوَه ما يُزكى بصره ويُـزكى خبرته ويحُيى مَعرفتـه ، فإذا هو على علْم بالأرض التى يعيـش عليها ، وعَلْم بالأرض التى يعيش عليها جيرانُه ، وإذا هو قد عَرف تاريخ الأمم بعد ما عرف تاريخ أُمته .

عرف « تيمـوجن » أن أرضـه إذا قيست إلى أرض « الخطـاى » فلن تبلغ إلا جـزءاً من مائة ، وعرف أن قـومه ما أمنـوا شر « الخطاى » إلا لأنهم قوم رُحَّل يخَفّون من مكان إلى مكان بُعداً عن الشر وتجنّبًا للغزو ، وعرف أن قومـه يحتالون لحياتهم فـإن رُزقوا الفرصة أغـاروا ففَتحوا ، وإن فاتـت عليهم الفـرصة قبعـوا وتواروْا ، وعـرف « تيموجـن » أن قوَّتهم فيما لهم من تفوُّق حربى وقوة على مغالبة الخصوم ، وعرف أنهم إذا استحـالوا عـن طبيعتهم البـدويـة إلى طبيعة حضريـة فأخلـدوا إلى مكان ، واستنـاموا إلى حياة المدن والعواصـم فَتَّ ذلك فى عَضُـدهم ،

وأوهن من قُوَّتهم ، وأضعف من شوكتهم فضاعوا في غيرهم .

وكـذلك لَقـن « تيموجـن » من هـؤلاء الشيوخ أن البيَـع والهياكـل تنشئ الناس على الـدَّعة واللين ، وأن تلك الحياة إذا دخلـت على قومه بدَّلتهم حياة وادعة ليِّنة ، فخرجوا عن طَبعهم الأول المرهوب إلى طبع لا يُرْهب عدوًّا ولا يخيف غازيًا ، وليست الحياة إلاّ للغالب القاهر .

فى ظل هذا كله نشأ « تيموجـن » ، وبهذا كُله تثقّف « تيموجن » ، ومن هذا كُله رسم دُستوره فى الحياة ورسم الناسُ معه دستورهـم .

* * *

وكان « تيموجن » كلما خطا إلى الحياة خُطـوة أحس بدَبيب القوة فى قلبه والزهو فى نفسـه ، وازداد إيمانًا بزَعامته على قومه ، تلـك الزعامة التى آلت إليه بعد أبيه « يسوجاى خان » ، يُقوِّى هذا الإيمان فى نفسه ما أصاب من خبرة ، وما أدرك من معرفة ، وما منّ الله به عليه من قوة .

ولقد خرج به أبوه يومًا ، وكان لا يزال شابًّا ، إلا أنه على ذلك كان ممتلئًا حميَّة وقُوة وذكاء ، خرج به أبوه يضعه خلفه على فرسه ، وقد بدا فارع الطول عريض المنكبين ، تنساب على ظهره جدائل شعره الأحمر ، وتسطع الشمـس فيتألق وجهه الغليـظ المتجعد ، وتثور الريـاح تسفى بالـرمال ، فتهيـج عيناه المتبـاعدتـان الضاربتـان إلى الزرقـة وتغشاهما هالتـان حمراوان ، ويتراءى الفتى بين لفح الشمـس وثورة الريـح وهو مقطب الجبين مستقـر فى جلسته معتـدّ بقوتـه ، فإذا هـو قد لفـت إليه الأبصار إعجابًا وإكبـارا ، إذ لم يكن بعدُ قد بلغ أن يجلس مـن أبيه هذا

المجلس ، ولا أن يستوى كذلك معه على سرج ، ولا أن يخرج معه إلى تلك الرحلة الطويلة ، ولا غَرْو فقد كان للفتى ماضٍ على صغر سنّه أتى فيه بما يأتى الفرسان، وفعل ما يفعله الشجعان . ولقد أراد الأب بابنه من هذه الرحلة شيئًا فوق ما كان ، أراد أن يَدْخل به إلى حياة الرجال صغيراً ، وأراد أن يشركه فى الرأى ليُفسح المجال لعقله كما أفسحه لبدنه .

لقد كان قَصد الأب أن يُلمّ بمنازل قبيلة « أولهونود » ليحيى صلة ويجدِّد عهدا ، وأحب أن يحضر ابنُه ما بين الناس والناس بعد ما حضر ما بين الأفراد والأفراد . وحين أشرف « يسوجاى » على الحى مرّ بعجوز على باب قُبتها ، فوقفت إليه تتطلع إلى الغلام ثم قالت : «ليكونن لهذا الغلام شأن أىّ شأن ، فلقد رأيت فيما يرى النائم أن صقرًا يحمل على جناحيه الشمسَ والقمر قد حَطّ على يدى ، وإخال أن هذا الحُلم قد تحقق بمقدمك ، وكأنى بابنك هو هذا الصقر الذى رأيته فى مَنامى ، وما أطمعنى فى أن يُصهر إلىّ فأزوِّجه إحدى بناتى ، وإنّا لمن قوم أغنياء أكفاء للأمراء ، هذا إلى أن بناتى وَسيمات وجميلات ، ولئن تركت لى الخيار لأختار له إحداهن اخترت له ابنتى بورتاى » .

وما وصلت إلى هذا من حديثها حتى رفعت السِّجف وطلبت إليهما الدخول ، فإذا هما أمام فتاة على حظ كبير من الجمال والفتنة ، وما إن وقع عليها نظر الفتى حتى شغف بها وعَلقت بقلبه ، وإذا هو لا يرفع بصره عنها .

ولقد جَهد الوالد فى أن يَصرف فتاه ولكنه لم يَقْو ، وإذا الفتى يطلب إليه أن يَستجيب لما طلبت العجوز ، ولكن الوالد ردّ فتاه عما سأل متعلّلا بصغر سن الفتاة . ويُنعم الفتى النظر إلى الفتاة مرة إلى شعرها المرسل ، ثم يُطيل النظر إلى قَدِّها اللدْن وإلى وجهها النضير وإلى نَهَديها المكوّرين وهما يكادان يصوِّران مكانيهما تحت جلبابها السميك ، يحاول بذلك أن يَرُد على أبيه قولَه . ولكن الأب كان عن ذلك كله منصرفًا ، فهو يرى برأيه وفتاه يرى بقلبه ، وما استطاع الرأى أن يَغلب القلب ، وما كان بالأب إن يُمعن فى إبائه ، وما كان بالابن أن يتأبّى على قلبه ، ولقد ملك أن يقول لأبيه مُفصحًا ، فلم يَسَع الأب إلا أن يستجيب ، وخرج لشأنه مخلفًا ابنه فى بيت العجوز ليعرف فتاته ويرى رأيه .

وفيما كان « يسوجاى » عائدًا إلى أهله عضّه الجوع بنابه ، وأحسّ حرّ العطش على لسانه ، وقذف به السير إلى قباب قوم من أعدائه ، وكانوا فى حفلة من حفلاتهم الصاخبة . وعلى الغريب الطارئ إذا مرّ بقوم أن يترجَّل ويُشارك القوم فيما هُم فيه . ولكن « يسوجاى » لم يشأ أن يفعل لما يعلم عن القوم من خصُومه وعداء ، ومضى فى طريقه يغالب الجوع والعطش ، فإذا هو أضعفُ من أن يقوى لهذا وذاك ، فعاد أدراجَه إلى حيث القوم مُحتفلون ، وأخذ يُشاركهم ما هم فيه فطعم من طعامهم وشرب من شرابهم . غير أن القوم كانوا لم يَنْسوا موقف « يسوجاى » منهم ولا ما كان له معهم ، لم يُنسهم ما هم فيه

من لهو ما يحملونه له من عـداء ، فدسُّوا له السم فى الطعام والشراب ، وما خرج عنهم « يسوجاى » حتى أحـسَّ بألم السم فى أحشائه فاحتمله صابرًا أيامًا ثلاثة قطعها فى تلـك الرحلة المضنية ، ثم أدرك منازل قومه وهو فى الرّمق الأخير ، وهناك أخذ يُفضى إلى أهله بما كان .

* * *

وفيما كان « تيموجن » مع حمَية « مونليـك» يهيئ لزواجه من محبوبته الحسناء إذا بفـارس ما كاد يبلـغ القباب حتى ترجّـل عن فرسـه عجلا يعدو هنـا وهناك على غير هُدى وهو يَصيـح باسم « تيموجـن » . وما كاد يخرج إليه « تيموجن » حتى تلقّاه الفارس بهذا النبأ المروِّع ، نبأ أبيه « يسوجاى » وطلب إليه لهَفًا أن يخَفَّ معـه للقاء أبيه ، فما أشوقه إلى أن يراه قبـل أن يخلِّف الحيـاة . وما كان أسرع مـا اعتلى « تيموجـن » ظهر جـواده ، ثم مـا كان أسرعـه إلى المضى دون أن يـودِّع حمَاه ، ودون أن يقول كلمة لعروسه .

ولكن « تيموجن » ما كاد يبلغ مدينة القباب « الأوردو » حتى وجد أباه قد خلَّف الحياة . هنا أحسَّ « تيمـوجن » بالعبء الثقيل يُلَقى على كاهلـه وما حمل مثلَـه من قبل ؛ أحسَّـه فى فقد الأب فحـزن لذلـك ثم أسى ، وأحسَّه فى ذلك الفراغ الذى خلَّفه له فهبَّ يسدّ هذا الفراغ حتى أوشك أو كاد .

غير أنه ما بلغ أن يفعل فعْلَ أبيه فى حياته حتى اضطربت عليه الحياة التى بدت صـافية ، واختلفت بين يديـه الأمور وقد تراءت مـوائمة ،

فقد استهانت بأمره عشيرته ، فهو لا يزال بعدُ فتى له أن يحكم فتيانًا لا أن يحكم رجالا وشيوخا ، ورأوا أنفسهم أغرارًا إن هم أسلموا قيادهم له ، فما الفُتوة التى تخيَّلوها فيه ، ولا رجاحة العقل التى رجحت بها كفّته كفة غيره، ولا خبرته التى خَبروها لمن فى مثل سنه بمُغنية عنهم شَيئا ، وأين ابن الناشئ من الأب الناضج ، وأين العود الغَض من العود الصلّد ؟

لهذا خرجت عليه العَشيرة لا تنتظر به ما أمَّلته فيه ، فهم أبناء ساعتهم لا أبناء غدهم ، وما يحُبون أن يخَسروا اليوم قليلا ليستردُّوا بعد اليوم كثيرا .

وهكذا قرَّ قرار القوم على أن يجتمعوا يتشاورون ، وأن يُسندوا أمرهم إلى رجل منهم له سنٌّ فيَجلُّ فى النفوس ، وله بطش فترهبه القلوب ، وله جاهٌ فيُطاع . وحين اختلفوا على « تيموجن » اختلفوا على أنفسهم ، فخرج منهم نفر يبغون هذه الصفات فى عشائر أخرى حين فقدوها فى عشيرتهم ، وبقى نفر لا تجتمع لهم كلمة فى يومهم حتى يفرِّقها عليهم غدهم ، وانطوى نفر على أنفسهم يُضمرون الحب لـ «تيموجن » ولا يستطيعون الإعلان عنه ، يدينون للسلف بما دانوا به للخلف ، وكانوا قلة قليلة .

* * *

وهكذا تفرَّقت كلمة مغول « يكَّا » واضطرب عليهم أمرُهم ، ومرَّت بالفتى أيام عانى فيها من خلاف أهله عليه ما عانى ، وامتُحن

فيها بوثـوب أعدائه به ، والأعداء نهّازون للخلاف . ولكـن الفتى كان قـد اعتاد البـأس فاحتمـل ، وكـان قد ذاق الشـدة فلم يضعـف لها ، وصمد لما مرَّ به يهاجم ويخادع ، ويشتـد على أعدائه ويلين لأصدقائه ، وكشفت له تلك المحنة عن بلاء كثير ، وأفاد منها عظات ، ولقن عنها دُروسا ، وطـالعتْه بصفحة جـديدة مـن صفحات الحياة كـان عليه أن يقرأها وينتفع بما فيها .

كفاح العبقرية

بهذه النفس القوية وهذا العقل الواعى ، استقبل « تيموجن » تقلّب الأيام وغدر الصحاب وتنكرُّ العشيرة ، ما وَهن ولا استكان ولا خانه وعيه ولا ضَلّ عنه فكره . لقد عرف « تيموجن » أن الشدة تُقَابَل بالشدة ، وأن المغلوب من خرج عن وعيه ، والمهزوم من يئس ، ولا مكان في خضَم هذه المحنة إلاّ للقوىّ الحازم المطمئن . وحين ملك «تيموجن » أن يطمئن مع الأهوال ملك أن يفكِّر ، وحين ملك أن يفكِّر ملك أن يتبّين كُنه أعدائه ، وأن يتعرّف ما عندهم ، وأن يتخيرّ الوسائل التى يقوى بها عليهم . وكان على « تيموجن » أن يَلُمَّ شمل أصدقائه ويُنظِّم صفوفهم ففعل ، ولقد رأوه جَلداً شجاعَ الرأى والعقل ، فهبّوا لنُصرته غير متخاذلين ، وحين اجتمع لهذا الفارس الصغير هذا الجمعُ الصغير وسط هذه المحنة الهوجاء أرهب عدوَّه وأخاف خصمه وأخذت الأمور تنقاد له ، وإذا الذين خرجوا عليه بالأمس استهانةً به قد أذعنوا ، وإذا عدوُّه الذى قد تهيأ لغزوه رَجع يتدبّر أمره ، وإذا الحياة تعود فى القَبيلة أمنًا وطمأنينة ، وإذا الراحلون عنه منهم قد عادوا إليه ، وإذا « تيموجن » زعيمهم كلهم قد اجتمعت له الكلمة عليهم .

ويخرج « تيموجن » يوماً إلى نهر « آنون » يصحبه أخوه « كاسار » لصيد الأسماك ، ومعهما أخوان لهما غير شقيقين لأمٍّ أخرى غير أمهما ، هما «بايكتار» و « بلجوتاى » ، ويقع « تيموجن » على سمكة كبيرة ، فيريدها لنفسيهما هذان الأخوان غير الشقيقين ، ويكاد « تيموجن » يَبطش بهما . وتعلم أُمه ما كاد أن يقع بين الإخوة ، فَتخفّ إليهم لتُلقى على ابنها درساً عنيفاً قوياً ، ويَستمع لها « تيموجن » غير راض ولا مطمئن . لقد ذكّرته أُمه بالفُرقة ، وما نفضوا أيديهم منها إلاّ منذ حين قريب ، وذكّرته أمه بتربّص أعدائهم بهم وتحيُّنهم لمثل هذه الفرص ، وهم على الأبواب . ولكن «تيموجن » لم يكن قد ساءه من أخيه «بايكتار » هذا وحده ، بل قد أساء إليه « بايكتار » من قبل بمثله حين عدا على طائر له كان قد صاده هو فأستأثر به دونه .

وهكذا رأى « تيموجن » أن الإذعان لكلام الأم على ما فيه من خير عامّ فيه الإجحاف به والامتهان لشأنه ، وهو ما احتمل ما احتمل ولا صَبر لما صبر له إلاّ لتكون له الكلمة ويكون له الأمر ، وها هو ذا «بايكتار » يَسلُبه ما عجز القوم عن أن يَسلبوه إيّاه ، ويريد أن يضعه حيث لا يريد هو أن يَضع نفسه . لقد كانت الأم فى جانب الحق حين رأت ما رأت ، وكان « تيموجن » فى جانب الحق حين رأى ما رأى ، فقد أحبّ « تيموجن » أن يتمثّل كلام الأم ويرعاه لو أن أخاه « باكتار » تمثل حقّه ورعاه ، ولكن « تيموجن » لم يحُب بفطرته النازعة إلى الجاه والسلطان أن يرعى حقًّا لا يرعاه معه غيره . من أجل ذلك لم يَستجب لأمه ، وفكَّر فى الخلاص من أخيه « بايكتار » ، وبهذا صرَّح لأمه .

وخرج « تيموجن » مع أخيه « كاسار » يصعدان إلى الجبل ، وهناك أدركا « بايكتار » وهو يَرعى الخيل ، فاستدار به الأخَوان « تيموجن » من خلفه و« كاسار » من أمامه يُسدِّدان إليه سهميهما . ويقع نظر «بايكتار » على الأخوين يتهيآن لقتله فيُناشدهما أخُوَّتهما له ألاّ يفعلا ، ويقع على الأرض يحسب أنهما راحماه ، فيرمى « تيموجن » ويرمى «كاسار » وإذا «بايكتار» صريع مضرج بدمه .

ويعود الأخوان إلى أمهما « هولون » وملامحهما تُفصح عما ارتكبا ، فتثور بهما الأم مُؤنبة غاضبة ، وتتجه إلى ابنها « تيموجن » تقول له : «لا غرو ، فما هذا بغريب عليك ، أنت الذى نزلت إلى الوجود بيد مملوءة دمًا . وما فعلت غير ما تفعله الوحوش الضارية لا تعرف فى ثَورتها أى شىء هى تفترس ، أما كان الأجدر بك أن تُوجه ضربتك إلى أعدائك « التايدجوت » بدلا من أن تُوجهها إلى أخيك ؟ » .

ولكن « هولون » قد فاتها أن ابنها « تيموجن » لا يَغفر لخصمه امتهانه له ، يستوى فى ذلك أن يكون الخصم أخًا أو عدوًّا ، ولقد فاتها أن ابنها «تيموجن » لن يقوى لخصمه الأكبر قبل أن يفرُغ من خصمه الأصغر ، وكيف له أن يمضى للقاء « التايدجوت » وهذا أخوه «بايكتار » يريد أن يهوّن من شأنه ، وكيف تكون له الكلمة المسموعة فى عشيرته والسلطان النافذ فى أهله ، وهذا أخوه « بايكتار » يريد أن يتنقّصَه ويهوّن من أمره؟ لقد كانت للأم سياسة وكان لابنها «تيموجن» سياسة ، وكانت الأم تقوى عليها العاطفة ، وكان الابن يقوى عليه الطموح . من أجل ذلك غلب ما عند الابن على ما عند الأم .

لقد كان « تيموجن » مملوءًا حقدًا على « التايدجوت » ، وكان مملوءًا أملاً فى النيَّل منهم والقضاء عليهم ، ولكنه على هذا كان مملوءًا إيمانًا بأنه لن يُكتب له الفوز على عدوِّه إلاّ إذا كتب له الفوز بأهله ، ولن يكتب له النصر على « التايدجوت » إلاّ إذا كُتب له النصر على عشيرته. وضمنهم إلى جواره على الطاعة والتقدير ، فهو لهذا فَعلِ بأخيه «بايكتار » ما فعل . وكان بما أخذ به أخاه صاحب الكلمة فى قومه يخشَونه ويرون أنهم إن ناصبوه العداء فلن يكونوا أعزّ عليه من أخيه .

وهكذا وطَّد « تيموجن » لهَيبته فى نفوس قومه ، ووطَّد لها فى نفوس أهله وإخواته ، وعلَّمهم بهذا الدرس القاسى المصيرَ الذى ينتظر كل خارج . ولعل « تيموجن » كان يحُس من أخيه « كاسار » شيئًا ، فقد مرّ بنا أنه كان هو الآخر طَموحا ، فأراد بالذى فعله أن يجعله على بيِّنة من أمره .

* * *

وحين استقرت الحياة لهذا الزعيم « تيموجن » بين قومه أخذ يفكر فى الحياة الأخرى المحيطة به ، حياته بين خصومه من حوله . وكان أشدّ هؤلاء الخصوم عليه « تارجوتاى » زعيم قبيلة « التايدجوت»، فلقد نادى بنفسه خانًا على كل مرتفعات « الجوبى » ووديانها . ثم مضى يقلِّب العشائر على « تيموجن » ويُثيرهم عليه ، يغرى من يُغرى منهم ، ويشترى من يشترى منهم ، لينهض بهؤلاء جميعًا إلى مدينة «القباب » .

ولكم ودَّ « تيموجن » أن يتريّث بخَصمه حتى تكتمل له قوّته ، ولكم رجا ألا يُعاجله خصمه حتى تتهيأ له هوالفرصة ، ولكن خصمه «تارجوتاى» لم يُمهله ولم يَدع له تلك الفرصة . لقد كان هجوم «تارجوتاى» هجوما مُفاجئًا ، وكانت جموعه أكثر من أن تَصْمد لها جُموع « تيموجن » .

وكان على « تيموجن » أن يحتال لأمره بعد أن وجد أنه لا قِبَل له بعدوه ، فرحل هو أُسرته إلى كهوف الجبال يلُوذ بها ، على حيِن أخذ أخوه غير الشقيق «بلجوتاى » يقطع الأشجار ويضعها فى طريق المُعتدين يعوِّق بها مسيرهم ، وانتحى أخوه الشقيق « كاسار » ناحيةً من الربوة يُرسل سهامه القاتلة على العدو الزاحف . وما كان همّ «تيموجن » أن يختفى عن المعركة ، ولكن كان همه أن يتوارى عن عيون الأعداء حتى لا يقع فى أيديهم لُقمه سائغة فتذهب بذهابه ريح قبيلته ، وأراد أن يخُلى الجو لعدوِّه هذه المرة يفعل ما بدا له حتى إذا ما أيأسه البحث عنه عاد أدراجه ثم يعود هو إلى الظهور يدبِّر لأمره والانتقام من عدوه .

وكان « تيموجن » مُؤمنًا بما يؤمن به قومُه ، فاتجه بوجهه إلى الشمس وهى تميل إلى المغيب يسأل الآلهة الخلاص ، يُريق اللبن على الأرض ويُدقّ صدره بيده مرات تسعا ، وهو يُنذر نذره الأكبر بأن يُقدِّم هو وآله من بعده إن نجحوا قرابينهم . وما كان « تيموجن » يقوى لغير هذا ، وما كان من الرأى أن يعرِّض «تيموجن » نفسه

للهلاك ، وما كان من الرأى أن يخرج للحرب فيصمد لها بين قومه فيعرِّضهم معه للهلاك ، ولقد رأى أن القوم مُنتهون وراجعون إن لم يعثرُوا له على أثر . من أجل ذلك تلبَّث فى الجبل أيامًا تسعة .

وما أغنت سهام « كاسار » وما أغنت تلك العوائق والأشجار ، وانتشر قوم « تارجوتاى » بين القباب يبحثون عن « تيموجن » . وكانوا أعقلَ من أن يعودوا دون أن يَقَعوا له على أثر ، وكانوا أعقل من أن يدعوا هذه الفرصة تُفلت من أيديهم . من أجل ذلك جدُّوا فى البحث وراء «تيموجن » لا ييأسون ولا يَمَلُّون .

ولقد ضاق « تيموجن » صبرًا بمكانه ، وضاق صبرًا بالجوع والظمأ ، فخرج من كَهفه يتلمَّس شيئًا من قُوت وشيئًا من ماء ، فإذا هو بين يدى أعدائه . وما كاد أعداؤه يَقعون عليه حتى وضعوا القيود فى يديه وقدميه والنِّير على قفاه ، ثم قادوه بين أيديهم مهللين ومن خلفهم الأسلاب التى غنموها .

وأودع « تيموجن » السجن فظَلَّ فيه ، وما قَيَّد عليه خُصومه فكره وإن كانوا قد قَيَّدوا عليه حركته فبقى حيثُ هو فى سجنه يفكر فى مصيره ، يفكر فى أهله وما حلَّ بهم من بعده ، يفكِّر فى قومه وما انتهى إليه أمرهم ، يفكر فى سلطانه الذى خرج من يده . وما كان لمثله أن يستسلم ، وما كان لمثله أن يهَون ، ومن أ جل ذلك عزم على الفرار ، وشرع يدَبِّر لهذا الفرار ، يتحينَّ الفرصة له غير مُبال ما سيكون .

ويَبيت القوم فى عيد ، يخرجون له جميعًا ويتركونه لحارسه يرعاه ،

ويَســود الظـلام ، ويَغْرق القـوم فى شرابهم وصخَبهـم ، وتَغْفُـو عين الحارس شيئًا ، فيَخلـع « تيموجـن » النِّير عنه ويهْوِى بـه على الحارس فيصرعه ، ويخرج من سجنه هاربا .

غيرَ أنه مـا أبعد شيئًـا عن قبـابهم حتى أخـذ الفجر يُـرسل ضـوءه فيكشف عنه ، فـأخذ يتلمَّس مكمنًا بعد مكمـن ، وإذا أعداؤه فى إثره بعد أن علموا أمره، فلم يَملـك إلا أن يقذف بنفسه فى جدول ، وظلَّ تحت الماء يرقُبهم وهم لا يَرَوْنه ، غير أنه أحسَّ أن واحدًا منهم قد شعر به فوَجل ، ولكن سرَعان ما سرِّى عنه حين رأى هذا الذى فطن إليه لم يكشف للقوم عنه ولم يدلَّهم عليه .

عندها حَمَد « تيموجن » إلهه ، وظل قـابعًا فى الماء حتى مَضى القوم عنه ، ثـم خرج ليمضـى فى طريقه ويلحـق بأهلـه . ولكنه كـان مُثْقل الخطو لثقل القيد فى قدميه ، وكان لا يأمن إن هو مضى على تلك الحال فى وَضَح النهـار أنَ يُلاحقـه القوم فيقعـوا عليه . وهنـا ارتدَّ إلى نفســه يتدبَّر ما كان من ذلك الرجـل الذى رآه ولم يُنذر به قومه ، وأحس أُنسًا منه إليه ، وأحس أنه صديق يجب أن يعتمد عليه فى محنته تلك .

ولكـن أنّى لـه أن يفعل ، وكيـف له أن يخلـو بهذا الرجـل ليسألَـه عَوْنه ؛ غير أن الجرىء لا يفقد جُرأته مهما اختلفت عليه الأحوال ، فما بألُه لا يسعى فى إثر القوم ، وما باله لا يلحق بالرجل مهما كلفه ذلك ، وهل هو لاقٍ غير الموت إن فشل وهو لا يخشـى الموت ؟ من أجل ذلك عَدل « تيموجّـن » عن المضىّ فى طريقه إلى أهله ورجـع يتبع القومَ على

كثب ، ولا يَعنيه غير هذا الرجل فظل يُلاحقه ببصره ، حتى إذا ما نزل القوم مع الليل وأووْا إلى قبابهم لم تَفُتْه قُبه هذا الرجل . فإذا ما هجع القوم اقتحم على هذا الرجل قُبَّته وفى عَينيه بريقٌ ينمّ عن عِرفانه للجميل ، وينمُّ على ما يحمل من بأس .

وكاد الرجل أن يَفزع وكاد أن يصيح ، غير أنه كان يرحم ذلك الأسير ويُكْبره . من أجل ذلك قام إليه فكسر عنه قيوده وهو يهمس في أُذنيه : هَلُمَّ معى فلو رآك القوم عندى قتلونى معك . وخرج الرجل بالأسير «تيموجن» إلى عربة قد تكدَّس عليها الصوف وأمره أن يدُس نفسه بينه بعد أن زوَّده بقليل من الطعام ، وبعد أن أمدَّه بقوس وقليل من السهام .

وكان القوم فى شك من فرار الأسير عنهم ، وكانوا يخالون أنه لم يبعد عنهم ، فهبُّوا مع الصباح يبحثون هنا وهناك ، يفتشون ويمعنون، وكان فيما فتشوا تلك العربة التى اختبأ فيها « تيموجن » جسُّوها بأيديهم وجسُّوها برماحهم بعد أن عجزت أيديهم ، فإذا الرماح تُصيب « تيموجن » فى بعض جسمه ، ولكنه احتمل طعنات الرماح صابراً لم يتأوَّه ولم ينبس بكلمة على الرَّغم مما أصابوه به من جُرح عميق فى ساقه ظل متأذيًا به طيلة حياته .

وما كاد القوم ينصرفون عنه ويعودن لشأنهم ، حتى خرج «تيموجن » من مخبئه فوجد المكان خاليًا ، ووجد الجواد إلى جوار العربة ، فشدَّه إليها ومضى بها يشُق الطريق مُسرعا إلى موطن قومه .

وما إن بلـغ « تيموجـن » منازل قومـه حتى وجد القـوم قد تخلَّـوا عن أهله ، وحتى وجد أسرته قد أنهكتها الحياة ليس لها ما يسُد رمقها ولا ما يقوم بأودها ، تعيش على مايقع لها مـن صيَد البر بعد جَهد جهيد وكَد شديد ، ثم هى ليس لها من الخيل إلا جياد تسعة .

ومـن قبـل أن يـدرك « تيمـوجـن » أهلـه كـان لصـوص مـن «التايدجـوت» قد عَدَوْا على تلك الجياد التسعة فنهبـوا منها ثمانية ، ولم يتركوا لتلك الأسرة غير جواد كان « بلجوتاى » قد خرج به إلى شعاب الجبل جـاداً فى البحث وراء الفئـران ليضمن القـوت لأهله ، كما كـان «كاسـار » قد ذهـب هو الآخـر إلى النهر يتلمـس فيه السمـك . وعاد «بلجوتاى » وعاد » كاسار » وإذا عـودتهما مع عودة أخيهما «تيموجن » وإذا الثلاثـة يستمعون لهذ العُدوان الجديـد ، وما كانـت الأسرة تقوى على أن تشترى جياداً عوضاً عما فقدت ، ولا فى مقدورها أن تصبر على تلك الحال . وهمَّ « بلَجوتاى » أن يلحق باللصوص ، كما أراد «كاسار» أن يكون هذا لـه ، ولكن « تيموجن » رأى أن هذا واجبـه وعليه القيام به ، ومـا كان قـد ظفر بشـئ من الـراحة بعـد تلك الـرحلة الطـويلة الشاقة .

وخرج « تيموجن » في إثر اللصوص على جواده بعد أن تزوَّد بقليل مـن الزاد ، ومـرَّ به يـوم ، وطالعـه اليوم الثـالث وهـو على حال مـن الإعياء ، يحملـه فرس مكدود قـد أضناه السير ، وسوف لا يقـوى به على مواجهة المغيرين من « التايدجـوت » ، إن هم بدوا له على خيل قد

أخذت قسطها من الراحة ، يُستبدل بها غيرها مع كل رحلة . وفيما هو يسير فى يومـه الثالث وقع على شـاب يقود فرسًا ، فأخذ يسائلـه علَّه يـظفر منـه بشئ يعرف منـه خبر هؤلاء اللصـوص الذين سرقـوا جياد أهله . وكـان عند الفتى علِـم عن هـؤلاء اللصوص ، فلقد وصـف له الخيل فإذا هى هى ، وأخبره بعددهـا فإذا هو هو . ورغب الفتى فى أن يَصحب « تيمـوجن » فى البحث عـن ضالتـه ، وقاد الفتى « بـورشو » صديقه الجديد « تيمـوجن » إلى مرعى قريب حيث قدم لـه جوادًا قويًّا مكان جواده المتعب ، ومضى الاثنـان فى إثر اللصوص . ومَضت على الصـديقين أيـام ثـلاثـة انتهيـا بعـدها إلى مَـرعـى قـريـب مـن منـازل «التـايـدجـوت» وإذا فيـه الجيـاد الثمانيـة تـرعـى إلى جـانـب جيـاد «التايـدجوت» . ومـا كادت تقـع على الجياد الثمانيـة عينا « تيمـوجن » وصديقه «بورشو » حتى خفَّا إليها وساقاها أمامهما تَعدو .

وعلمت « التايدجوت » علمهما فخفّـوا فى إثرهما ، يتقدّمهم فارس منهم على فرس له أبيض ، وقد أمسك بحبل ينتهى بأنشوطة يحاول أن يعلق بها «تيموجن » وصـديقه . وقدَّم « بورشو » صديقـه « تيموجن » أمامه ، وطلب إليه أن يمضى بـالخيل على أن يتخلّف هو قليلا ليشغل القوم . ولكن «تيموجن » أبى على صديقه « بورشو » ما طلب ، وأصرَّ على أن يمضيـا معًا . وتـابع الصـديقـان سيرهما إلى أن أذنت الشمـس بمغيب ، وإذا الفـارس الذى كان في إثـرهما على قاب قَـوسين أو أدنى منهما ، وخشى «تيمـوجن » أن ينـال صديقَـه أذى وأن يُؤسرَ دونـه ،

فصَعد فى أول رَبوة لقيهـا ثم أحكم سهمه فى قوسـه وسدّده إلى خصمه فأرداه قتيـلا . وما إن رأى القوم ما حـلّ بطليعتهم حتى عمّهم الـذعر وخافُوا المكيدة فلووا » أعنّة خيلهم وانقلبوا راجعين .

ومضى الصديقـان فى طريقهما والخيلُ أمامهما ، وإذا هما مـع الفجر قُرب مخيم «بورشو » ، وتلّقاهما والد « بورشو » فرحًا . وما إن استمع إلى ابنه وهو يقُـص عليه قصة نَجدته لصـديقه المغولى وما كـان من أمر «التايدجـوت » معهـما حتى أوسع الأب ضيفَه « تيموجـن » كرمًا ، ولما همّ « تيمـوجن » أن يـرحل زوّده بالكثير مـن الطعام ، كما أهـدى إليه صديقه « بورشو » جلد سمور هدية .

وعاد « تيموجن » إلى أهله يسوق الجياد الثمانية ، فكان لأوبته ظافراً غانما أثر أى أثـر ، تلّقاه أهلُه بالفخر ، وتلقته عشيرتـه بالإكبار . وإذا ثقة القوم بالزعيم تملأ النفوس ، وإذا اطمئنانهم إلى رجلهم يُعاودهم ، وإذا هم جميعًا ملتفون حوله ، وإذا من شرّد منهم عليه يعود إليه ، وإذا هم مرة أخرى تحت إمرته وفى سلطانه .

وهكذا كتبـت الحياة مـرة ثانيـة لـ « تيمـوجن » وتـربّع على عـرش الزعامة من جديد ، وأخذ يفرض العُشور على قومه كما يفعل الزعماء . ولقد جرى القوم على أن العتاد والدواب ملك لأصحابها إلاّ إذا ادعاها الخان لنفسـه ، وما يضيرهـم عندهـا أن يُسلموهـا إليه إن كـانت فيـه الكفاية لحمايتهـا والذود عنها . ولقد دل « تيموجـن» بما فعله حين عاد بالخيـل على تلك الكفاية ، فما بـالهم لا يُسلمون إليه كل هـذا ، ففعلوا

راضين مطمئنين . وأنس « تيموجن» بأنه قوىّ فَعزّ ، وأنس قومه بعزّته فزادوه تأييدًا وزادوه خضوعا ، وأحسّت القبائل المُجاورة هذا الذى ناله « تيموجن » من تأييد وهذا الذى أصبح فيه بين قومه من إعزاز فرهبوهم وخافوهم .

* * *

وشغل « تيموجن » عن خطيبته « بورتاى » منذ خلّفها ، لم يختلف إليها ولم يعرّج بمنازلها ، شَغلته تلك الأحداث كلها ، وشغلته هذه الخطوب المتعاقبة ، ولكن هذه الأحداث وتلك الخطوب لم تَشغله عن أن يفكِّر فيها وأن يَذكر أنها فى انتظار أوْبَته .

وقَطعت العروس على فراق عريسها أعوامًا أربعة بلغت معها عامها الثالث عشر ، فنضجت واكتملت وتجلّت أُنوثتها وبَدت فاتنة . وما كانت «بورتاى » بمنأى عن أخبار الزعيم الشاب طيلةَ هذه الأعوام الأربعة بل كانت موصولةً بها ، يُثيرها ما له من إقدام فتُزهى ، ويهُولها ما ألمّ به من بأس فتهلع ، ويَبلغها عنه ما وقع فيه من كيد فتَحزن وتقَلق. لقد عاشت «بورتاى» ترقُّب عودة الزعيم المُتّقد عاطفة وفطنة، وكانت حيرى قلقةً تخاف أن يحدُث ما يسوؤها فيه ، وتخاف أن يحدُث ما يسوؤها فى نفسها .

وكما كانت « بورتاى » مشغولةً بعريسها « تيموجن » كان «تيموجن» مشغولا بعروسه « بورتاى » ، وكما كانت هى تخاف أن تخطفه منها امرأة، كان هو يخاف أن يخطفها منه رجل . من أجل ذلك

ما كاد «تيموجن» يُظلّه الأمن ويستشعر الطمأنينة حتى خرج إلى حيث تنزل «بورتاى» على رأس موكب يضُم مئات من الفرسان وهم فى أبهى حلّة وأجمل زينـة ، عليهم الثيـابُ الجلديـة الفَضفاضـة متّشحين بفراء الأغنام، وقد ازَّينت صـدورهـم بدُروع من الجلد المقوَّى الملـوّن بألوان زاهية براقة والرماح المُشرعة قد شُدَّت إلى ظهورهم ، وجُعبات السهام المملوءة قد ثُبِّتـت إلى جنوبهم ، وقرَب الماء قد عُلِّقـت إلى سرُوجهم ، وقد طلَوا وجوههم بالشحم اتقاء البَرد ، وسار الموكب فى نظام مرسوم بديع تتقدّمه الطبول على جياد مختلفة الألوان. وعندما وصل الرّكب إلى خيمة « بورتاى » خفـّ الوالد فى أُسرته ، فرحين مزهوين بلقاء الغازى مرحّبين بمقدمه بعد أن كادوا يفقدون الأمل فى رجوعه.

ونزل رجال « تيموجـن » عن خيلهم وتركوا للخدم ونفـر من أهل العروس رعايتها ، ثم تقدموا إلى السرادق المنصوب لهم ، وجلسوا فيه صفوفًـا إلى جوار شيوخ القبيلـة يشربون ويُسرفـون فى الشراب كما هى عادة القـوم . حتى إذا ما لعب الشراب بـالرؤوس أخذوا فى مـزاحهم العنيف ، فكنت ترى أحدهم وهو يَشُدّ صـاحبه من أُذنيه كأنه يريد أن يقتلعهما اقتلاعـا ، كما ترى آخـر وهو يمـدّ فى شدقـى زميل لـه وكأنـه يُفسح في حَلقه ليتسـع لحظّ أكبر من لَبن وخَمر . حتى إذا مـا شَبعوا من هـذا المُزاح المرّ أخـذوا فى رقصهـم البربَـرى يُملى فيـه عليهـم طبعهـم الصاخب .

وإنـى لأكـاد أستوحـى مـن مـوسيقـى « ألكسندر بـورودين » فى

مقطوعته الخالـدة رقصات بولوفتسيـا أو ـ رقصات القفجاق ــ ضمن أوبرا الأمير إيجور، مـا كان لهؤلاء المغـول من مـوسيقى ورقـص . فما يُبعد القفجـاق عن المغـول كثيرًا ، تكاد تجمع بينهـم بيئة وتجمـع بينهم حياة ويصل بينم موروث ، إذ هم من القبـائل التى كانت تنزل أواسط آسيا ؛ ثم ما تكاد تبعد أحـداث قصة أوبرا الأمير إيجور عن الحقبة التى أظلّت تيمـوجن ، فقد وقعـت هذه الأحداث حـوالى عام ١١٥٠ م ، ومـا يدرينـا فلعل هـذه الألحان التى صـوّرها « بـورودين » للقفجـاق صورة من تلك التى كانت للمغول تحاكيها فى قليل أو كثير . . . لست أدرى .

وفيما كان الـرجال آخذون فى لهوهـم ورقصهم اصطفّـت النساء فى جلستهـن المعهودة ، يَعزفـن على كمان ذى وتـر واحد ويُغنّين . وقـد انتحـى نفـر من أهـل العـروس مـع الخَدم يـذبحون الماشيـة ويُعـدون الطعـام. ويبقى القـوم على حـالهم تلـك من لهو ومـرح وشرُب وأكـل يومين، حتـى إذ ما دخلوا فى يومهـم الثالث ازَّينت العـروس ولبست ثَـوب العُرس الفضفـاض ، تتدلىّ منـه القطع الفضيـة ، كما تتدلىّ مـن جدائلها التمائم مَصونةً فى قطع من الجلد فُصل ما بين أعلاها وأسفلها، وقـد توَّجـت رأسها بما يشبـه التـاج المقلوب المصنـوع من لحاء شجـر البتولا، ثم كسى بالحرير المطرز . هكذا بدت العروس وهى تجلس إلى جانب والدها بين يدى الموثِّق يُمضـى العقد على ما ألف القوم . وما إن حان حين الـرحيل حتـى أخذت العروس تَعـدو بين الخيام وفى إثـرها

زوجها يعدو خلفها ، وتَعترضه أخواتها وكأنهن يَدفعنه عنها ، بقيةً من حميّة تشير إلى ما عند القوم من حفاظ على المرأة . ثم يلحق «تيموجن» بعروسه «بورتاى» فيحملها بين يديه ويضعها على جواده ليعود بها إلى أهله ، يحُيط به فرسانه بعد ما أنسوا وطعموا وشربوا . ولكن الفارس قبل أن يرسل بعروسه يحيط به أهل العروس يحملون رداء ثمينًا من فراء السمور هدية منهم إلى أمه .

* * *

بهذا حقّق « تيموجن » أملاً من آماله فهدأ شيئا ، غير أنه لم يُمعن فى الهدوء ولم يَستطب الدَّعة ، فهو يعلم أنَّ من حوله أعداء يتربصون به الدوائُر ، ويعلم أنهم مُوافونه إن لم يكن اليوم فغدًا . يعلم أن «المركيت» لم ينسوا له خطف أبيه « يسوجاى » لأمه « هولون » من زوجها . وكان يعلم أن « التايدجوت » وزعيمهم « تارجوتاى » لن ينسوا له فراره من أيديهم بعد أن قَتل الحارس ، كما لن ينسوا له قتله لقائد السريَّة التى همَّت باللحاق به واستخلاص الخيل من يديه .

ذكر هذا كله « تيموجن » فأنسى فَرحته بعروسه وهو فى مُستهل بنائه بها ، وتمثل له ما عليه من واجب نحو نفسه ونحو قومه . ثم نظر فى أمره فإذا عليه أن يُعدَّ جيشًا قويًا من المغول يردّ به أعداءه ويدفع عن نفسه وقومه . ولكن أنّى لهذا الزعيم الناشئ «تيموجن» أن يفعل ، وقبيلته قليل عددها ، وهى على ذلك لا يزال منها نفر منصرفة قلوبهم عنه .

من أجـل ذلك فكّر « تيمـوجن » فى أن يعـود إلى الصداقة القـديمة التى كـانت بين أبيه و « طغـرل خان » زعيـم « القرايطة » فيجـددها ، و«القرايطة » كما يعلمهم « تيموجـن » قوم أشدّاء كُفاة فى الحرب . وما كاد « تيموجـن » يفكّر حتى نفَّذ مـا فكر فيه ، فحمل معـه ذلك الفراء الثمين الذى أُهدى إلى أمـه منذ حين قريب ، والذي أهـداه إليها قوم « بورتـارى » زوجه . ومضى إلى طغـرل خان » كما يمضى الصـديق إلى الصديـق يحُيط به حـرسه وفرسـانه. وأعجـب « طغرل خان » بـذكاء «تيموجن » وأحب فيه جُرأته ورأيه . وما طلب «تيموجن » من صديق أبيـه العون ، فيقـف منه مـوقف السـائل وقد يـردُّه فيذلّ وتهون عليـه نفسه، ولكنه عرض على صديق أبيـه عونهَ واستعداده لمناصرته ، فكَبرُ فى عينى « طغرل خان » وبادله عونًا بعون.

وهكذا عاد » تيمـوجن » بما شاء ، عاد وقد ضمـن » القرايطة » إلى جانبه إذا أغار أو أُغير عليه ، عاد لا يحفل بأعداءه من قبائل « النايمان » و«الأويجور» و « الأتراك » ، فلقد أصبح بينهم وبينـه هذا الحاجز المنيع من «القرايطة » .

وكأن « تيمـوجن » كان على علـم بما سيقع ، فما هى إلاّ أيـام قلائل حتى هبَّت فزعةً من الفجر « هوركشين » خادمة « هولون » وكانت قد هرمـت ، تُنذر سيـدتها بجيوش لا قبل لهم بها تـزحف إليهـم زحفا . واستيقظت «هولـون » تحسبهم « التايدجوت » عـادُوا لينكلُّوا بهم مرة أخرى، فهرولت هى وخادمتها إلى حيث قومها تُنذرهم . وهبَّ القوم

وعـرفـوا أنها الحرب فخفُّـوا إلى أسلحتهـم وجيـادهـم . وفيما القـوم مشغولـون بهذا من أمـرهـم وعلى رأسهـم زعيمهم « تيمـوجن » ومـن خلفه أُمه « هولون » إذا بالمغيريـن يكتنفونهم من كل حَدَب وصوب ، وإذا هم قبـائل « المركيت » جاءوا ليثـأروا لأنفسهم فيختطفـوا واحدة مكـان واحدة ، وليـس لهم هـّم غير ذلـك ، وكان همّهـم أن يختطفـوا «بورتاى » زوج « تيموجن » . وما هى إلاّ جولة ـ وعلى غرة من القوم ـ حتـى كانت «بـورتاى » بعدها فى أيـديهم ، فأسلموهـا إلى أخ لزوج «هولـون » الأول الذى سلبه « يسوجـاى » زوجه . وما كـادوا يفعلون حتى رجعوا فرحين بنصرهم ، فرحين بأسيرتهم ، تاركين « تيموجن » يتحرّق غيظًا .

لقد عزّ على « تيمـوجن » ما أُصيب به فى « بورتـاى » . عزَّ عليه أن تختطف من بين يديه هكذا فى غَمْضـة عَين وما استطاع أن يذود عنها . ولقد كـان «تيموجـن » يعلم مـا عندهـم من قـوة وعتاد ، ويعلـم أنه بجموعـه القليلة لـن يغنى شيئا . مـن أجل ذلـك فكر « تيمـوجن » فى الاستنجاد بحليفـه « طغرل خان » ، وما كـاد يعرض عليه أمـره حتى خفَّ لعـونه وزوّده بفـرقة قـوية مـن الفرسـان ، ومضى « تيمـوجن » بـرجـالـه ورجـال «القرايطـة » ، لم يتلبَّـث ولم يتريَّـث نحـو مَضـارب «المركيت » فدَهموهم فى قبابهم ونكلوا بهم ، وأسرعت « بورتاى » إلى زوجها « تيموجـن » حين شعرت به وسمعت صوتـه ، فحملها عائدًا بها إلى قومه بعد أن ألقى على « المركيت » درسًا لن ينسوه

وردّدت الآفاق صدى تلك الغزوة ، فملأت الأسماع ، وتحدّث بها الناس يُضفُون على الزعيم البطل ما شاءوا من قوة وعزم ، فإذا «تيموجن» حديثُ الجميع ، وإذا القبائل تهُرع إليه تنضم إليه وتنضوى تحت لوائه ، وإذا جيشه ينمو ويزيد ، وإذا قوام هذا الجيش بعد قليل ثلاثة عشر ألف فارس أعدَّ لهم « تيموجن » خيرة القواد فدرّبوهم ، واختار لهم نفرًا من المحنَّكين فلقَّنوهم أسرار الحرب ، فأصبح له جيش قوى مرهوب يملك العدد الكثير والعتاد الكبير .

* * *

وفيما « تيموجن » راحل بقومه رحلةَ الصيف طلبًا للكلأ والمرعى ، قد أعدّ عَرباته وشدَّها بعضها إلى بعض ، واندفعت الثيران تجرها ، والخيل والماشية من حولها ، والفتيان فى لهوهم المعهود ، والفرسان على ظهور خيلهم يدورون بالعربات ، وقد انتشر منهم نفر فى الآفاق وعلى رؤوس الجبال يرقُبون العدو حتى لا يباغتوهم . وفيما هو فى ذلك مدركًا بقومه واديًا من الوديان الفسيحة جاءه النبأ بأن « التايدجوت » يَنحدرون إليه فى جمُوع كثيفة وفى سرعة خاطفة .

لقد هبَّ إليه خصمه « تارجوتاى » بجيش يبلغ الثلاثين ألفًا قد أعده إعدادًا قويًا يريد ألا يوطّد له فى الأرض ، فيقوى ساعده وتشتد شوكته ويستفحل أمره فلا يقوى عليه ولا يثبت له . من أجل ذلك خرج «تارجوتاى» يريد أن يفاجئ « تيموجن » وأن يأخذه على غرَّة .

وكاد أن يبلغ « تارجوتاى » ما أراد ، وكاد أن يخرج الأمر من يدى

«تيموجن» لـولا أن هداه فكره الخاطف إلى وضـع حربى خرج بـه من المعركة منتصراً .

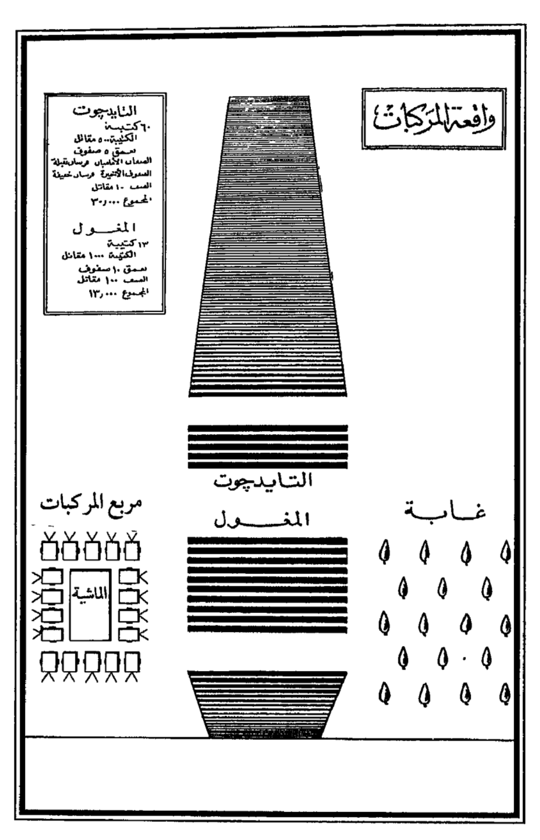
لقد جمع « تيمـوجن » المركبـات على هيئة مربّـع مُفرغ ، حشـد فيه الحيوان وجعل فيـه النساء والأولاد بعد أن زوّدهم بـالسهام والنبال ، وأمرهـم أن يرمـوا العدو حين يشرف . ثـم نظر « تيمـوجن » فـإذا فى جانب مـن جوانب الوادى غـابة كثيفة عسير اختراقها اتخذ منهـا حماية يحمى بـه جانبه الأيمـن ، وصفّ فرسـانه فى الفضاء الـذى بينها وبين المركبـات كتـائب بلغـت ثلاث عشرة كتيبـة ، كـل كتيبـة فى صفـوف عشرة ، وفى كل صف مائة فارس .

على هذا رتّب « تيموجن » جنـده ، وبهذا ضمن الثبات لعدوه مهما عَنُف ، ثم أعـد « تيموجن » للهجوم حشـداً من الفُرسان يتحـرك عند أمره . وتقدم إليه عدوُّه فى ستين كتيبة ، كل كتيبة من خمسمائة مقاتل قد اصطفـوا فى صفوف خمسـة ، الصفّان الأولان مـن الفرسـان المدرّعين بصفائح الحديد المجدولة بشرائط الجلـد ، وعلى رؤوسهم خوذات من الصلـب تتدلىّ منهـا خصل من ذيول الخيـل ، وبأيديهم حراب طـويلة ثقيلة فى رؤوسها هذه الخُصل أيضًـا . كما ظُللت الخيل بصفائح الحديد المشدود بعضها إلى بعض بسُيور من الجلد تُغطى صدورها وجوانبها . أما الصفـوف الثلاثة الأخرى فمـن الفرسان الخفيفة ، حملـة الأقواس والسهام القادرين على الحركة فى خفة وسرعة .

وبرزت الصفوف الثلاثة الخلفية من جيش « التايدجوت » وتقدمت

تناوش فرسـان المغول ، فإذا هم يقعون تحت وابل مـن النَّبل لا يقَوون معه على الثبات فـارتدوا مَدحوريـن . وزحف فرسان « التـايدجوت » المدرَّعون فـرد عليهم « تيموجن » بهجـوم مضاد كان قد أعـدّ له عشرة صفـوف انقضـت كـالمطـرقـة على جيوش «التـايـدجـوت » فـارتـدُّوا مهزومين . ورأى «تيموجن » أن الفرصـة سانحة ليقضى على الصفوف الخلفية من جيش «التايدجوت » الذين لم يفَيقوا من أثر الضربة الأولى ، والـذين أصبحـوا بعـد اندحـار صفـوفهم الأولى قـد فقـدوا نظامهـم واضطرب أمرهم . فزحف «تيموجـن » بكل ما يملك فى عزم وقوة ، فإذا جيـوش « التايـدجوت » تُـولى الأدبار وتنتشر فى الـوادى على غير نظـام ، وإذا « تيموجـن » يتبع الفـارِّيـن فى كل حَـدَب وصوب يقتـل ويأسر . ومرّ يوم لم تُغمد فيه السيوف ولا هدأت الرماح ، حتى إذا ما انحدرت الشمـس للمغيب كـان النصر الحاسم لجيـش «تيموجـن» ، وكان الهلاك المحقَّق لجيش « تارجوتاى » من « التايدجوت » .

وعرض « تيموجـن » الأسرى بين يديه ، وهو أحنـق ما يكون على «التايدجوت » ، لِماَ أتوه من غدر بعـد غدر وسَلْب بعد سلب . وما إن وقع عليهم بصره حتى ذكر « تارجـوتاى » ومزاحمته له على السلطان ، عندها لم يملك نفسه فأمر بهم جميعًا فأُلقوا فى مَراجل الماء وهى تغلى .



واقعة المركبات
التايدچوت
٦٠ كتيبة
الكتيبة ٥٠٠ مقاتل
عمق ٥ صفوف
الصفان الأماميان فرسان ثقيلة
الصفوف الأخيرة فرسان خفيفة
الصف ١٠٠ مقاتل
المجموع ٣٠,٠٠٠
المغـــول
١٣ كتيبة
الكتيبة ١٠٠٠ مقاتل
عمق ١٠ صفوف
الصف ١٠٠ مقاتل
المجموع ١٣,٠٠٠
التايدچوت
المغـــول
مربع المركبات
الماشية
غـابـة

وقيعة

وهكذا كُتب على هذا الزعيم أن يخوض الحرب مرة ومرة ، وإن كان قد كُتب عليه أن يجرع مرارتها حينًا فقد ذاق حلاوتها حينًا آخر ، إلى أن كانت له تلك الوقعة بينه وبين « التايدجوت » التى خرج منها السيد المطاع الآمر فى شمالى « الجوبى » كله ، وكان جديرًا به أن يحمل الصولجان العاجى فى يمينه ، وأن يمتطى الجواد الأبيض ، شأن كل زعيم وسلطان .

وصفَت الأحوال للزعيم الشاب « تيموجن » ففرغ لقومه يُشرِّع لهم وينظم أمورهم . واتجه أول ما اتجه إلى جيشه ، فاختار له من القواد أشجعهم وأصلبهم عودًا لينشِّئوا الجند على غرارهم ، فلقد علّمت البادية «تيموجن » ما للقُوَّة من سلطان ، وأن الحق للقوى ، وأنه لا مكان فى الحياة لضعيف . من أجل ذلك قدَّر « تيموجن » الشجاعة فى الشجعان ، ومن أجل ذلك أحب « تيموجن » أن يحُيط نفسه بجند لهم هذه الصفات من عزم وقوة وحزم ، ليضمن بهم النصر على خصومه .

ونظر « تيموجن » فيما حوله فرأى ثورات مُشتعلة وحروبًا متصلة لا تهدأ لها ثائرة ، بين تلك القبائل المنتشرة فى صحراء الجوبى التى تعيش

ما بين جبال آسيا الوسطى وسور « الخطـاى » ، ثم أنعم الفكر فإذا هو عند رأى يضمـن به لهؤلاء النـاس جميعًا حياةً آمـنَ من حيـاتهم تلك ، وعيشًا أهدأ مـن عيشهم هذا . لقد انتهى « تيموجـن » إلى أنه لا بد أن يجمع القبائل المتنـاثرة على كلمة تجمعها وسلطان ينظـم شملها ، وكان «تيموجن » يطمع فى أن يجمـع من هؤلاء المتنافرين أُمـة واحدة يضمن بها توحيـد الجنس المغـولى فى وسط آسيا ، فيقضـى بذلـك على أسباب الشحناء بينهم وينهض بهم لكسب جديد .

وحين رأى « تيموجـن » ذلك رأى أنه أحق الـزعماء بهذه السيادة ، فهو ـ كما علمنـا ـ من سُلالـة الآلهة ، ومن كان في مثل منـزلته ، فليس كثيرًا عليه أن تكـون له السيـادة على قومه . ولكـن لـ « تيمـوجن » أن يرى ما يرى ، وللناس أن يروا ما يرون ، وليس ما يؤمن به «تيمـوجن» يؤمن به الناس ، والناس طـامعون فى الحكم والسلطان وهم على ذلك دائما متنافسـون ، وما نظنهم يُعطون « تيمـوجن » وهم صـاغرون . لم يغب هذا عـن « تيموجن » وهو يقلِّب الرأى ، ولم يَغـب عنه أن القوم لن يخرجوا عن دنيـاهم مختارين بل مَقهورين ، ولم يغـب عنه أنه مُقدم على شئ يُعوزه فيه صفوة من الـرجال المخلصين ، وصفوة من الرجال القادرين ، وصفوة من الرجال المحنَّكين .

بهذا قدّر « تيموجن » المُهمّة التى هـو مُقدم عليها ، تُملى عليه خبرته وتملى عليه حيـاة الباديـة . ولكنه على هذا كـان يحُس أنه قليـل العدد لا ناصر له ، وأنه إزاء أمر عظيم يحتاج إلى عون عظيم . ومن قبل هذا لجأ

«تيموجـن» إلى ربّه حين ألّمت به الشـدائد فكان له نعـم المعين . وما إن ذكر «تيموجن » تلك القوة القاهـرة التى لم يخب له معها رجاء ، والتى لا يعزّ عليها شىء ، والأشياء كلها بيدها ، ما إن ذكر « تيموجن » هذا حتى أخـذ يصعد فى الجبـل إلى قمته يخلو إلى نفسـه بعيدًا ويخلـو إلى ربه يسأله . وقديماً كان يؤمن هؤلاء الناس أنهم أقرب ما يكونون إلى آلهتهم على تلك المراقى الجبلية .

ولقـد دعا « تيمـوجن » ربـه فأكثـر ، دعـاه بأن يمـدّه بصفوة مـن الرجـال الأقوياء يجمعهـم حوله مخلصين مستجيبين ، وكـان فيما يقول من سـؤاله لربـه : « أيتها السموات التى لا تنتهـى عند حد ، حنـانيك وعونـك ، إنى لأضرع إليـك أن تُؤّيدينـى بأرواحـك الطيبة الطـاهرة لتكون لى قوة وعضدًا . كما أضرع إليك بأن تجعلى ممن على الأرض من رجال أشداء جندًا لى يشدُّون أزرى » .

وهكـذا تهيأ « تيمـوجـن » لتلـك الزعـامـة روحًـا ونفسًا ، وأخـذ يستوحـى تلك الروح وهـذه النفس ، مؤمنًا الإيمان كلـه بأنه صـاحب هـذا الحق ، ساعيًـا فى عزم صـادق إلى تحقيقه . فضـم إليه الخيرة مـن قواده يضعهم فى مَـراتبهم لوفق كفـاياتهم ، ولفّ حولـه من لهم دراية بشئـون الكفاح وخبرة بـالرأى ،فكـان «بـورشو » صـديقه المعـروف بالعقل والحكمـة صاحبه حين يجلس للـرأى بين زعماء القبائل ، وكان «كاسـار » ربّ القوس حامل سيفـه ، وهكذا خطا « تيموجـن » إلى ما يريد خطوته الأولى ليضمن لنفسه تحقيق ما يصبو إليه .

ولقد كـان لـ « تيموجـن » رأى فى القواد لا يقـل عن رأى المحنَّكين اليوم . فقـد رُوى عنه يـومًا وهـو يحكم على قـائد من قـواده : « ليس عندى مـن هو أشجع مـن « يسوتاى » أو من يـدانيه فى مواهبـه ، فهو جَلد صبور على قَطـع المسافات الطوال ، لا يـذل للجوع ولا يهون مع العطش ، يرى ذلك لنفسه ويراه لجنـوده ، إلاّ أنه على هذا ليس عندى بالقـائد الكفء ، فـالقائد الجديـر بهذا اللقب هـو من ينظـر لجنده غير نظـرته لنفسـه ، إذ ليست طـاقة النـاس سواء ، ومـن لم يضع هـذا فى حسبـانه حمَل جنـده على ما لا يطيقـون وقومـه على مالا يستطيعـون ، فخسرهـم وخسر نفسه » . وهكـذا كـان « تيمـوجن » يختـار قـواده ، يختـارهم لصفـات فيهـم تخصّهم ، أو صفـات فيهـم تخص الجند مـن حولهم ، لا يَعنيه منهم أن يكونوا شجعان فحسب ، ولكن يَعنيه منهم أيضًا أن يَزنوا الأمور من حولهم بميزانها الدقيق .

* * *

وحين نصَّب « تيمـوجن » نفسه خـانًا ، وحين أخذ يَضطلـع بتلك المهامّ الجِسام ، قصد إليـه الزعيم « مونليك » والد « بـورتاى » ، قَصد إليه يصحبـه أبناؤه السبعة وأتباعـه يهنّئونه . وكـانت أياما حلـوة هنيئة خفّفت على ذلـك المغولى الشـاب من مشـاقه ، وردّتـه إلى حياة وادعـة بـاشّة ، قضـاها القـوم بين ترحيـب وتـأهيل وتبـادل الهدايا ، وأنـس الضيوف بالقوم كما أنس القوم بضيوفهم .

وكـان مـن بين أولاد « مـونليـك » ولَـد يحترف الكهـانـة هــو

«تبتنجرى» . وكـانت له فى ذلك حيـل تُشبه حيل السحرة لها أثـرها فى النفوس . وكان على هذا يدَّعـى القُدرة على التخلية بين الروح والجسد والتحليـق بـالـروح إلى الفضـاء ، تتلقّـف أخبـار السماء ومـا هـو غيـب . واجتمع يـومًا هـذا الكاهـن ومعـه إخوتـه بـ « كـاسار » وثـار الحديث بينهم جميعًا حول ما يدّعيـه هذا الكاهن . فانبرى لهم « كاسار » يهوِّن من شأن هذا الكاهن ويردّ عليه ما يدَّعيه . ولم يملك الكاهن نفسه ولا ملك إخوته أنفسهم فثاروا بـ « كاسار » وأوسعوه ضربًا بالعصى .

ورعى « كـاسار » حُرمة ضيفـه فلم يفعل شيئًا ، ولم يبـادلهم ضربًا بضرب ، وذهـب إلى أخيه « تيمـوجن » شـاكيًا يحدثـه بما كان . وكـان «تيمـوجن» رجـلا لا يقبل الإهـانـة ، لم يقبلها مـن أخيه غير الشقيـق فقتلـه . من أجـل ذلـك عزّ عليـه أن يهان أخـوه فيسكـت . وما نظـن «كاسار » كان عاجزًا عن أن ينتقم ، ولكنه خاف أن يؤذى مشاعر أخيه إن هـو انتقم ، فهـو لهذا قصـده يشكـو إليه . وحين استمـع إلى أخيـه «تيموجن» يقول لـه : كم باهيت بقوَّتك وشجاعتـك ، فما بالك اليوم تهون بين يدى حفنة من الرجال وتجيءُ إلىّ شاكيًا ؟عندها عرف «كاسار» أن أخاه لا يرضى له الإهانة على أى لون كانت هذه الإهانة ، ولقد كان يحب أن يجعل الانتقام مـن خصومه لأخيه ، وها هو ذا أخـوه قد جعل الانتقام مـن خصومه إليـه . ولكن «كاسـار » على هذا جانب أخاه ، جانبه لأنه كان يحُب منه أن يتولى هـو عنه ذلك حتى لا يعرّضه للوم أو مؤاخـذة ، فخرج مبـاعدًا وعـاش فى أقصى المدينـة بعيدًا عـن أخيه .

وهنا بدرت للكاهن فُرصة رآها مواتية ليلقى بُذور الفُرقة والشقاق بين الأخ وأخيه ، وكان يعلم ما عند « تيموجن » من شك قديم فى أخيه « كاسار» فما باله لا يذكيه ، ويجعل من هذه الفُرصة وسيلة . على هذا قرّ رأى الكاهن، وبهذا دخل على « تيموجن » يومًا ليخلُوَ به كعادته ، وكان فيما حدّثه به أن روحه التى تحلّق فى السماء حلّقت ورجعت إليه بغَيب كثير من غيب السماء، ولقد أفضت إليه بأن «تيموجن » سيكون له الحكم على مغول « يكّا » ولكن ذلك لن يدوم طويلا ، إذ سيكون الأمر إلى «كاسار » الذى سيغتصب الملك من أخيه . وتلبّث الكاهن بـ « تيموجن » حتى قَرّ هذا فى نفسه وملأ عليه عقله . وليس شىء كحديث المُلك والسلطان أسرعَ سريانًا فى النفوس وأقوى تملُّكا لها . عندها تَنسى النفوس كل شىء إلا هذه الزعامة ، ولا تستجيب النفوس لشىء إلاّ لما يمس هذه الزعامة ويحميها . وما إن رأى الكاهن أثر كلماته فى نفس « تيموجن » حتى مضى يقول ، وهو واثق أنه مستجاب الكلمة : « لا تترك كاسار يُفسد عليك ملكك وينزع منك سلطانك . اخلُص منه قبل أن يخلص هو منك . » .

واستمع « تيموجن » إلى كلمات هذا الكاهن وهى ترنّ فى أذنيه رنينًا ينفتح له قلبه وتأنس به حواسه ، فخال ذلك من وحى السماء، وأن الآلهة رحمةً منها به وتأييدًا منها له وتمكينًا له على وجه الأرض قد بعثت إليه هذا الكاهن لينقل عنها ويحدثه بما تريد ، وهبّ « تيموجن » من

مكانه مغموراً بهذا كله ، واعيًا لهذا كله ، مؤمنا بهذا كله ، ليلقَى أخاه «كاسار» حيث هو فى عزلته ، فانقض عليه انقضاض الموتور ، وأمر به فنُزعت عنه قلنسوته ونُزع عنـه نطاقه . ورأى « كاسار » الشرّ فى عينى أخيه فجثا تحت قدميه يرقُب مصيره المحتوم .

وضجّت المدينـة بما انتهـى إليهـا مـن حـديـث الخان مـع أخيـه ، واضطربـت الظنون ، كُلٌّ يصّـور الأمر كما يهوى ، وقلّ مـن الناس فى مثل هـذه الأحوال من يحدِّث عـن وعى ويحس عن خبرة ، بـل هم فى ذلـك مـع الفتنـة يصـورونها كما يخالـون ، ويغـالـون فى هـذا الخيـال فيحمِّلونها فوق ما تحتمل ، لا يميلون مع المغلوب ، بل كل ميلهم مع الغالب .

لهذا أشاع الناس أن « كاسـار » يسعى للنكاية بأخيه، ومـن ثم فقد حُقَّ عليـه الموت، وأشاعوا أن « كاسـار » مستأثر بما يقع فى يـديه دون أخيه ، ومَنْ فعل مثل هذا كان جديراً بالقصاص . وهكذا تخبّط الناس فى ظنونهم لا يعرفون من الحقيقة شيئًا .

وانتهى هذا إلى « هولون » كما صوّره الناسُ وكما تحدّثوا به ، فخفّت إلى مقرّ ولدهـا « كاسار » فرأتـه جاثيًا تحت قدمـى أخيه ، ورأت أخاه يكاد يتفجّـر من الغيـظ ، ورأته على وشـك أن يضع السيـف على رقبة أخيه ليخلُص منه إلى الأبد . وتقدمت الأم من ولدها « كاسار » فحلّت عنه إساره ، ووضعت على رأسه قلنسوته ، ولفّت على وسطه نطاقه ، و « تيموجن » مأخوذ بما فعلت الأم ، لم يملـك أن يردّ عليها شيئًا . ثم

استوى « كاسار » واقفًا فى ظل أُمه ، التى سرعان ما اتجهت إلى ابنها «تيموجن » حاسرةً عن صدرها تقول له : ألا تذكر هذا الصدر الذى حنا عليك ، وهذه الثدى التى أرضعتك ؛ إن لم تذكر هذا وذاك فاذكر كيف كان «كاسار » لك نعم الأخ ونعم العون ، وكم من مرّة وقف يذود عنك بسهامه مُعرِّضًا روحه للهلاك . »

عندها تخاذل « تيموجن » لكلام أُمه ، وذكر هذه الرّحم الواصلة وهذه الأخوَّة البارّة ، وذكر أنه أسرع إلى اتهام أخيه دون أن يكون بين يديه سبب لهذا الاتهام ، وذكر أنه مخطئ فهدأ ، وأنه قد أقدم على ما أقدم عليه عن غير بيّنة ، وأنه ليس ثمة شىء غير الخوف على مُلكه هو الذى حرّكه لما تحرك له ، فعاد يحُسّ الخجل ويستشعر الندم ويذكر قول أُمه ، وينسى قول الكاهن .

وتمضى الأيام ويمضى معها هذا الحادث بخيره وشرّه ، وما كاد الناس ينسونه حتى وقع هذا الكاهن « تبتنجرى » فى مُشادة مع أخ أصغر لـ «تيموجن » هو « تيموجو » ، وإذا هذا الكاهن المعتز بصلته بالزعيم يقسو على هذا الأخ الأصغر ، ويحمل عليه هو وأتباعه ينكّلون به ضربًا وتعذيبًا ، ويخاف الأخ الأصغر من أن يُنهى إلى أخيه «تيموجن» شيئًا مما وقع له ، فلقد كان له فيما حدث لأخيه « كاسار » أُسوة . غير أن الخان لم يفُته ما وقع لأخيه شىء ، وعزّ عليه أن يلقى أخوه ما لقى ، وعزّ عليه أيضًا أن ينال من « تبتنجرى » وهو ابن لـ «مونليك » والد زوجته ، وكان على جانب لا يُستهان به من القوة ،

هذا إلى ما كان منه من تأييد له وعون . ثم إنه الخان ، وإليه الفصل فى الخصومات وليس له أن يثأر . ولكن « تيموجن » على هذا كان غاضبًا، كان لا يُقرّ أن يهان أخوه، وكان لا يقر أن يعتدى هذا الكاهن على أخيه هذا الاعتداء ، فهو لهذا أخذ يحتال فى أن يدفع هذا الظلم بظُلم مثله، فأوعز إلى أخيه الأصغر بأن ينال من الكاهن بمثل ما نال منه ، وأسرَّ إليه بأنه داعيه وإياه إلى قُبته وعليه أن يثور فى حَضرته ، على الرغم من أن التقاليد تحرم أن يقع شىء من الشَّغب فى حضرة الخان .

ودُعى « مونليك » إلى قُبة الخان ، ودعى مع « مونليك » أولاده السبعة ، ودخل الزائرون كلهم إلى قُبة الخان بعد أن خلفوا أسلحتهم خارج القبة . وجلس الجميع بين يدى الخان ، وجلس بينهم «تيموجو» الأخ الأصغر. وما كاد المُقام يستقر بالقوم حتى هبّ «تيموجو » فحيًا الخان أولا ، ثم اتجه إلى حيث يجلس الكاهن ، وأمسك بتلابيبه وهو يصيح : «بالأمس القريب أرغمتنى على أن أسجد بين يديك ولى معك اليوم شأن آخر» . وما كاد أن ينتهى إلى هذا من قوله حتى اشتبك معه فى صراع عنيف فَزع له الإخوة وفزع له الأب . وليمضىَ الأمر كما شاء « تيموجن » ودبَّر ، أمر المتصارعين أن يغادرا القبة ليَحسما ما بينهما ، وكان فى انتظارهما ثلاثة من الرجال الأشداء أعدَّهم « تيموجن » ، فما كادوا يلقون الكاهن حتى انقضُّوا عليه وأردوه قتيلا وتركوه مضرَّجًا بدمائه إلى جوار إحدى المركبات . ودخل « تيموجو » على أخيه بعد أن انتقم لنفسه فسجد بين يديه ثم

انتصب قـائماً يقول له : « بـالأمس أرغمنى « تبتنجـرى » على السجود له ، واليوم أرغمته أنا على السجود فخرَّ بين يدى وما أظنه سيقوم . » .

وهبَّ الأب العجوز وهبَّ معه أولاده ليروا الابن والأخ ملقى على الأرض وقد فارق الحيـاة . ودخل الأب على الخان ، وفى نفسه حَسرة على الابن ، وفى قلبه موجدة على الخان ، وأخذ يلُـومه على ما كان من غـدر ، ذاكرًا لـه ما كـان منه مـن إخـلاص له وعـون . وكاد الأبنـاء يثُورون بالخان فى مـوقفه ، ولكنه خرج عنهم بعد مـا صاح بهم صيَحة كـادوا يخَرُّون على وجوههـم من هَـولها . ولكنه قبـل أن يمضى عنهـم التفت إلى « مونليـك » يقول له مؤنِّبـا « إنى ليؤسفنى مـا كان ، ولكن يجدر بك ألاَّ تنسـى أن ولدك الكـاهن كـان هو البـادى بالشر وقـد نال جزاءه » .

* * *

غير أن الخان ما كان لينسى ما لفعلته هـذه من أثر فى النفوس ، وما سوف تُثيره فى القلوب ، وأن الناسَ لن يغفروها له . وكان «تيموجن» حريصًا على ألاّ يشيع ذلك عنه فينقلـب الناس عليه ، ويستغله أعداؤه فى الدعايـة ضده ، وهو لا يزال على أول الطريق إلى المجـد ، أحوج ما يكون إلى أن يشيع عنه الخير لا أن يشيع عنه الشر . من أجل ذلك أخذ « تيموجن » يحتال ، وما كانت تُعوزه الحيلة ، فأمر بقُبته فوُضعت فوق جثمان الكاهن ، ثـم أمر بمن يَسحب تلـك الجثة فيخرجها مـن الكُوَّة التى يخرُج منها دخان الموقد ، ثم دعا الناس إليه ليروا الجثة وهى تخرج

من حيث يخرج الدخان ، ووقف بينهم يقول لهم : « هذا تدبير السماء . لقد آذانى هذا الكاهن فى إخوتى فصبرتُ عليه أرعى له واجب الضيافة ، غير أن السماء التى لا تخفى عليها خافية لم تَرْض هذا الظلم فانتقمت لى منه فقبضت روحه الشريرة وجرَّت إليها جسده » .

وصدَّق الناس فانصرفوا مؤمنين بما قال الخان يردّدون قوله .

وعاد « مونليك » بأولاده وأتباعه حانقين ، يُعدون للانتقام ويستعدون للصراع . ولكن الخان كان ذا عزم وكان ذا جَلد ، فمضى يخرج من حرب إلى حرب ، ومن غزوة إلى أخرى ، وإذا هو بعد هذا زعيم شمال « الجوبى » ، يحملْ الصولجان العاجى ويمتطى صهوة الجواد الأبيض ، يحُيط به الحراس أينما حلَّ وارتحل ، قد انتصب أمام قُبته اللواء تتدلىّ منه ذيول وُعول تسعة ، بين قباب تبلغ مائة الألف ، تضم آلافًا من الأسر المغولية .

وما إن بلغ هذا من أمره حتى عاد يفكِّر فيما فكَّر فيه بالأمس من ضمّ هذه القبائل المتنافرة تحت لوائه ، وتوحيد تلك العشائر المختلفة تحت سلطانه ، غير مُلْق بالاً لما كان يَسمع وما كان يتردّد على ألسنه الكبار من أن العُقول المختلفة لن يجَمعها جَسد واحد . وهكذا استعد الخان لتحقيق ما تصبو إليه نفسه ، يرى العبء كبيرًا ولكنه يرى نفسه كبيرة كذلك ، يستعين مرةً بالسياسة والكيَاسة ومرة بالحيلة والدهاء ومرة بالحرب ، يؤازره الصبر وتحدوه الجُرأة ويُملى عليه عقل ذكى كبير.

جنكيز خان

كانت الصلةُ بين « تيموجن » وبين عمّه « طغرل خان » الذى كان له مكـان الأب ـ صلـةً لا تَشُـوبها شائبـة . وكـان مـن بين حاشيـة الخان العظيم مَن يحقدون على « تيموجن » حسداً منهم له على مكانته تلك ، لا سيماً أقاربه من « البورشيكون » الذين كان دأبهم أن يفرّقوا بينه وبين عمّه . لذا كان « تيموجن » لا ينفـكّ منهم على حَذر ، وفى شكّ مُتصل مما يأتون .

وكان « تيموجن » على حظ من الخداع والـدهاء ، أفادتْه إياه شئون الحكم والاضطـلاع بأعبـاء عشيرته ، وكـان بعد هـذا ذا بَصيرة نافـذة هيّـأتْـه لأن ينفُـذ إلى مـا وراء المظـاهر مـن خـديعـة ومـا وراءهـا مـن مكر ، فدسّ «تيموجن » على حـاشية الخان نفرًا من خُلصائه والمُعجبين به ليكونوا عيونًا له عليه ، وليعـرفوا ما يُحاك هناك من دسائس ضدّه . وأنهى إليه عيونُه أن خصومه من حاشية طغرل خان زيّنوا للخان ، المرة بعد المرة ، القبـضَ عليه والفتـك به ، ولكـن الخان كان يـأبى عليهـم ذلك ، كما أنهَوْا إليـه زيف تلك العُـروض التى كـانت تُشاع عـن رغبة الخان فى أن يُزوِّج ابنتـه من « جوشى » ابـن « تيموجن » ، والتـى كان

القصد منها الفتَّ فى عَضُده ، وبعثَ الطمأنينة إلى نفسه ليصرفوه بذلك عماً يدبرون له .

هذا وغيرُه عرفه « تيموجن » ، ينقُله إليه أعوانُه مُسرعين صادقين، فاحتاط لأمره ولم يمكّنهم من إفساد الصلة بينه وبين عمه . ذلك إلى أن الخان كان يُكْبر « تيموجن » منذ أن رآه فى لقائه الذى مرَّ، ورأى فيه الرجلَ والصديقَ فأنس به ، ناداه أبًا فألان قلبه ، وخاطبه ندّا فأثار إكباره ، وكشف له عن إخلاص فبادله مثلَه ، وخوّفه نفر مَن أقاربه يتربّصون به الدوائر فازداد أُنسًا به وثقة .

وهكذا خرج « تيموجن » من عند الخان بعد لقائه هذا حليفًا وصديقًا ، ومضت الأيام تُؤكّد إخلاصَه وصدقه ، وما إن عَدَتْ القبائل الغربية البوذية على بلاد « القرايطة » التى تدين بالزعامة لـ «طغرل خان » حتى بادر «تيموجن « بإرسال نُخبة من رجال جيشه الأقوياء لُمعاونة حليفه وصديقه .

ويخرج طغرل خان من هذه المحنة ليلقى محنة أخرى ، تُتيح لحليفه «تيموجن» عونًا جديدًا . فقد هبَّ « التتَار » يُغيرون على أرض «الخطاى » زاحفين من الشمال من « جورزا » و « بارجو » بالقرب من بُحيرة «بويور». وما كان « التتار » أهلَ مدن مُقامة ولا حُصون مشيَّدة، بل كانوا يعيشون كما يعيش المغول بين القباب وفى البرارى ، لا يتميَّز خُلق عن خُلق ، طبيعتهم الحرب ، والشَغب دينهم ، فيهم عُنف وفيهم قَسوة ، حياتهُم سَلب ونَهب ، وأمورهم فوضى ، لا

يُذعنون لحكـومة ، ولا يَدينون بـالولاء لسُلطان ، مَن غلـب حكم ، والقاهر مـن كان مرهوبًا ذا بَطـش . وهم على ذلك كانـوا يرتعون بين سُهول نضرة ، ومراع خصبـة ، ومياه غزيرة ، تَفيـض بها عليهم أنهار ثلاثة .

وبلـغ « التتـار » فى غـارتهم تلـك على أرض « الخطـاى » الحدود ، وباتوا يهدِّدون الامبراطور ، ويكادون يَنْقُضـون عليه سُلطانه . وهبَّ الإمبراطور ليلقى تلـك الجموع المُغيرة وجهًا لوجـه على رأس جيشه ، وفزع « التتار » لهذا الاستعداد ، وكانـوا يظنون أنهم آخذون القوم على غرة ، فإذا هم بين يدى جيش كبير يزحف إليهم زحفًا ، فولّوا الأدبار سِراعًا وجَـدّوا فى الفرار . ويبلغ « تيموجـن » ما كان من « التتـار » مع الامبراطور ، ورأى الفُـرصة قد واتته ليتخـذ من الامبر اطور عـونًا فى القضـاء على التتار القضـاءَ الأخير ليـأمن مـن مُنـاوأتهم . فأرسـل إلى الامبراطـور يعـــرض عليـه استعـدَاده لنُصرتـــه فى شـدتــه ، ورآهـا الامبراطـور هـو الآخـر فُـرصـة ليكفـى نفســه شرَّ غـَارات « التتـار » المُتلاحقـة ، وسرَعان ما تضامَّ الجيشـان : جيش « تيموجـن » وجيش «القرايطة » ومَضيا فى إثر التتـار المنهزمين ، على حين ثَبت لهم مِن وراء ظهورهـم جيش «الخطاى» وعلى رأســه قائد من قُوَاد الامبراطور . وإذا التتار بين جيشين يُـلاحقانهم فى فـرارهـم ، وجيـش قد وقـف لهم سداًّ منيعًا فى تقهقـرهـم ، وإذا هـم يصلَوْن حـربًا حاميـة ، ويخِرّون صرَعى ويُتَخَطّفون أسرى .

وخرج « تيموجن » من هذه المعركة مُظفراً عزيزاً ، سعى إليه المحاربون فانطَوَوْا تحت لوائه ، وخلع عليه الامبراطور لقبًا كان جديراً به ، فلقَّبه بـ «قاهر الثوار » وأهدى إليه سريراً من فضة موشَّى بالذهب ، كسوته من الحرير الخالص ، كما منح الامبراطور بعد هذا لقبًا جديدًا لطغرل خان ، هو « وانج خان » ، أى سيد الملوك .

وما خُدع « تيموجن » بهذا النصر ، ولا غرّه اللقب ، ولا ألهته الهدية ، وأخذ يتطلع إلى أمل جديد يُعوزه جَهد جديد ، وتَدبير جديد . لقد بدأ «تيموجن» يحس حاجة المغول إلى زعيم يجمع شَملهم ، ويوحِّد كلمتهم ، وما من شك فى إنه كان ينظُر لنفسه . من أجل ذلك كتب إلى « طغرل خان » يذكر له ذلك النصر ، ويذكر له اسمه إلى جواره ، ويذكر له حاجة المغول إلى زعيم . وخال « طغرل خان » أن «تيموجن » فى زهو هذا النصر يطمح إلى تلك الزعامة ويريدها لنفسه ، فضَغِن عليه وظنّ به الظنون .

وكان « تيموجن » قد خرج من تلك الحرب ، التى وقف فيها «القرايطة » إلى جنبه ، وهو يظن أنّ المحنة قد ألّفت ما بينهما ، وكادت تجمعهم إليه على ولاء . وأظلّه موسمُ الصيد فخرج يصطاد ، وساقه الطِّراد إلى قريب من أرض «القرايطة » وبلغ نفرٌ من رجاله أرضَهم . وما إن وقع عليهم «القرايطة » حتى قتلوهم ، لم يُراعوا عهدًا ، ولم ينظروا إلى جوار . ونجا من هؤلاء النفر اثنان ، عادا إلى « تيموجن » يحملان إليه ما لقَى إخوانهُم من حتف ، وما شاهداه هما من غدر

وتنكُّر ، وما رأيا للقوم من استعداد للحرب ، يريدون بذلك ألاّ يمكِّنوا لـ « تيموجن » من أن يكون له سلطان عليهم .

وكأن القوم كانوا قد تكشَّف لهم شيء مما يدور برأس « تيموجن »، وكأنهم قد علموا علْم ذلك الكتاب الذى أرسل به « تيموجن » إلى «طغرل خان » ، وكأنهم قد وقع فى نفوسهم أنهم من بين القبائل التى يعنيها «تيموجن » ويريد أن يجعلها إلى زعيم ، وكأنهم قد تأوّلوا تلك الزعامة كما تأولها « طغرل خان » ، وأيقنوا أن « تيموجن » يريدها لنفسه ويُريدهم له . من أجل ذلك غدر « القرايطة » برجال «تيموجن»، ومن أجل ذلك تهيأ «القرايطة « لحربه ، يريدون أن يُفاجئوه قبل أن يفاجئهم ، ويريدون أن يأخذوه على غِرة قبل أن يأخذهم . وأعدَّ القوم عُدَّتهم ليجعلوها المعركة الفاصلة بينهم وبين «تيموجن » ، وفى عزمهم أن يقضُوا عليه قضاءً لا قيامة له بعده. وأجمع على ذلك نفر من زعمائهم يدبِّرون لحربه ويهيّئون للوقيعة به، وكان من بينهم « شاموكا » الداهية و « توكتا بك » زعيم « المركيت » الذى امتلأ قلبه ضغنًا وحقدًا على « تيموجن » وكذلك ابن « وانج خان» زعيم القرايطة وكبيرهم ، ولم يخرج عن ذلك الإجماع أعمام «تيموجن » إذ يرون أن عمومتهم لـ « تيموجن » لا تُعفيهم من نُصرة قومهم ، ويرون أن قرابة «تيموجن» لهم لا تُعطيه الحقَّ فى أن يتملّكهم. وما إن أجمعوا على ذلك حتى عقدوا لواء الحرب للداهية «شاموكا » وجعلوه قائدًا لتلك الجيوش المشتركة .

ولكنهم رأوا قبل أن يمضوا إلى تلك الحرب أن يضمُّوا إليهم « طغرل خان » ليؤمِّنوا ظهورهم ، وليأمنوا انحيازه إلى « تيموجن » إن عنَّ لـ«تيموجن » أن يستعين به . ولقد وجدوا الطريق إلى ذلك سهلا ، فهم قد علموا أن « تيموجن » قد أوغر صدر الخان العجوز بذلك الكتاب الذى بعث به إليه ، وهم قد علموا أن الخان العجوز أصبح يخاف «تيموجن » على مُلكه ، وهم قد علموا أن الخان العجوز أصبح يخشى طُموح « تيموجن » إلى أن يتزعَّم « المغول » عامة . وتم لهؤلاء الزعماء ما أرادوا ، فقطعوا ما بين الخان العجوز وما بين «تيموجن » قطيعةً لا أمل فيها لإصلاح ، وفوَّتوا على « تيموجن » ما كان يطمع فيه من الفُرصة لنفسه كى يستعدَّ ويَقوى لتحقيق ما يصبُو إليه .

لقد كان « تيموجن » يدبِّر لأمر فأفسدوا عليه هذا التدبير ، فلقد كان يريد أن تبقى قبائل « القرايطة » مشغولة بتلك الحروب المُستعرة ، بينهم وبين قبائل الغرب الأتراك إلى أن يخرجوا منها آخر الأمر مَنهوكى القوى مفلولى الشوكة ، فيجدهم لُقمة سائغة يلتهمهم فى يُسر ، ولقد كان يريد أن يظلّ الحلف بينه وبين الخان العجوز قائماً فتَقوى به شوكتُه ويَرهبه خُصومه . كان « تيموجن » يريد هذا وذاك ، وكان ذلك تدبيرَه ، حتى إذا ما كُتب له النصر على « القرايطة » واجه حليفه العجوز قويًا بما كسب ، فأملى عليه ما يريد ، محتالا عليه إن أغنته الحيلة ، أو عنيفًا به إن اضطر إلى العُنف ، ناظرًا إلى الأيام وهى فى مرورها تضُم إلى عجز الخان عجزاً وتزيد إلى قُوته هو قوة .

ودبّر « تيموجن » ودبّر خصومه ، فإذا تدبير خصومه يغلب تدبيره ، وإذا الحرب التى كان يريد أن يدخلها بعد حين طويل تُعجله ليدخلها بعد حين قريب ، وإذا الحرب التى كان يريد أن يدخلها مُختاراً يُملى هو وقتها وساحتها ، يدخلها مقسوراً تُملى هى عليه وقتها وساحتها .

ونظر « تيموجن » فى أمره فإذا لقاء جموع « القرايطة » ومن انضم إليهم لا قِبلَ له بهم ، وإذا هو ليس بين يديه من الرجال المحاربين غير ثلاثة آلاف : خطرٌ ينخلع لهوله قلب الضعيف فيجزع ، ويهتزّ له فؤاد الجبان فيهلع . ولكن « تيموجن » كان رجلا ذا قلب كبير ، وكان رجلا ذا فؤاد كبير ، كان رجلا يُحب أن يَفرض نفسه على الحياة ولا يُحب أن تفرض الحياة نفسها عليه ، فاستقبل ذلك الخطر وهو يرى نفسه أكبر منه ، فملك عقله يدبر للمعركة ويهيئ لها ، ولم ير نفسه أصغر منه فيفقد عقله ويفقد تدبيره . وقف « تيموجن » بين رجاله يملك قلبه ويملك عقله ، وكان قومه قد أوَوْا إلى مضاجعهم وأسلموا أنفسهم لنوم عميق آمنين مطمئنين إذ كان الليل قد انتصف . فأرسل «تيموجن » رُسله من حوله إلى القوم يَستنهضونهم من فراشهم على عجل ، حتى إذا ما التف به قومُه أمر نفراً منهم أن يخرجوا بالماشية والدواب إلى السهول فينشروها هنا وهناك ، وأمر بالمركبات أن تُعَد ، وبالمتاع الخفيف أن يُحزم ، وأمر النساء والصبيان أن يعتلين العربات ومعهن هذا المتاع الخفيف ليخرجن بعيداً دون جَلبة أو ضوضاء . وإذا

«تيموجـن» فى غَمضة عين قـد أعدَّ نفسه وتهيـأ للحرب ومفـاجآتها ، يحسب للنصر حسـابه كما يحسب للهـزيمة حسابها ، ووقـف بين جنده وقد اعتلوا خيولَهم وحملوا سلاَحهم فى سكون الليل البهيم ، يتطلع إلى الأفق بعينين نافذتين ثاقبتين ، يُملى عليهما رأس مـدبرٌ غير فزع وقلبٌ شجاع غير هَلع .

وكان « تيمـوجن » ذا حيلـة لم يفقدهـا فى موطـن الفزع كما لم يفقـد قلبه ، فأمر بأن تترك الخيام مُضـاءة كما هى ، كما أمر بأن تترك المركبات الثقيلة من حولها . وتلبَّث « تيموجن » حتى إذا ما اطمأن إلى أن الأمور قد جرت وِفْق ما أحب خرج برجاله فى جُنح الليل ، والقافلة من أمامه يُمعن فى السير إلى صحراء « الجوبى » .

وعلى بعد تسعـة أميال من مَضرِبْ خيـامه كـانت تقوم سلسلـة من الجبال ، فى سفحها جـدول من الماء ، ما إن بلغه « تيمـوجن » واجتازه حتى أمر رجـاله بأن يحطّوا رِحـالهم وينتشروا بين التلال المحيطة . غير أنه أبقـى من رجـاله على الضفـة الأخرى مـن الجدول نفراً منهـم لأمرٍ دبَّره .

* * *

وأقبلت جموع « القرايطة » زاحفة إلى مضرب خيام « تيموجن » بعد أن خـرج عنها أهلُهـا وهم يظنـون أنهم لا يـزالون فيهـا ، يريـدون أن يأخذوهـم على غِرة وهم فى نومهـم يغُطُّون . وأخذوا يرشُقـون الخيام بسهامهم ونبالهم ، يخصّـون خيمة الزعيم « تيموجن » بـأوفر نصيب .

ولكن سرعان ما تبين لهم أن القوم قد رحلوا عن منازلهم وتركوها خاوية . وتقدم «القرايطة» من الخيام فإذا هم يجدونها على نظامها لم يَمْسسها سوء ، فقِرَبُ اللبن كما هي مُدلاّة ، والفراش كما هو لا يزال على نظامه وترتيبه ، فهالهم ما رأوا وظنوا القوم قد أُنْذِروا بالغزو فولّوا عَجِلين لم يلتفتوا إلى ما وراءهم لينجوا بحياتهم .

عندها أسرع « القرايطة » يريدون أن يلحقوا بالقوم فى فرارهم فيَلْقوهم على غير أُهبة ، ويتمكّنوا من القضاء عليهم وإبادتهم . ومضت تلك الجيوش الزاحفة تَنهب بهم الجياد الأرض نهبًا لا تكاد الحوافر تمس الأرض إلاّ مسًا خفيفًا ، وإذا الخيل سابحات على وجه الأرض تُسابِق الريح .

وثبت الكمين الذى خلفه « تيموجن » على الضفة الأخرى من الجدول لطلائع جيوش « القرايطة » الزاحفة يأخذها شيئًا بعد شئ ، فإذا تلك الطلائع تُصرَع طليعةً بعد طليعة ، وإذا تلك الجيوش الجرارة تُمْنَى بالهلع والفزع ، وإذا هى يعُمُّها الاضطراب وتَسودها الفوضى . وحين قُدِّر لها أن تنضم وتتجمع كان « تيموجن » قد مكَّن لنفسه من أن يستعد ويتهيأ . ولكنه كان يحس أنه أمام جيش يفوقه عددًا وعُدة . ولقد قدَّر أنه مستطيع أن يلتفَّ به كما دبَّر ، غير أنه فاته ذلك ، ولو أفلح فيما دبّر لأتى على خصمه فى يُسر ، فلقد كان « تيموجن » خبيرًا بحركة الالتفاف «التولوغما» وبه عُرف ، وكان لا يُجيده سواه فى زمانه ، إلا أن الظروف هذه المرة لم تُواته . وكان لزامًا على « تيموجن»

أن يُواجه خَصمه مـواجهةً ، وهو مؤمن أنه مـلاق خصما عَنيدًا ، وأنه مُقبل على صراع عنيـف ، صراع ليس وراءه إلا حيـاة عزيـزة أو موت كريم .

واشتبـك المحـاربـون ، تهجـم جموع « تيمـوجـن » على قـوات «القرايطة» فتُحسّ شدة العدوّ فتَنخزل ، وتهجُم جموع « القرايطة » على جموع «تيموجن » فتُحسّ شدة عدوّها فتنخـزل ، لا يقوى هؤلاء على هؤلاء ، ولا هؤلاء على هـؤلاء . و « تيموجن » من وراء هـذا الكفاح المرير يستنجد بالسماء ، وكم استنجد « تيموجن » بالسماء ، وكم أمدّته السماء ولم تخُيب له دعاء . وتُلهمه السماء أن ينظُر فيقع بعينه الثاقبة على ثغـرة فى خُطـوط العـدو فينتهزهـا وإذا هـو المنتصر ، وإذا عـدوه هـو المنهزم ، وإذا الشَّمس وهى تُؤذن بالمغيب تُؤذّن بأفول نجم « القرايطة » وبسطوع نجم «تيموجن» .

لقد مكَّن « القـرايطة » لـ « تيموجن » مـن أن يلتفّ بهم حين تخلّوا عن تـل «جوبتا » الذى كـانوا يحتَمون بـه ، وكان تخلّيهم عنه هـو تلك الثغرة التى لمحها « تيمـوجن » ووقع عليها . وما إن بان ذلـك له حتى استدعـى إليه « جولـدار » أقوى رجالـه عُودًا وأشجعهم قلبًـا ، وكان زعيماً لقبيلـة « المانهوت » ، وأمـره بـأن يُسرع إلى ذلـك التـل ، تـل «جوبتا» ، ليحتلّه فيضمن « تيموجن » بذلك الالتفاف بخصمه ، ولقد شـاء ذلـك أولا فلم تسعفـه الظـروف ، وهـا هى ذى الظـروف قـد أسعـفته به .

ومضى « جـولدار » لا يُلـوى على شىء ، يـريد أن يحقّـق لزعيمـه ولقومه النصر الذى يطمعـون فيه ، مَضى وهو يُقسم باسـم زعيمه أنه سوف يُطّوح برأس من يعترض طريقه ، وأنه سوف يَنْصب اللواء على قمة تل « جـوبتا » مهما كلّفه ذلك ، فـإن قضى بعدها فسـوف يخلد فى الخالدين ، وما عليه أن يُصيبه الموت فى سبيل زعيمه ، وما على أولاده بعده من بأس لأن زعيمه سيرعاهم .

على هذا مضـى « جولدار » فى فُـرسانه مـن « المانهوت ، وعلى هذا بلـغ «جولـدار » قمة تـل « جوبتـا » مع مغـرب الشمس ، وعلى هـذا نَصب «جولـدار» اللّواء على قمة تل « جـوبتا» . وما كاد « القـرايطة » يحُسون بأنهم أصبحوا محُوطين بعَدُوهم وأن عدوهم قد التف بهم حتى دبّ الذعر بين صفوفهم وانخلعـت قلوبهم وفقدوا كلمتهم الموحّدة ، وإذا هم نهب لخصومهـم يُوقعون بهم فى يُسر ، وإذا هم يـولّون الأدبار ويخرجون من المعركة مدحوريـن . وهكذا كتب لـ « تيموجن » النصر على خَصـم ما كـان يقـوى عليه ، وأخـذ النـاس يَعـزون ذلك لفعـل السماء، وضمُّـوه لأسـاطيرهـم التـى تـروَى ، والتـى أضفـت على «جولدار» الشىء الكثير من ألوان البُطولة والشجاعة .

* * *

لقد خرجت جيوش « القرايطـة » من تلك الحرب بالخزى والعار ، ولو كـان « تيموجـن » يملـك أكثر ممـن كان يملـك مـن رجال لأبـاد

«القـرايطـة » عــن آخـرهـم ، ولكنـه قنــع بـأن يترك لهم السبيـل إلى الانسحاب، وقنع بهذا النصر وما كان يطمع فى غيره .

ولقـد خـرج « وانج خـان » زعيـم « القـرايطة » مـن تلـك الحرب مدحـورًا وخرج ابنه مشجـوج الرأس ، وخرج قـومه وقد نـالهم بأس شديد ، فإذا هو آسف نادم على ما كان منه من إثارة حرب على رجل لم يُثر حربًا ، وما كانت إلاّ عن غير ظن ظَنَّه وتقدير قدَّره ، حرب لم يَغْنم منها إلاّ غير ما أراد ، فها هو ذا خصمه قد أفاد قُوَّة وشهرة ، وها هو ذا قد أفاد ضَعفًا وسُوء سـمعة .

ولقد خرج « تيموجن » من تلـك الحرب أقوى مما دخل إليها ، عزَّ بين قومه وعزّ بـه قومه ، ونال من « القرايطة » مـا أراد ولكن بأُسلوب غيرالذى كان يريد . وخرج « تيموجن » من تلك الحرب يرى أن الخان العجوز قـد حَنث بعهده ونقـض حلفه ، فليـس بُدّ من أن يبـادله شراً بشر، ويَفرُغ منه ليمهد لنفسه السبيل إلى ما يريد .

ومن ثَم أرسل « تيمـوجن » إلى الخان كتابًا طويلا يذكِّره فيـه بأيامه السالفـة معه ، يوم كان يُقـدِّم له أسلاب الحرب دون أن يختص نفسه منها بشئ ، ويذكُر له فيه ما كان منه من نقض العهد ، وما كان منه من عَون لخصـومه ، ويـذكرِّه بذلـك القسم الـذى أقسماه معًا على شـاطئ النهر الأسود بـألاّ يستمع أحد منهما إلى وشاية ، وبـألا يُلقى أحد منهما بالاّ لـوقيعة ، وبأن يكون مـا يجَدّ بينهما من خلاف لهما وحـدهما . ذكر ذلك « تيموجن » فى كتابه إلى الخان العجـوز ،ثم ذكر له أن ما بينهما قد

انقطع ، وأن تلك الصداقة الأولى قد زالت . وحين يذكر « تيموجن » هذا يَعنى أنهما قد أصبحا خَصمين ، وأن الحرب بينهما لا شك واقعة .

وأصبح لزامًا على « تيموجن » وقد هيّأ الخان للحرب أن يستعد هو للحرب ، و « تيموجن » يعلم ماعنـده وما عند الخان . من أجل ذلك التفت «تيمـوجن » لجيشـه الذى هو عُـدّته عنـد الشدائد وملجـؤه مع الأهوال ، فراح يُعيد تنظيمه ويُعيد تسليحه ويضع له القواعد الجديدة ويختار له القواد المحنّكين .

وأرسل « تيمـوجن » إلى الخانـات يستدعيهـم فخفُّوا إليـه من كـل حَدَب وصَـوْب ، وجلسوا بين يـديه فى مجلس عـام قد افترشـوا بُسُط اللُّبـاد وأيديهم معقـودة بُركَبهـم . وتحدث إليهـم « تيموجـن » يُشير عليهم ويستمع منهم ، يختلفون ويتفقّون ، غير أنهم خرجوا آخر الأمر مجمعين على أن تكـون زعامـة « المغـول » إلى « تيمـوجن » وأن يكـون الصـولجان فى يديـه . وحين أجابهم « تيمـوجن » إلى مـا أجمعوا عليـه لَفتهـم إلى ما للـزعـامة مـن حقوق عليهـم ، فلقـد ألزمهـم بـالطاعـة فأعطـوها راضين ، وألزمهـم بأن يكـون إليه عقاب المخـالفين وجزاء الخارجين فنَزلوا له عن ذلك راضين .

وبذلـك كُتبت الـزعامـة لـ« تيمـوجن » على « المغـول » ، وأصبح سيدَهـم وأصبح الحاكـم على تلك الأرض التـى بين الأنهار الثلاثـة ، وكم كـان يَود أن تكـون هذه الأرض لحاكـم واحد ، يجمـع كلمتها ، ويكفيهـا تلك الـويـلات المتلاحقـة . ولكـن هـؤلاء الخانات قبـل أن

يخرجوا عن « تيموجن » أقسم لهم بأنه سوف يقف مُدافعًا عنهم ، مُدافعًا عن أرضهم ، مدافعًا عن أرواحهم كما وعدهم بالانتقام من «طغرل خان » .

* * *

لم يَنْس « تيموجن » ما كان « للقرايطة » من غدر ، ولم يَنْس لهم أن وجودهم بالقسم الغربى من صحراء « الجوبى » ـ وهم ما هم شدة وقوة ـ كان له أثر فى توقّفه عن ضم إقليم « الخطاى » إلى أرضه التى تقع فى القسم الشرقى من هذه الصحراء ، لذلك فكَّر أول ما فكر فى أن يثأر لنفسه منهم وقد أصبحت الفرصة مواتية . وما إن فكر « تيموجن » فى هذا حتى جمع إليه جيوشه ، يريد أن ينتهز الفرصة قبل أن ينكشف الشتاء ، وقبل أن تذوب الثلوج وتَفيض مياهها فى الوديان فتعُوق حركاته السريعة المفاجئة .

وخفّ « تيموجن « بجيوشه زاحفًا إلى معسكرات « القرايطة » ، وكان «تيموجن » يعلم أن خُصومه ليسوا من الغَفلة بمكان ، وأنهم لن يتركوا حدودهم دون رقابة ودون حراسة ، لذلك عمد إلى الحيلة وعمد إلى الدهاء فسرّح رجلا من رجاله الشجعان ، هو « سابوتاى اليورانخى » إلى «القرايطة» فمضى إليهم على أنه فار هارب قد آذاه ما يلقى من « تيموجن » من معاملة سيئة . ودخل « سابوتاى » على «القرايطة » بتلك الحيلة وأخذ يقُص عليهم ما يُعدّ لهم « تيموجن » وما سوف يفاجئهم به .

ولكن القوم ــ شأنهم شأن غيرهم ــ أرادوا أن يخْبرُوا صدق هذا الفارّ ، فأرسلوا معه كوكبة من الفرسان طليعةً ، وخرج « سابوتاى » بتلك الطليعة ليدُلهم على صدق قوله . وما إن خرج بهم بعيدًا حيث طلائع جيش «تيموجن » ، حتى نزل عن جواده يدَّعى أن عرجًا أصابه ، فالتفَّ القوم به مَشغولين بأمره ، وكان « سابوتاى » ماهرًا لَبقًا ، فأخذ معهم فى حديث طويل ، يريد أن يصرفهم عن التطلع إلى الأفق البعيد ، حتى لا تقع عيونهم على طلائع جيش « تيموجن » ، ولم يكونوا قد رأوها حين رآها هو من قبل . وبهذا مكَّن « سابوتاى » لطلائع « تيموجن » من أن تتقدم ، ومكَّن لها من أن تلتف بمن معه ، فإذا هم جميعًا أسرى .

ولبث « القرايطة » ينتظرون أوبة طليعتهم ، لا هم بالمصدقين فيأخذوا أُهبتهم للحرب ، ولا هم بالمكذبين فيعودوا لشأنهم ، وهكذا بقوا على حال من الشك ، وإذا هم قد دَهمهم عدوُّهم على حين غِرة فنكَّل بهم تنكيلا شديدًا ، وخرجوا من معركتهم تلك وقد أفل نجمهم فباءوا بهزيمة مُنكرة ، وخرج زعماؤهم عن أرضهم يُولّون الأدبار . وامتدت أيدى الجيش الظافر ، جيش « تيموجن » ، إلى أسلاب «القرايطة» تنهب وتسلب غانمة ظافرة .

وما أخلد « تيموجن » إلى الراحة بعد ذلك النصر ، بل خف فى إثر عدوِّه الفار يضيِّق عليه السبل . وقُدِّر له أن يحُيط بفرق من ذلك الجيش الهارب ، خيرّها بين الانضمام إليه وبين القتل فاختارت الأولى على

الثانية ، وبذلك كسب « تيموجـن » كسبًا جديدًا ، إذ استطاع أن يضُم إلى جيشه جيشًا آخر له خبرة فى الحروب .

ومضى « تيمـوجن » فى إثر فلول الجيـش وهمُّه أن يقع علىٰ زعمائه . وفى قرية « قره قرم » أو « الرمال السوداء » سيق إليه ابن عمه «شاموكا» مأسـورًا فاتجه إليـه « تيموجـن » يسألـه : أى مصير تتوقـع ؟ وأجاب «شاموكا» : المصير الذى كنت أعدّه لك ، وهو الموت البطىء . وكان «شاموكـا» يعنى القتل بتقطيع الأعضـاء عضوًا عضوًا يومًـا بعد يوم . غير أن «تيموجن » كان حريصًا على تقاليد « المغول » ، حريصًا على ألاّ يَشذّ عما عُرف لهم فى مُعـاملة الزعماء الذين ينحدرون مـن بيت رفيع ، فشَنق «شاموكا» بخيط دقيق مـن الحرير ، وأخمد أنفاسه بين وسائد من اللباد. وهكذا حقـق « تيموجن » باستيلائه على أرض « القـرايطة » ما كان يحلم به، وكانت هذه النواة الأولى فى مملكته المرقوبة .

وما إن استتـب الحال لـ« تيموجن » فى تلـك البلاد حتى خـرج من فَوره نحـو وديان الغرب حيث « الأتـراك النايمان » الذين كـان لهم مع «القرايطـة » تاريـخ فى الحرب طويـل . فلقد أصبـح « تيموجـن » هو الأخر يتوجّس منهم الشر ويخافهم على سُلطانه الجديد .

خرج « تيمـوجن » فى جيـوشه كـالسيول المتـدفّقة تضرب فى تلـك الـوديـان ، بين سـلاسـل مـن الجبـال تُغطيهـا الثلـوج ، وبين سـور «الخطاى» العظيـم ، يجتاز فى طـريقه مُدنـا لها ماض قديـم عريـق مثل «شبالـك » و « خوتـن » ، وكان كلما مـرّ بمدينـة أسلمت قيـادها إليـه

وأسلـم هو إليهـا أمنها ، لا يضرّهـا فى شىء كما يفعـل القائد الحكيـم والسياسـى الماهر ، يكفيه من المغلـوب استسلامه ليضمنـه على الولاء له. فعل هـذا هنا بمثل هذا الـدافع ، وسترى أنه فعل مـا هو غير هذا بدافع آخـر ، فكان يملى حين يقسو عن طبيعـة ، ويملى حين يعفو عن خلق عـارض . وهكذا لم يأخذ « تيمـوجن » تلك المدن التـى أسلمت إليه أمرها بعنف أو قسوة حتى لا يفسد قلوبهم عليه ، ولم يفعل غير أن ترك فى كل منها حامية ليؤمِّن غزوه ويرهب من تحدثه نفسه بغدر .

وكما لان « تيموجن » مع هؤلاء الذين لأيَنُوه لينًا ليس فيه ضعف ، قَسَا بغيرهـم ممن خاشنـوه قسوة فيها عنف ؛ فيحكـون عنه أنه مـا كاد ينفـض اليد مـن قتال القبـائل المتمرّدة عليـه حتى جمع إليـه رؤساءهـا وزعماءها فقتلهم جميعًا لم يُبْق منهم ولم يَدع ، ثم أمر بالمحاربين فضمُّوا جميعًا إلى جيشـه ، وبالسبايا فـأُهدين إلى صفوة قـواده وخيرة جنوده ، وأمر نساء المغول فتبنَّين الأطفال والصغار ، ثم صيرَّ أملاك القبيلة بعد هذا إلى أمراء جدد .

وهكذا كـان « تيموجـن » يمحو القبـائل المعاديـة محوًا لا قيامـة لها بعده، لا يُبقى لها جيشًا ، ولا يَـدع لها نَسلا ، ولا يترك لها مالا . وكما أفاد من قسـوته مَددا لجيشه أفاد كـذلك من لينه ، فما كان يـأخذه عنفًا ممن عـادوه أخذه عـن رضى ممن سـالموه ، وإذا بين يدى « تيمـوجن » جيـش جـرّار كثيـف، ظـن أنـه قـادر بـه على أن يغـزو العـالم . وجمع «تيموجـن » إليه الخانـات ثانيـة إلى مؤتمر عـام « كورلتـاى » لانتخاب

رجل يكون إليه حُكم أواسط آسيا . وخف الخانات لتلبية نداء «تيموجن» من جميع أنحاء «الجوبى» . وهناك بالقرب من جبل «دليجون يولداك» مثلوا جميعًا بين يدى «تيموجن» فى سُتراتهم الطويلة وقد شُدت أوساطهم بمناطق رُصعت بالذهب والفضة . وانتصب «تيموجن» قائماً فى ظل اللواء ذى الذّيول التسعة يخطبهم .

وكان «تيموجن» مفوّهًا فصيحا فعرف كيف يملك مشاعرهم ، وكان داهية فعرف كيف يَستميلهم حين جعلهم شركاءه فى السرّاء والضراء ، وكان لَبقًا حين وصفهم بالإخلاص له والولاء ، وكان جليلا حين كشف عن أمنيته فى أن يسود المغول العالم ، ثم كان حكيماً حين عقَّب يطلب إليهم اختيار رجل منهم تكون له السيادة على الجميع .

لقد كان هذا كله تمهيداً لانتخابه ، وكان هذا كله تزكيةً له ، فما تردد القوم عن أن يجُمعوا عليه سيداً وينادوا به رئيسًا . وهكذا خرج «تيموجن» من هذا الاجتماع سيداً على قبائل «الجوبى» كلها . وإذ كان المُلك عظيما كان لقب الخان به غير جدير ، لذلك نهض أحد العرّافين يختار لقبًا جديداً جليلا يتفق وهذا الملك الجديد الجليل ، وناشد الجميع أن يُسُمُّوا سيدهم باسم «جنكيزخان» ومعناه ملك الملوك وحاكم العالم أجمع .

وهلّل المجتمع لذلك اللقب العظيم مَزْهوِّين به فخَورين ، فهذا مجد ، وإن بدا «تيموجن» صاحبه وحده ، فهم فيه مشاركون .

وتوحّدت تلك القبـائل التى عاشت مُتفرقة ، تُعين قـوة قوة ، ويُساند رأى رأيًا ، وتؤازر موهبـة موهبة ؛ فإذا الحاكم الجديد يملـك شجاعة «القـرايطة » إلى بطـش « المركيـت » وحكمة « الأُويجْوريين » إلى جَلَـد «التنـدرا » ، وجموع «البـورشيكـون » إلى غيرهـا مـن حشـود القبـائل الأخرى ، يـأمرها جميعًا فتـأتمر ويُملى عليها فتنصاع . وفى غَمـرة هذا الجاه الذى أصـابه « جنكيز خـان » وأصابـه شعبه معه ، يعـاود الناسَ إيمانهم القديم بأن الخان مـن سلالة معبودهم « اليوجـود » الذى تولاّه ورعاه ، ولم يتخلّ عنـه فوقاه الشر وجنّبه الضر وعبّد السبيـل أمامه إلى المجد .

آلة الحكم

وهكذا أصبح « جنكيز خان » بعد مؤتمر « الكورلتاى » يحكم من صحراء « الجوبى » إلى « منشوريا » شرقا وإلى أرض « الخطاى » غربًا ثم إلى « سيبيريا » شمالا . وكانت تلك الرقعة الفسيحة تتباين مُناخا وطبيعة أرض ، تجمع ألوانًا من الشعوب وألوانًا من الأجناس ، هذا إلى لغات مختلفة وأديان متفرقة وطباع متنوعة وعادات مُتميِّزة . من أجل ذلك لم يكن عبء «جنكيز خان » يسيرًا ، إذ كان عليه أن يخاطب هؤلاء كلهم وأن يبلَغ إلى عقول هؤلاء كلهم .

ولكن « جنكيز خان » لم يكن جديدًا على هذه البيئة بما ابتدع فيحملهم على نظام جديد قد يَستعصون عليه ولا يُسيغونه ، ويحمل نفسه على أمر جديد قد تخُونه فيه وسائله ولا تُسعفه . فلقد سبق أن اتحدت هذه القبائل يومًا ما وتزّعمتها أسرة « هيونج نو » بعد غارات متلاحقة ، حفزت هؤلاء الناس على أن يُشيِّدوا هذا السور ، سور الصين العظيم . ولقد خفّف هذا العبء شيئًا عن « جنكيز خان » فأفاد من تجارب من سبقه ، كما أفاد من تجاربه هو التى مرت به ، وكان ذا طبع سياسى فهيَّأه ذلك الطبع لحكم شعب كبير وتَدبير مملكة كبيرة .

وما إن اجتمع له الأمر حتى أخذ يُقَنِّن لهذا الشعب الكبير قانونًا عامًّا ينظِّم له حياته ، فكانت « الياسّة » تلك الشريعة المغولية التى ضُمِّنت تجارب هذا الرجل وآراءه على مرّ السنين . وكان هدف «جنكيز خان » منها أن يجمع على الطاعة تلك الشعوب البدائية المتأبِّية ، وأن يصوّر لها العقاب هائلا فترهب ، وأن يُرغِّبها فى الألفة فتأنس ، وألاّ يتركهم فارغى اليد فتثور فيهم غرائزهم الكامنة ويعدو بعضهم على بعض .

وعلى هذا كان لزامًا على « جنكيز خان » وقد ملك هذا الجيش أن يُفيد من هذا الجيش ، وإلاّ فسوف ينقلب حربًا عليه إن لم ينقلب حرباً على نفسه ، وفى كليهما الخُسران والهلاك . وكان لزامًا على «جنكيز خان » قبل أن يهيِّئ جيوشه للغزو أن يعد نفوسها لهذا الغزو . وهو خَطيب مفّوه كما علمنا ، يملك القول النافذ والأسلوب الرنَّان ، ويملك الحجة ويملك أسباب الإقناع . فتحدث إلى قومه فأكثر ، وخَطبهم فأمعن ، يصوِّر لهم فى هذا وفى ذاك ما يُعانون من ضيق ، ويصف لهم ما فى الأراضى المجاورة من رخاء ليس بينهم وبين أن ينالوه غير أن يخرجوا إليه ، فإذا هم قد مَلئوا أيديهم منه مَلئًا . وأحسّ القوم ما هم فيه من ضيق فتحمَّسوا ، وتطلَّعوا إلى ما ينتظرهم من رغَد فامتلئوا طمعًا ، ورأوا ما هم فيه من عُدة وقُوة فاستعجلوا الغزو .

لقد نظمت « الياسّة » صفوفهم فجعلت منهم جيشًا فيه تساند وفيه تعاون ، لا يتخلّ الجندى عن وُحدته ولا تتخلّ وُحدته عنه ، وعلى

كل وُحدة ـ وعدد أفرادها عشرة ـ ألا تخلّف وراءها جَريحًا ، وعلى كل مُحارب ألا يخرج عن المعركة إلا مع لوائه ، وعليه ألا تمتد يده إلى سَلب أو نهب قبل أن يأذن له قائده فى ذلك .

وكان الجيش وُحدات ـ كل وحدة عشر رجال ــ ثم فرَقًا كل فرقة «طومان » من عشرة آلاف ، وعليها رئيس « توبون » ، ثم الجيش من فيالق وعليه قائد « أرخون » . وكان من هؤلاء الأرخونات : «سابوتاى » و«موهولى » العجوز المحنّك و« شيبه نويون » القاسى العنيف ، وكثير غيرهم ممن كانت لهم غارات مشهورة وفُتوح مأثورة .

وكان لهذا الجيش سلاحه الوفير من حراب ودُروع ثقيلة تحفظ بمخازن أُعدّت له ، يُشرف عليها ضباط مسئولون عن صيانتها ونظافتها وصَقلها . حتى إذا ما كانت الحرب قام هؤلاء بتوزيع الأسلحة على الجنود ، ثم قام من بعدهم مفتشون « جرخانات » يستعرضون الجنود بعد أن ينتهى إليهم سلاحهم ، يستوثقون من استكمالهم لعدّتهم ، ومَن وجدَ مقصرًا أو مُهملا عُوقب . وإذا ما خرج الرجال إلى الحرب قام النساء بجميع ما عليهم ، يخلُفْنَهم فى جميع الواجبات إلى أن يعودوا .

لقد كان الخان يهيئ لجنده ـ الذين كانوا أخلاطا شتى ـ الفرصة ليعرف بعضهم بعضا ويُقرب بعضهم من بعض ، فكان لا يتركهم مع الشتاء قابعين فى خيامهم حول مدافئهم يقطعون الوقت الطويل فى حديث طويل ، سرعان ما يجرُّهم إلى التنابذ والتنافر والتشاحُن ، بل

كان يخرج فى موسم الشتاء إلى القَنص هنا وهناك فى طراد مُستمر وراء التياتل والظباء والغزلان والحُمر الوحشية . وجعل « جنكيز خان » ذلك قانونا من قوانين «الياسة » وجعل بَدْءه مع نزول الجليد ونهايته مع ظهور العُشب .

فإذا ما أهلّ الربيع جمع إليه قواده وضباطه فى مؤتمر عام يناقشهم فى أمورهم وفيما يحتاجون إليه ويَرضونه ، لا يُبيح لواحد منهم أن يتخلّف عن مجلسه هذا ، منذرًا من تحدثه نفسه بذلك بأن يُلْقَى به من عَلُ كما يُلقى بالصخر إلى الهاوية .

وهكذا قضى « جنكيز خان » على أسباب الشحناء بين رجاله فضَمنهم صفًّا واحدًا موحَّدا مؤتلفا ، وهيّأ لهم أسباب النظام فعَرفوا الحياة على لون جديد وأُسلوب مُبتدع ، وألزمهم بالطاعة فامتلأت بها نفوسُهم ، وعرفوها قانونًا ونظامًا فاتبعوه متعاونين ، ودربهم على مراحل القتال المُختلفة من هُجوم وانسحاب وزحْف ودفاع فَحذقوا هذا كله ، وأخذهم بالخُشونة وتحمُّل الصعاب فنَشئوا ذوى جَلَد وقُوة وصَبر ، يستوى تحت أرجلهم السهل والوعر ، والجبَل والبحر .

وكان « جنكيز خان » من الموحِّدين ، دَانَ بالتَّوحيد دينًا ، وضمَّنه قانونه « الياسة » وبه افتتحها حيث يقول : الله واحد خالق السموات والأرض مانح الخير والشر والغنى والفقر واليُسر والعسر ، واهب الحياة والموت يَفعل ما يشاء ، الله القوى ذو القدرة الشاملة والمُطلقة من كل القيود .

وهـو على هـذا لم يُلـزم رعـاياه بما دَانَ بـه بـل تـركهـم أحـراراً فيما يَعتقدون، يجُلّ رجـال الدين على أى ديـن كانوا ، ويحترم أربـاب المِلَل على أية ملّة عاشوا. ولقد بلغ من احترامه لهؤلاء أن أعفاهم من ضَريبة العُشور، وأعفاهم مـن كثير من المُؤن والتكاليف التى كانـت مفُروضة على من سواهم .

وهكـذا استطاع « جنكيـز خان » أن يقضـى على سبـب من أخطـر الأسباب التى تهَيج الشر بين الناس وتُؤرِّث بينهم العداوة والبغضاء . وكما أسقط هـذه المؤن عن كـواهل رجال الـدين أسقطهـا عن كـواهل الفقهاء والزهاد والعلماء والأطباء ومن فى مستواهم .

فعل هذا كله « جنكيز خان » يريد أن يهيئ للحياة الفكرية سبيلَها ، فلا يُرهق أهلهـا فيشغلها ، ويريد أن يُفسح للحياة الفكـرية مكانتها فى النفوس ، ويحُيط أصحابها بشئ من التقدير .

وهكـذا تضمنت « اليـاسة » جملـة مـن القوانين التـى تُعنى بتنظيـم العلاقات بين النـاس بعضهم بعضا . ونحن نُجمل لك شيئًـا من ذلك لتعرف على أية حال كان هؤلاء القوم ، وأيّـة حياة كانوا يحَيَوْن ، فكان مما جاء فيها :

ليس لمواطن ما أن يتخذ مغوليًا خادما له أو عبدًا .

من وَجد أسيرًا هاربًا أو عبدًا آبقًا ولم يردُّه قُتل .

جزاء الزانى أو الزانية الذبح .

ليس لأحد أن يتناول الماء بيده بل عليه أن يَغترفه بإناء .

مَن بال فى الماء قُتل .

إياك وشرُب الخمر فوق ثلاث مرات فى الشهر . ومن الخير لك ألا تشربها أبدًا . فإن مَثل السكران كمثل من أصابته ضربةٌ على أُمِّ رأسه ففَقد وَعيه .

ليس لأحد أن يأكل وغيره يراه دون أن يُشركه فى الأكل .

مَن مرّ بقوم يأكلون فله أن يُلم بهم ويؤاكلهم وليس لهم مَنعْه .

القتال بين المغول بعضهم بعضًا مُحرم .

من وقع عنه حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى القتال وكان من خلَفه غيرُه فعليه أن يترجل ويُناوله ما سقط منه ، فإن لم يفعل قُتل .

كل من لا يشارك فى القتال فعليه أن يُؤدى للإمبراطورية خدمةً مَا دُون جزاء لفترة معيّنة .

* * *

وبعد فقد كانت للقوم عادات وتقاليد تُلقى هى الأخرى أضواء على حياتهم ، فلقد كانوا يحرِّمون على أنفسهم غَسل الثياب ويَلبسونها حتى تَبلى .

وكانوا يُعدّون الأشياء كلها طاهرة وليس ثمة شئ نَجس .

وكانوا إذا قَدَّم أحدهم إلى آخر طعامًا أو شرابا فعليه أن يتناول منه شيئًا أولا قبل تقديمه ، ليُلقى بذلك الأمن فى نفس صاحبه .

وكانوا إذا أرادوا ذَبح الحيوان شدُّوا قوائمه وشقُّوا جوفه ثم أدخل

الذابح يدَه إلى قلب الحيوان ليمرسه أو يخرجه .

وكانوا يَشربون دماء الحيوان .

وكانوا يخشـون الرعد ويَفْرَقـون منه ، حتى لقد كـان الخوف يَدفع بأحـدهم مـع الرعد إلى أن يَقْـذف بنفسه فى الماء اتقـاء غضب السماء ، ومن هنا كانت « اليـاسة » تحرّمَ الاستحمام ولَمس الماء خلال العواصف ذات الرعد والبرق .

وهـم على هذا كـانوا يدينون بـالصدق ، لكلمتهم قداسـة ، يَقْصد أحدُهـم إلى الخان يطلـب إليه أن يَقتصَّ منه على جُرم لم يَـره أحد مُتلّبسا به ، كما كانـوا مُتعالين على غيرهـم فيهم كِبر وفيهم غطـرسة ، ينظرون إلى مَن سواهم نظرة ملؤهـا الاحتقار والازدراء ، لهذا عدّوا اعتداءهم على غيرهم من البشر شيئًا غير مُنكر ، بل غالَوْا فعدّوه جزاء عادلاً .

نحو الشرق

خلال القرن الثانى عشر كانت تسود الأقاليم الشرقية من آسيا مَوجات من الفوضى والاضطراب ، فلم تذُق تلك الربوع الطَّمأنينة يومًا ، ولم تنشر السكينةُ ظلالَها عليها . فلقد كانت الأسرات المتطلِّعة إلى الحكم فى نزاع مستمر حول الغلبة على السلطان ، لا تكاد تتبوَّؤه أُسره حتى تثور بها أخرى ، والشعب بين هذه وتلك هائج ، فريق مجَذوب إلى هؤلاء وفريق مجذوب إلى هؤلاء ؛ يَصْلَى بعضُهم شر بعض ، ويعدو بعضهم على بعض .

وفيما بين عامى ٩٦٠ ـ ١١٢٧ م كانت أسرة « صُونْ » * ـ وكان الحكم إليها بالصين ـ قد بلغت من الانحلال حالاً أطعمت فيها قبائل « الخطاى » التى كانت تنزل إلى الجنوب من « منشوريا » فى إقليم يعرف من قبل باسم : «لياو » ، ويعرف الآن باسم : « كوريا » . وما إن

---

* Sung أسرة صون حكمت الصين من عام ٩٦٠ إلى ١٢٧٩

غزت قبائل « الخطاى » * هذا الأقليم حتى أرغموا الأسرة الحاكمة، أُسرة « صُونْ » على النزول لهم عن الأرض الممتدة وراء سور « الصين » العظيم .

وحين تم لهم ما أرادوا ضموا تلك الأرض إليهم ، وأقاموا عليها أسرة منهم تحكمها ، هى أسرة « لياو » ومعناها فى لغتهم : « الحديد » ولكن سرعان ما غَشيت المدينة بزُخرفها وبهرجها تلك الأسرة البُدائية الحاكمة فانغمست فى الملذّات والشهوات ، وخرجت بها حياة التَّرف والرفاهية عن حياتها الخَشنة الجافية ، ففقدت بأسها وطرحت جانبًا روحها الحربية ، وأُنسيت ما كان لها من مراس وكفاح ، وإذا هى على حال من الخَور والضَّعف تُتيح لخصومها الذين كانوا يتربصون بها الدوائر أن يثوروا بها .

وفى مقاطعة من مقاطعات « منشوريا » كانت تنزل قبيلة « الكين » ومعناها فى لغتهم « الذهب » . وكانت تَدين بالولاء لأسرة « لياو » وتخضع لها ، غير أن الترف الذى أفسد على أسرة « لياو » حياتها لم يُفسد

---

* Cathay هو الاسم الذى عُرفت به الصين خلال العصور الوسطى ، وهو مشتق من كلمة خيطان Khitan الصينية وكيطاط Kitat المغولية وخطاى العربية . وكان أول من أزاح الستار عن هذه الأسماء فى أوروبا قسيسان من الفرنسسكان زارا قره قرم عاصمة الامبراطورية المغولية عامى ١٢٤٦ ، ١٢٥٤

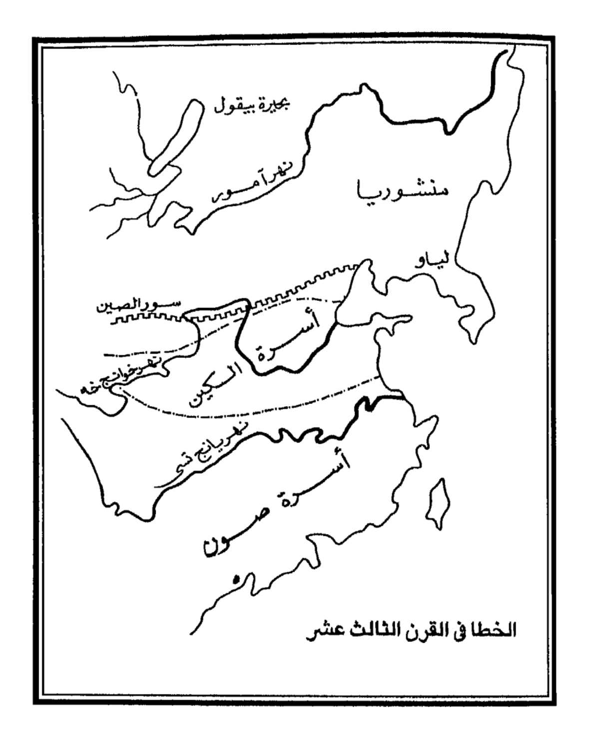
على أسرة «الكين» حياتها ، وعـاشت فى بـداوتها تَستملى من خُشـونتها قُوة ، وتستملى من حفاظهـا على تقاليدها بأسًا . وأخـذ الزمن يسلُب أُسرة « ليـاو » ويعطى أسرة « الكين » فـإذا هـؤلاء أقـوياء وإذا أولئـك ضعفاء . وما دان الناس للناس إلا حين يَـرَونهم أعزّاء أقوياء عليهم ، فإذا هـانوا هان ولاؤهم لهم وانقلـب طُموحًا إلى التحرُّر وطُمـوحًا إلى الغلبة . وهكذا استحال المغلوبون غالبين ، وأُتيح لأسرة « الكين » أن تستأثر بـالسلطان دون أسرة « لياو » ، وأصبحت صـاحبة السيادة على إقليم «الخطاى » فى عام ١١٢٥ . وكما استكانت أُسرة « صُونْ » لأُسرة « ليـاو » استكـانـت لأسرة « الكين » ، دفعت إليهـم الجزيـة صـاغـرة كماكانت تدفعها من قبل لأسرة « لياو » .

* * *

وكـان دأب ملوك « الخطـاى » أن يفـرضـوا الضرائب على من هـم خارج السور العظيـم من بدو . وكان هؤلاء البدو فى شَـدّ وجَذب مع أولئك الملوك ، لا يؤدّون إليهم ما فَرضوه عليهم إلا حين يُحسّون منهم قُوة وبأسًـا ، فإذا ما أحسُّوا منهم الضعف والهوان امتنعـوا عن أداء ما فرضـوه عليهم ، ولا يقفـون عند هذه بـل كانـوا يجاوزونها إلى أخرى أشدَّ هولا ، فيخرجون مُغيرين على السور العظيم . عندها كان هؤلاء الحكام لا يجدون بُدًّا من استرضائهم ، فيُغدقون عليهم الهبات والهدايا من غلال وفضة وخمر مُعتقة ومنسوجات حـر يرية لكى يَصرفوهم عن حَربهم ويأمنوا شرهم .

وتطلع « جنكيز خان » إلى ذلك الإقليم الذى تفرض عليه أسرة «لياو » سلطانها ، يريد أن يضمه إلى ملكه ، فهؤلاء البدو الذين ينزلون إلى الشرق من « الجوبى » والذين تعدهم أسرة « لياو » من رعاياها ، هم إليه وهو خاقان عليهم . وتلبَّث ينتهز الفرصة للإيقاع بخصمه . ولم تغب تلك الفرصة طويلا ، إذ لم تكن الحال بين أسرة « صُونْ » ، وأسرة « لياو » مستقرة ، فكانتا لا تهدأ بينهما حرب . وفى غمرة من تلك الغمرات فزع الامبراطور الصينى بالمغول ، وأرسل إلى « جنكيز خان » يطلب منه العون . وهنا خفّ « جنكيز خان » إلى عونه وأمدّه بجيش من جُنده على رأسهم «شيبه نويون » ذلك القائد المحنّك المغوار. وأبلى الجيش المغولى خَير البلاء ، ووطئ أرضا لا عَهد له بها من قبل ، غنىً وثروة وجاهًا ، فأخذ بمحاسنها ومفاتنها . فلقد كانت الحياة هنا غَيرَ الحياة التى ألفوها فى أرضهم . فهذه حياة قد أخذت بحظ من الحضارة والمدنية والعلم ، وتلك حياة بادية جافية لا تعرف غير القِباب والخيام . وهكذا كانت الحياة هنا تُباين الحياة هناك خلف السور العظيم تباينًا تامًّا .

وعاد الجند من حَملتهم تلك وفى رؤوسهم الكثير مما رأوْا وشاهدوا، يذكرون هذا الخير العميم الذى ينعم به القوم ، ويذكرون ما رأوا للقوم من علم وفن . ويذكرون ما رأوا للقوم من رفاهية وحضارة ، ويذكرون ما رأوا للقوم من جاه وغنى ، ويذكرون لهم كيف يعيشون وكيف يلبسون وكيف يلْهُون . وكما عاد هؤلاء الجند بهذا عادوا



بحيرة بيقول
نهر آمور
منشوريا
لياو
سور الصين
أسرة الكين
نهر خوانج خه
نهر يانج تسي
أسرة صون
الخطا في القرن الثالث عشر

يَرْوُون ما للقوم من بَاع فى الحرب وعلم بفُنونها . فلقد رأوْهم قوماً يجيدون الرمى بالسهام ، ويجيدون رَكوب الخيل ، ولكنّ حياة المدن صرفتهم عن هذا إلى غيره من وسائل الدفاع ، فأقاموا الحصون والأسوار حول مدنهم يدفعون بها عن أنفسهم ، ويَجعلونها عُدتهم فى رد خُصومهم عنهم واستكانوا إلى الدّعة والرغد ، وعاشوا طبقات : منهم الحُكام ، ومنهم النبلاء ، ومنهم العلماء والتجار والصناع ، ومنهم العَبيد ، ومنهم الكهان ، ومنهم الجند ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا الامبراطور الذى كانوا يعدونه ابنا للسماء ، تحيط به حاشيته التى كانوا يُطلقون عليها : سحب السماء .

ولقد رأى هؤلاء الجند لأهل « الخطاى» عربات للقتال تجرُّها الجياد ، لم يكن اعتمادهم كله عليها وإنما كان اعتمادهم على أقواس لهم ثَقيلة ، تعوز كل قوس منها عشرة من الرجال الأشداء لجذبها لتنطلق عنها سهامُها الهائلة ، هذا إلى مجَانيق لهم أُعدت لقَذف الأحجار وأُخرى لقَذف اللهب والحمَم ، لم يكن من اليسير عليهم تفَهّم كُنهها . كما رأوهم يَستخدمون البَارود فى الحرب بعد أن كشفوا عنه . وهكذا رأى هؤلاء الجنود من أسباب القتال مثلَ ما رأوا من أسباب الحضارة ، شيئًا جديدًا يقوم على علم ويقوم على دراسة .

ملكت هذا كله جَيوش « الخطاى » ولكنها حين انغمست فى الترف ، وترك امبراطورها الحبل على الغارب لقُوّاده ، و عكف هو على ملذّاته فى مقر ملكه «ين كنج » أطمع فيهم هؤلاء البدو من خلف

السور ، يَشنون عليهم الغارات ويُوالون الهجمات .

بهذا كله عاد هؤلاء الجند فإذا حديثهم يحرّك النفوس إلى غَزو يُشبع البطون الجائعة ، ويملأ الجيوب الخاوية ، ويكسو الأجسام العارية ، ويُتيح للقوم الجفاة عيشًا رغدًا وحياة لينة . وسَعَوْا سعيهم لدى قائدهم «جنكيز خان» يُغرونه ويَستميلونه إلى رأيهم . غير أن «جنكيز خان» ما كان يُملى عن شهوة وإنما كان يُملى عن رأى ، وما كان يملى عن هوى وإنما كان يملى عن تدبير وروية ، وما كان لقائد محنَّك مثله أن يقذف بجيشه إلى الشرق دون إعداد فيعود آخر الأمر بهزيمة تُغرى به أعداءه الذين لا يزالون يتربَّصون به الدوائر للقضاء على ملكه الناشئ .

لقد كانت «الجوبى» له ولكن خُصومه كانوا يحُيطون بها إحاطة السوار بالمعصم ، فمن الجنوب تقع «هيا» دولة اللصوص وقطاع الطرق الذين يسكنون الكهوف والمغاور ، ومن الشرق مملكة «الخطاى» التى وصفها المغول بالسوداء بغُضًا منهم لها وكراهية . وكانت تضم قبائل التركستان ، ومن وراء الخطاى السوداء جيوش «القرغيز» الذين كان يحميهم تجوالهم فى الفيافى من أن تقع عليهم قبضة المغول .

لقد حسب «جنكيز خان» حساب هذا كله قبل أن يستجيب لقُوَّاده اللهفين إلى الغزو ، وأخذ يتعرّف ما عند أعدائه من قوة وما عندهم من ضعف ، حتى إذا ما استوى له الرأى أعدّ جيوشًا ثلاثة ، على رأس أولها «شيبه نويون» وقذف به إلى «القرغيز» وعلى رأس ثانيها

«سابوتاى » وقَذف به إلى الخطاى السوداء ، وجعل رياسة ثالثها إليه ، وخرج به يُصوِّب صوب مملكة « هيا » يريد أن يشغل خصومه ويُشتت جهودهم فلا يَقوون على التجمع عليه .

ولقد تحقق لـ « جنكيز خان » ما أراد ، فخرج إليه أهل « هيا » يطلبون الصلح ، وإذ كانوا مغولاً مثله أجابهم إلى هذا الصلح ، وأصهر إلى الأسرة الحاكمة فتزوج فتاة منهم يريد أن يستأنسهم ويجعل بينه وبينهم ألفة ورباطًا . وما كُتب لجيش « جنكيز خان » كُتب للجيشين الآخرين شىء مثلُه أو قريب منه ، فقد طلبت جيوش «القرغيز » إلى « شيبه نويون » الصلح ، وكذلك فعلت جيوش «الخطاى » السوداء . وهكذا عادت هذه الجيوش الثلاثة ـ بعد أن أمَّنت حدودها ـ وقد أفادت خبرَة وأفادت تجربة ، وداست تلك الأرض فَخبرت طبيعتها وأُحيطت بها علما ، ثم هى بعد هذا وذاك قد كسبت أنصاراً وضمَّت حلفاء .

وبموْت امبراطور « الخطاى » وَلِىَ ابنه « واى وانج » ابن السماء ، منْ بعَده عرش « الكين » ، وكان ماجنًا لاهيًا مغروراً ، فأرسل رسله إلى مَنْ تحت يده يجمعون له الضرائب ، لم يستثن منهم « جنكيز خان » إذ كان يراه من هؤلاء البدو الذين يعيشون خلف السور العظيم عليه ما عليهم .

ووافت الرسل « جنكيز خان » وهو فى قُبته بهضاب « الجوبى » ، وقد علم بوفاة الحليف وقيام ابنه المغرور مكانه فلم يدهش . غير أنه

أراد أن يردّ تلك الإهـانة التى أحبّ أن يُلحقها به هـذا الملك المغرور ، فلم يتلقّ الرسل بما يجب عليه لهم ، والتفـت إليهم بعد أن تسلّم كتاب مليكهم وعَرف ما فيه ، يهوّن من شأنه ويُعلن التمرد عليه .

وكذلك أعلنهـا « جنكيز خان » حربًـا صريحة على ابن السماء « واى وانـج »، ومَن فَعـل فعل « جنكيـز خـان » كان عليـه أن ينظُر فى أمـره ويتدبّره ليأخذ عُدَّته لكفـاح أو دفاع . ودعا « جنكيز خان » إليه قُواده ليروا معه ما هم فاعلون . وأراد ألا ينفرد بحرب ابن السماء وألا يجعل وزرها عليـه وحده ، فـأشرك معه حليفيـه الجديديـن . وهكذا خـرج «جنكيز خـان » من هـذا الاجتماع العَجِل وقـد ضمّ إليـه أهل « هيـا » ورجال « القرغيز » على حرب «واى وانج » .

وكـانت رسـل « واى وانـج » مُقيمين لم يبرحـوا ، انتظاراً منهـم لما سيحمِّلهم إياه « جنكيز خان » إلى مليكهم ، وحين مَثلوا أمام « جنكيز خان » حمَّلهم رسـالة قاسية فيهـا إهانة صريحة . ورجع الـرسل إلى ابن السماء بتلك الرسالة المهينة فثار لها ، وكانت ثورته أكبر حين استمع إلى نـائبه على مـا وراء السور العظيـم يحُدِّثـه عن بطـش المغول ومقـدرتهم الحربية . فلقد عدّ ذلك منه تهْوينًـا لأمره وتمجيدًا لعدوه ، فقذف به فى السجن مُغضَبًا ثائرًا .

وانتهى إلى « جنكيز خان » ما كان من ابن السماء من ثورة ، وما كان منه مـن تَنكيل بنائبه فى إيـداعه السجن ، فعلـم أنه لابد فاعـل شيئًا . وأراد «جنكيز خـان » أن يُمعن فى الحيطة ، وأراد أن يطعـن ابن السماء

فى حُلفائه وأوليائه قبل أن يطعنه فى نفسه .

وقد مرّ بنا كيف انتزعت أسرة « الكين » السلطان من أسره « لياو » واستأثرت بالملك دونها . وما هو بهينٍ على « لياو » ما خسروا وما فى مقدورهم أن ينسوا .

ذكر ذلك « جنكيز خان » ففكّر فى أن يُفيد من تلك الخصومة ، وما عليه إلاّ أن يثيرها ويهيجها . وما على أسرة « لياو » من بأس أن تسَتجيب إن أمنت الشر . من أجل ذلك أرسل « جنكيز خان » إلى أسرة « لياو » رُسله يعرض عليهم عونَه ليكونوا معًا حربًا على عدوهم المشترك . وسرَعان ما استجابت أسرة «لياو» فتم التحالف . وسرعان ما أُمضى هذا الحلف بقَطرات من دم المتحالفين تَوثيقًا للعقد وإجلالا له .

وحين ثار ابن السماء بنائبه لم يَنته بثورته عند ذلك بل تجاوزها إلى ما هو أكبر ، فإذا هو يأمر بخروج قُوة مسلحه لتأديب ذلك المُتمرد . وتبلغ «جنكيز خان » الأخبارُ فيستعد هو الآخر لمُلاقاه عدوه ، ولكنه كان على علم بمناعة السور العظيم ، ولم يكن فى استطاعته أن يجتازه ، فأرسل عُيونه لتخبره وتتعرّف أبوابه ومداخله وتتحسّس جدرانه . وتعود الرسل تخبر «جنكيز خان » أنه حتّم عليه أن يَلج الأسوار من أبوابها إذ أن مناعة تلك الأسوار أقوى من أن ينفذ منها .

وقبل أن يمضى « جنكيز خان » فى اقتحام السور وولوج أبوابه رأى أن يُمهد لذلك الهجوم بمُقدمات يُفيد منها قبل أن يقضى أمرا ، فبعث

بنفر مـن رجاله ، منهـم التجار الذين يسهـل عليهم الدخـول إلى هذه المدينة المنيعة ، ومنهم الفرسان الذين تظاهروا بالفرار من ظلم «جنكيز خان» . بعث «جنكيز خان» هؤلاء وهؤلاء وزوّدهم بما يُحبّ منهم أن يفعلوا ، وكان همّه أن يتعرف ما عند عدوّه بما ينقلُه إليه هؤلاء التجار ، وأن يقـع على نفر مـن المحاربين فى جيـش عـدوه ، ينقُلهم إليـه أسرى فرسانُه الـذين ادعوا الفرار . وتم « لجنكيز خان » مـا أراد فقد عاد إليه التجـار بشىء ، وعـاد إليه فـرسانـه برجـال من المحـاربين استطاعـوا أسرهم ، وما إن استنطقهم «جنكيز خان» حتـى أفضوا إليه بالكثير ممّا يرغب فيه .

عندهـا خرج « جنكيز خان » للغـزو تتقدّم جيشَه كشـافة تسير على مسافات بعيدة أمام الجيش لتؤمّـن مسيرة زحفه . وكان فى إثر الكشافة مقدمـة من الجيـش تضمُّ فـرقًا ثلاثًـا ، قوامهـا كلها ثـلاثون ألفًـا من الفُرسان الشجعان ، لكل فارس جوادان ، يركب واحدًا ويقود واحدًا إلى جَنبه ، وعلى رأس تلك المقدِّمة قُواد ثلاثة محنَّكون هم : «موهولى» و « شيبه نـويون » و«سابـوتاى » . وكـان يسبق هؤلاء وهـؤلاء عُيون للجيـش « طـابـور خـامـس » همُّهـم أن يُغْـرُوا الحُراس القـائمين على الأبواب ، ولقـد استطاعوا . فما إن وصلـت المقدمة حتـى انفتحت لها الأبواب وفى إثرهـا اندفعت القُوة الـرئيسية من الجيش بجَنـاحيها ، فى كُل جناح خمسون ألفًا من الفرسان ، وفى قلبها مائة ألف من المُقاتلة من قبيلة « يكا » قبيلـة « جنكيز خان » ، هذا إلى ألف من الـرجال الأشداء

كانوا حرسَ « جنكيز خان » الخاص يمتطون جيادهم السوداء .

ويحكون أن هـذا الجيش ـــ أعنى جيـش « جنكيز خـان» ـ أول مـن ابتدع التخـاطب بـالأعلام . فعـل ذلك «جنكيـز خان » حين رأى أن الطبول والأبواق يضيـع صَدى أصواتها فى ساحـات القتال الفسيحة . هذا إلى أن الأعداء كانوا يفهمون المُراد منها فى بعض الأحيان فيفسدون على الجيش المُحـارب خططه. وبهذه الوسيلـة الجديدة التـى لا يفهمها العدوّ كـان اتصال الكشـافين بالمقدّمـة، والمقدمة بـالجيش الـرئيسى ، والقلب بالجناحين ، على خير حال .

واقتحمت جيوش « جنكيز خان » الأبواب وجازت السور العظيم لتَلقى القوات المرابطة خلفَ السور فتهـاجمها على غِرة وتُنكِّل بها نكالا شديـدًا. عندها أصـاب الفزعُ والهَلَع تلـك القواتِ فانسحبـت تحتمى وراء أسوار المُدن الداخليـة ـ وكانت تلك عادتهم منـذ الأزل ـ وأخذوا يَرمون هؤلاء المهاجمين بوابل مـن السهام ، ويصبُّون عليهم نارًا تقذف بها قاذفاتُ اللهب .

هكـذا فعلت قـوات العـدو وكادت تُعـوِّق تقـدُّم « جنكيز خـان » وكادت تردُّه على أعقابه . غير أن جواسيس المغول وفُرساهم المتنكِّرين كانـوا قد انبثـوا بين صُفوف المحاربين فمـلأوا القلوب رُعبًا والأفئدة ذُعراً ، فإذا تلك القوات الرابضة خلف الأسوار تَنكسر وتنخزل .

وكان الامبراطور قد أرسل جيشًـا للقضاء على عدوّه ، وخرج هذا الجيـشُ زاحفًا للقـاء « جنكيز خـان » غير أنه ضـلّ الطريـق واحتوتـه

المتاهات ، وانتهى إلى «شيبه نويون » علْم هذا ، وكان ممن جاسوا تلك الأرض من قبل وعرفوا مَعارجها وطُرقاتها ، فجرى فى إثر ذلك الجيش الضالّ يبحث عنه . ومع الفجر أطبق « شيبه نويون » بجيش الامبراطور على غرة وأباده عن آخره غير شراذم قليلة فرّت عَجلة طائشة على غير هُدًى ، فضربت فى البادية ما ضرَبت ثم انتهت إلى المدينة فنشرت الخبر ، فإذا الذُّعر يَعُم وإذا الهَلَع يَسود وإذا القوات الرابضة خلف الأسوار يُصيبها ما أصاب القوم ، هذا إلى ما أصابها من قبل من فعل جواسيس المغول ، فتتخلّى عن أماكنها وتترك الأسوار دون دَفاع . وإذا الهَرج يسود المدينة ، وإذا كلهم فارٌّ وكلهم متعثّر، لا يعرفون إلى أين يأوون ، والمغول فى إثرهم يقتلون ويسلبون ويأسرون، مُدَمِّرين هادمين .

وأصبح « جنكيز خان » يومًا فإذا هو فى زحفه تلقاء مُدن ، منها «تايتونج فو » أكبر مدن الغرب و « ين كنج » ، وقد اجتمع خلف أسوارهما صَفوة من القواد ، وصَفوة من الجنود ، وإذا حاميات تلك المدن تزيد يومًا بعد يوم ، بما ينضم إليها من الجنود الراجعين . ونظر «جنكيز خان » فى أمره فإذا هو بين يدى الخريف بزوابعه وعواصفه الثلجية ، وخاف على جيشه أن يقضى عليه البرد ، ورأى نفسه أمام قُوات تتزايد ، فقرر العودة بجيوشه إلى « الجوبى » ، تلك الصحراء الفسيحة حيث أهلُه وعشيرته ، ليرُيح جنده ويستريح هو ويُعدّ العُدة لغزوة قادمة .

غير أن المغول ما كادوا يَصلون إلى صحرائهم حتى أخذ أهل الصين فى تقويه حصونهم وإعداد أسلحتهم وقاذفاتهم ، واستجلبوا القوات من كل حَدَب وصَوْب . وأهلّ الربيع وعاد إليهم « جنكيز خان » غازيًا ، غيرَ أنه وجَد الأمر على غير ما ترك ؛ فقد رأى نفسه أمام قُوىً أكثر تسليحًا ، ووقف الخان تلْقاء مدينة « تايتونج فو » يُضيِّق الحصار عليها ويهاجمها يومًا بعد يوم عَنيفًا فى هذا الهجوم . وخاف الامبراطور أن تَذل االمدينة أمام هُجُوم الخان ، فأرسل جيشًا ليرُغم الخان على فكَّ الحصَار عن المدينة . غير أن الغازى التفت إلى الجيش الزاحف ودمّره تدميرًا ، فألقى بذلك درسًا قاسيًا كان له أثره فى نفوس أهل الصين ، وجعلهم يُؤمنون ألاّ مكان لهم إلاّ وراء الأسوار ، فقَبعوا خلفها وجلين .

وأقبل الخريف مرةً ثانية ، وإذا الغازى يُصاب بسهم فى ساقه ، فحَملَه قومه راجعين إلى صحراء « الجوبى » يَرون مع الخان أنهم فى حاجة إلى مزيد من جند ، كىْ تُكتسب لهم الغلبة على تلك المدن المحصَّنة .

وعلى حين لم تَذل « تايتونج فو » أمام هجمات الخان أفلح « شيبه نويون » فى الاستيَلاء على مدينة « ليا ويانج » فى مملكة « لياو » . ولعل الذى يسَّر على هذا القائد استيلاءه على تلك المدينة أنها كانت تُعانى حصارًا قام به جنود « الخطاى » من أُسرة « الكين » فمدَّت المدينة يدَها إلى «جنكيز خان » تطلب العون فى تلك المحنة ، وأرسل الخان قائده

«شيبه نويـون » فحاصرها هو الآخر . وهكذا ضُــرب على هذه المدينة حصاران : حصـار تضربـه جيوش « الكين » ، وحصـار مـن خلفـه تضربه جيـوش «المغول». ويجد « شيبه نـويون» أنه لا طـائل وراء هذا الحصـار ، فإذا هـو يمهد لـذلك الفتـح بحيلة ابتـدعها وجـازت على المحاصريـن . فيقولـون إنه لما طـال الحصار ووجـد أن قواتـه لا تُغنى انسحب تاركًا مَضاربه وخيامه وثيرانه وعرباته ، وأمعن فى الانسحاب يـومين وليلة . وأطَـلّ الجنـود المحاصريـن فـرأوا مـن تحتهم معسكـر «المغول » عامرًا بما فيه ، واطمأنوا إلى أن المغول قد أبعدوا فى السير ولن يعودوا ففتحوا أبوابهم ونزلوا عـن حصونهم يسلبون وينهبون . ولكن «شيبه » كـان ماكـرًا ، فما كاد يرى أن المدينـة قد فتحـت أبوابها ، وأن الجند قـد نزلـوا عن حصـونهم ، حتى امتطـى جُنده خيـولهم السريعة العـدو ، وعادوا مـع الفجر إلى معسكـرهـم الـذى تركـوه منذ يـومين وأحاطوا بالجنود وهم عُزَّل ينهبون ، فأعملوا فيهم السيُّوف يذبحون . وكانت معركـة رهيبةً كاد يفنى فيها جيش « الخطـاى » ، ووجد المغول الأبواب مُفتَّحة فاقتحموها فى يُسر .

* * *

لقد علم « جنكيز خان » أن الصينيين يَدينـون لامبراطورهم بالوَلاء والطاعة ، فهم لـذلك يُفَدُّونه بحياتهم ويتفانَـوْن دونه ، ولقد عَلم أنّ لهم تلك الجُدران المنيعة التى تُعوِّق الجنود المُهـاجمة وتضطرها للوقوف أمـامها أيـامًـا وليالى فى العَـراء ، وقـد يطول بها الـزمـن فتفنى مُـؤَنها

وتتعرّض للهـلاك . ولقد علـم أن مُدنها متبـاعدة تفصـل بينها فيـاف واسعة تَضطرّ الجيش المُهاجم إلى عنـاء كبير وجَهد طويل . ولقد علم أنه إن عـنَّ له أن يترك بها حاميات فسـوف يكلِّفه ذلك عـددًا كبيرًا من الجُند ، ومـا هو بمُستطيع ذلك. مـن أجل هذا كله انسحـب « جنكيز خان » بجيوشه مكتفيًا بأن يشُن غـارات مُتتالية متلاحقة ليبُث الفَزع فى القلوب ويترك الصينيين على أُهبة مُستمرة ، لاهـم فى سَلْم فيطمئنوا ، ولا هم فى حرب فيعيشوا عيشةَ المُحاربين.

وعلى الرغم من هـذا الفزع ـ فزع الاستعداد للحرب ـ فلقد عاش الصينيون فى فَزع آخـر ، إذ كانت الأسرة الحاكمة فى صراع عَنيـف مع عصـابـات الفلاحين ذوى الأرديـة الحمـراء ، التـى كانَ همُّهـا إنقـاذَ الشعب البـائس من طُغيـان الفئة الحاكمـة التى نعمـت بالثـروة والجاه وتـركـت النـاس يتضوّرون جُـوعًـا . فعلى حين كانـت القُصور تَعـجّ بالطعام والخُمور كان الناس من حـواليها صرعى فى الطرقات ، ما بين ميت قد أهلكه البرد ، وهالك قد شَفّه الظّمأ وأرداه الجوع .

وفى عـام ١٢١٤ خرج « جَنكيـز خان » لغـزو الصين قـاصدًا « يَـنْ كنـج» ، وكان خـروجه هـذه المرة يحمل معنـى آخر غير تلـك المعانـى السابقـة ، فلقد خرج فى جيـوش ثلاثـة ، يقُود الأول ابنه « جـوشى » مخترقًا جبال «خـونجان» الـوعرة لينضـمّ إلى جيوش « ليـاو يانـج » ، وكانت جيوش «الخطاى » قد عاودت حصارها . ويقود الجيش الثانى أولادُ الخان قاصدين التوغّل نحو الجنوب فى الأراضى الصينية . وقاد

الخان نفسه الجيشَ الثالث زاحفًا إلى «ين كنج » يريد أن يقتحمها من خلفها .

وتقدمت الجيوش الثلاثة تكتسح ما أمامها كَسْحًا فى عُنف السيول وسرعة العواصف ، فخضعت أمام جبروتها البلدان الكبيرة وفتحت لها أبوابها . وفى هذه المرة كان المغول يسوقون أمامهم أسراهم يقدِّمونهم دونهم قبل الهجوم على المُدن الجديدة ، التى ما تكاد ترى هؤلاء الأسرى حتى تفَتح لهم الأبواب . وما يكاد يدخل هؤلاء الأسرى من الأبواب حتى يكون «المغول » فى أعقابهم يقتحمون الأبواب ويقتلون الحُراس . لقد قسا «المغول » فى غزوتهم تلك قسوةً بالغة فأبادوا ودمَّروا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا وأسروا . ودخلوا الصين دخولَ ملَك الموت يختطف الأرواح اختطافًا فتركوها يبَابًا خرابًا ، انتشرت فيها الفوضى وعَمّت المجاعات وخيَّم الخراب .

وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت « يَنْ كنج » قائمة تدفع عن نفسها بأسوارها ، فجمع « جنكيز خان » قواته وضرب خيامه قريبًا من أسوارها ، وزيّن له رجالُه أن يشُنّ عليها غارة صادقة خاطفة لعلّها تذل له وتفتح له الأبواب قبل أن يحُل الخريف فيعوقَه حلولُه عن أن يفعَل شيئًا ، ولكن «جنكيز خان » نظر فإذا المرض يفتك بخيله وجنوده ، وإذا القوت قليلٌ والإنهاك قد غلب الرجال ، فلم يستطع أن يقوم بهجوم ، كما لم يستطع أن يثبت لإغراء المُتحمسين ، فاستدعى إليه كاتبَه وأملىَ عليه رسالة إلى الامبراطور يقول له فيها : « إنى راحل

عنك غير أنّى أشترط لـرحيلى أن تهْدى إلى قوادى وجُندى ما يُـرضيهم من الهدايا » .

وتصل تلـك الرسـالة إلى الامبراطـور فيجمع إليـه أمراءه ووزراءه يستشيرهم ، فـإذا هم يُشيرون على الامبرطـور بمواصلـه الحرب ضد «جنكيز خان » .

وكان لهؤلاء الأمراء ـ لا شك ـ رأيهم فيما أشارو به ، فلقد أيقنوا أن هذه الرسالة لا تكون إلا عن ضَعف ، وهم من قبل ذلك قد عَلموا أن الأمراض قـد فتكت بجنـد الخان وخيله ، ولكـن الامبراطور الهَلِـع لم يستجب لأمـرائه ولا لوزرائه وأمر بـإرسال الهدايا إلى « جنكيـز خان » من كل ما عَز وطاب من خيول صافنات ، ونساء فاتنات ، وأحمال من الذهـب والحرير ، وغلمان جاوزوا الخمسـائة عداً . وبعث مـع الهدايا برسالة إليه يفاتحه فى الهُدنة ويتعهد بألا يقاتل حليفًا له .

ويقبل « جنكيـز خان » مـا أهداه إليـه الامبراطور ، ولكنـه يَمضى فيطلب شيئًا آخر فـوق ما أُهدى إليه يعُدّه شرطًا لقبـول الهدنة ، وكان هذا الشئ الذى طلبـه عَروسا تُزف إليه من أسرة الامبراطـور لتوثّق ما بينه وبين الامبراطور من صلة . وبعث الامبراطور إلى الخان ما طلب ، عـروسـا يحُفها الحراس ومـن خلفهـا الهدايـا والإمـاء ، فضـم الخان العـروس إليـه ، وحمل كل مـا أهـدى إليـه وعـاد فى جيشه إلى رمـالـه المُحببّـة . غير أنه كـان قـاسيًـا كلّ القسـوة حين أمـر بـذبح كـل أسراه ليخلص من متاعبهم فى أراضيه القفـرة ، ولكن مثل هذا لا يقوم عُذرًا

يبرر به ما فعل ، إذ كان فى استطاعته أن يخلى سبيلهم ويتركهم لشأنهم . ولكن عُنف هذه الشدائد به ردَّه إلى طبعه الأول ، ذلك الطبع الحوشى الغليظ . والرجل المتحضر من لا ترده القسوة إلى قسوة، ولا يجرُّه العنف إلى عنف ، فيشتط ويجور شططًا لا يضبطه قلب ، وجورًا لا يمليه عقل .

ويترك امبراطور الصين عاصمة ملكه مُخَلِّفًا ابنًا من أبنائه ويمضى إلى الجنوب يتلمس الدّعة والراحة . وكان الشعب ضائقا بما فعل الامبراطور مع « جنكيز خان » حين لم يستمع إلى أمرائه ووزرائه ضاربًا برأيهم عُرض الحائط ، وحين نزل لـ« جنكيز خان » عما نزل له عنه . فما كان يعلم هذا الشعبُ برحيل الامبراطور عنه حتى ثار ثورته ، يُشارك الأهالى الجنود ، ويُشارك الجنود الضباط ، ويشارك الضباط الأمراء ، التفوا جميعًا حول ابن الامبراطور وأقسموا جميعًا ليحاربنّ وليدفعنّ عن أنفسهم وصمةَ ذلك العار الذى ألحقه بهم الامبراطور . وخرجت تلك الجموع المتدفقة عارية الرؤوس لا تأبه للمطر المنهمر ، لتَدُلّ الجالس على العرش على صدق عزمها وثباتها على ولائها له .

وانتهى إلى الامبراطور ما يدور فى العاصمةْ فأرسل إلى ابنه يدعوه إليه ، غير أن الأمراء حذَّروه مَغبّة هذه الدعوة ، وصمَّم الامبرطور ، ولم يجد الابن الصغير بُدًّا من أن ينفُض يده مما عاهد الشعبَ عليه ويستجيب لأبيه؛ فرحل يُشيّعه الخزى والعار . غير أن ذلك لم يصرف الشعب عن غضبه ولم يفُتّ فى عضده ، وخرج يبطش بكل ما هو

للمغول من أثر ، يريد أن يهيئ الأنفس لحربهم .

وانتهى إلى عيون « جنكيز خان » ما يدور فى العاصمة الصينية ، فأسرعوا يُنهون إليه ما رأوا وما سمعوا ، وكان عندها فى طريقه إلى وطنه فخفّ راجعًا وضرب خيامه على الحدود بالقرب من السور العظيم ينتظر الانباء . ويعرف « جنكيز خان » أن ابن الامبراطور مُتجه إلى الجنوب ، فيُنْفذ إليه جيشًا بقيادة ابنه « جوشى » ويتعقب الجيش الفارَّ ليأتى به أسيرًا . ثم يبعث « جنكيز خان » قائده « سابوتاى » فيجوس خلال الديار ويفتح « كوريا » ويخضعها لحكم المغول ، كما بعث « موهولى » إلى « ين كنج » للاستيلاء عليها ، وكان الأهالى فى يأس من أولياء أمرهم ، فخرجوا هاربين من مدينتهم وانضموا إلى الجيش الفاتح . وبينما كان القائد «موهولى » معسكرًا خارج المدينة بجيشه ومن انضم إليه لحق به «سابوتاى » ودخل الجيشان معًا المدينة فاتحين غازين ، يُعينهم على الفتح تلك الفَوضى التى مرَّ بنا شئ عنها ، والتى بلغت هنا مبلغًا خطيرًا . فيروون أن حراس القصر شاركوا الفاتحين فى النَّهب والسلب ، وكانت منهم عصابات تُغير على الممتلكات ، شأنهم فى ذلك شأن المغول الأعداء . وكم حاول القائد الصينى فى « ين كنج » أن يجمع الأمر بين يديه ويُعيد الأمن إلى نصابه لكى يملك دفة الأمور ويَقْوى على الدفاع فلم يُفلح أمام تلك الفَوضى السائدة ، ولم يجد له خلاصًا مما أحسّ به من ضيق نفسىّ غير أن يتجرّع السم ليخلُص من تلك الحياة التى عَصفت بقلبه ، وقَست على وجُدانه

وأهـدرت كرامتـه . ولقـد عَزَّ عليـه أن يرى بعينيـه بلـده « ين كنـج » تلتهمها النيران ويحُيط بأهلها الهلـع ، ويتخطف ساكنيها الموت ، وهو لا يملك لهم شيئًا ولا يَقوى على دفع « المغول » عنهم .

وهكذا أحرز « جنكيز خان » فى الصين نصراً بعد نصر دلّ على قدرة فـريدة وحنكـة فذة . لم تقـو تلـك الحضارة بعِلْمهـا وفنها وأسلحتهـا الحديثة وحصـونها المنيعة وبـارودها القـاتل ومجانيقهـا قاذفـة باللهـب والحَمم ، لم يَقْو هذا كله أن يقف فى سبيـل هذا الرجل البُدائى الهَمجى الجِلْف . ولكـن ذلك يُعزى أوّل مـا يعزْى إلى ما أصـاب الصينيين من دعَة ألهتهم عن الانتفاع بما أمدّتهم بـه هذه الحضارة ، ثم انقسامهم على أنفسهم، وليس شرٌّ من الانقسام على الشعوب .

وكان خَصمهم على بـداوته يجمع أسباب الوحدة وأسبـاب الطاعة وأسباب القـوة وأسباب الصبر والجلد ، وبهذا انهزمت الحضـارة أمام البداوة وانتصر « جنكيز خان » واندحرت الصين .

ثم عاد « جنكيز خان » بعد هذا الجهد الكبير إلى صحراء « الجوبى » تاركًا « مـوهولى » الحكيم يُدير دفَّـة الحكم فى ذلك القُطر الشـاسع من عـاصمته التـى تم فتحهـا على يديـه . وكان « جنكيـز خان » يعلـم أن إخضاع الصين كلهـا إخضاعًا تامـا يتطلب منه حروبًـا متصلة فى سنين طويلـة ، فمن أجـل ذلك رأى أن يستجـمّ شيئًا فى صحـرائه الفسيحة يـؤمِّن حـدوده ، وينظـر إلى الغـرب نظرةً كما نظـر إلى الشرق ، فيمـدّ حدوده هنا كما أمدّها هناك .

قره قرم

وما أخْلَدَ طـويلا « جنكيز خان » بين ربـوع الصين الشاسعة ، ولا استمالته حياة القصور البهجة ، ولا أغرته تلك المُدن العظيمة ببساتينها اليانعة وشوارعها الفسيحة ، ولا استنام لـذلك الرَّغد الواسع والترَّف المُسرف ، بـل سرُعان مـا حَنَّ إلى صحـرائه وقبابـه وأهله وعشيرتـه ، فخلّف ذلـك كله وراءه ــ كما مرَّ بنا ــ يقصد باديتـه بشمسها الـلافحة ورمالها السافية ، تاركًا الأمر لرجُله الحكيم العجوز « موهولى » يحكم تلك البلاد ، ومعه جيش من « المغول » يحمى كلمته ويحُوط حُكمه .

ومـا أُنسى « جنكيـز خان » طمـع القواد فى القـواد ، وثورة الجنـد برؤسائهم . مـن أجل ذلك أصدر أمره مشدَّدًا إلى هـذا الجيش بضُبّاطه أن يكونوا على الطاعة التامّة لخليفته وألاّ يَعْصوا له أمرًا وأن ينظروا إليه نظرتهم إلى الخان .

وترك « جنكيـز خان » الصين ليـؤوب إلى بلده ومـن حولـه رجال حاشيته ومـن خلفه خدمه ، وبين أيديهم العربـات تجُرُّها الثيران محمَّلة بكنـوز الصين العظيمـة ، ونفـائسهـا الـرائعـة ، وغَـلاَّتها العجيبـة ، وحريرهـا الزاهى ، ودمِقْسها الملون ؛ هذا إلى آلات دقيقـة وصناعات

محيرّة . ولقد حمل « جنكيز خان » مع هذا كله جملة من العُلماء وجملة من الصنَّاع ، يريد أن يفُيد بلده علْماً ويفيده صناعة ؛ ولكنه كان كغيره من الملوك ، حين تُكتب لهم الغَلبة والفوز لا يَنْسَوْن نصيبهم من الدنيا ، فساق « جنكيز خان » معه جملة من السبَايا الفاتنات .

وانتهى الرَّكب إلى « قره قرم » تلك المدينة العتيقة الخالدة التى كان «جنكيز خان» يظن أنه ليس بين المدائن شرقًا وغربًا ما يفوقها عظمةً ومجدًا ، فإذا هى تصغر فى عينيه حين طالعتْه مدنُ الصين ، ورأى ما بين تلك المدائن وهذه المدينة من بَوْن شاسع وفرق عظيم .

ويَعنُّ لنا أن نسأل : لمَ نَفَضَ « جنكيز خان » يده من حرب الصين ولمّا يتمَ له فتح مُدُنها كلهاَ ، ولمّا تخَرّ له حُصونها جميعا ؟ أتُراه قد هالته الحرب ، وهاله مافقد فيها من دماء ، ومابذل فيها من عناء ، وما استقبلته به من شدة ، وما تطلّبته منه من تضحيات ، فلقد قيل إن قَتْلاه فى تلك الحروب بينه وبين الصين أربَتْ على الملايين ؟ أم تُراه كان محاربًا كريماً يأبى عليه كرمُ نفسه أن يهُون بين يديه خَصْمه الهوانَ كلَّه ، فهو من أجل ذلك يُبقى على شىء من عزَّته وشىءٍ من كرامته ، لا يمضى فى الأمر إلى آخره ، وهو لهذا أبقى عَلى تلك البقية الباقية ولم يشأ أن يقضى عليها كلّها قضاءً مُبرمًا؟

وسواء أكانت الأولى أم الثانية فلقد كانت تلك حال « جنكيز خان » مع الصين ، فخرج عنها إلى « قره قرم » بتلك الخيرات الكثيرة التى بَدَّلت من عُسر الشعب المغولى يُسرًا ، وبدَّلت من حال مدينة « قره

قرم» ــ أو الرمال السوداء كما كـانوا يسمُّونها ــ القائمة وسط بحـر من الرمـال ، والتى تُشرْف بيوتها المسقـوفة بـأعواد القصب على طـرقات مُتعرِّجة ليس بينها طريق واحد مستقيم .

هكذا كـانت « قـره قرم » من قبـلُ جافية كـأهلها ، لا تبـدو عليها مسْحـة من تـرَف ولا مظهـر من نعيـم ، فإذا هـى بعـد أن عاد إليهـا «جنكيز خان » من غزوته إلى الصين محمَّلا بـأكداس من الهدايا الفاخرة قد ازدانـت وأخذت زُخرفها واطَّـرحت عنها قبابُ اللبَّـاد لتَستبدل بها قبابًا مُبَطَّنَـة بالحرير الموشَّى . وكـان للخان من بين تلك القبـاب قبابٌ خَاصة به ضَـمَّ فيها نساءه ممَّن سَبَا من الصين ومـن التَّتر ، قد أُرْخيت على أبـوابها وكُـوَّاتها ستـائر مـن المخَرَّمـات الـدقيقـة الصُّنـع الجميلَـة الزخرفة .

وهكذا جعل الخانُ من هذه المدينة النـاشئة عاصمةً لامبراطوريته ، وقد بقيت كـذلك حتى عهد حفيـده « قوبلاى خان » الـذى ولُد بها . وفى أيامه تبدلت حالها مـن ضَعة إلى رفعة ومن حقارة إلى مجد . أفادت ذلك مـن خِبرة هؤلاء الرجـال الذين كـان « جنكيز خان » قـد ولاّهم شئون الامبرَاطـورية من «الأويجور» و « الصينيين » . فلقـد استحدث هـؤلاء دُورًا خاصـة بالحكـومـة ، وأنشئوا لها السجـلات وأقامـوا لها الموظفين ، واصطنعوا نظامًا حكوميًّا بالـغ الدقة ، وهيئوا للخان خاتمًا يمضى به أوامره ، وكان يطبع به كل شئ حتى خيوله .

وكانـت عادة « جنكيز خـان » أن يُقيم فى كـل بلد يفتحه رجـلاً من

رجالها المخلصين له ليكـون عونًا للحاكـم الذى يختاره له مـن رجاله .
وإفساحًا منه للحُكام فى أن يحكموا ، لهم مـا له من عقاب وعفو ، كان يهب لكل منهم مـا كان يُسَمِّيه بقُرص النمر الذى يخوِّل للحـاكم الذى يهُدَى إليه العفوَ عن المجـرمين مهما بلغ جُرمهم . وكان يريـد بذلك أن يؤلِّف الناس حول وُلاته ، وأن يُتيح لوُلاته أن يملكوا رقاب الناس ، فنزل لهم عن شـىء كـان لـه وحده ليَخفِّف عن النَاس ويملك قلوبهم ويجمعهم على حُب حكّامه ، فيريح ويستريح .

وانفسحت الحياة لـ « قره قرم » فعَمرت بالأسواق التجارية ، ووفد إليها الـزوار من كل حَدَب وصَـوْب ، وانتعشت فيها الحيـاة الأدبية ، وأصبح للشعراء فيها أحياء ، كما أُقيمت فيهـا المساجد إلى جوار معابد البوذيين وكنائس المسيحيين النساطرة ، إذ كانـت حرية العبادة مكفولة للجميع حسبما مرّبنا فى « الياسة » .

وفى الحق لقد كان الامبراطور رجلاً يدين بالوحدانية ، يدين بالقوة المطلقة التى تسخِّر السحاب والرعد والهواء ، وعلى الرغم من أن شعبه كان يغالى فيـدَّعى أنه من سـلالة الآلهة وهى التى تنصره وتـؤيِّده ، فما نعلم أن «جنكيز خـان » استمع يومًا إلى مـا يقوله الشعب أو آمـن به ، فلقد كـان يقول إن فى السماء قـوة هى قـوة الشمس ، وإن على الأرض لقوةً هى قوة الخان . وسنرى فيما بعد كيف سمّاه المسلمون لما أكثر فيهم القتل ـ « نقمة الله » ، وكيف كان هو يؤيدهـم فى دعواهم ويذكر لهم أنه سوط الله ونقمته ، سلَّطها عليهم ليعذبهم بيده .

وكان لزامًا على أُولى الأمر فى « قره قـرم » أن تكون لهم صلة بالبلاد الأخرى، وكان لهم نظَام قديم بين قبائل « الجوبى » يَربط ما بينها أشبه بالنُّظم التى كـانت معروفة فى غيرها من الأمم ، فيستخـدمون الرُّسل تقطع المسافات على ظهور الجياد ، وكـان هذا النظام يسمى « اليام » ، غير أنه لم يكن معروفًا عند « المغول » إلا مع الحرب فتوسَّع فيه « جنكيز خان » وجعله وسيلة من وسائل السّلـم ، وجعل على كل رأس مرحلة معسكرًا قائماً به جملـة من الخيل ،وبه نفر من الغلمان لخدمتهـا ، ثم نفر من الفرسان لحراسة الطريق وحراسة الخيل ؛ وألحق بتلك المعسكرات مخازن للعلف ، ثم جعل إلى جانبها خيامًا لإيواء الناس.

ولقد وصف « ماركو بولو » الذى زار « كامبالو » بعد وفاة « جنكيز خان» شيئًا من هـذا فقال : « إن الراحلين عن كامبالـو » يجدون مُراحًا للخيـل على رأس كـل خمسة وعشريـن ميـلاً ، بـه نُـزل أنيق لإقـامـة المسافرين ، أُثِّثَتْ حُجراته بـأفخر الأثاث ، ومُدَّت فيه الأسرَّة المغطاة بالحرير الخالص ، ولو أن ملكًا أُتيح له أن ينزل فيه لأحسّ أنه نزل على مضْياف كريم أحسن لقاءه وأعدّ لاستقباله» .

وهكذا ربـط الخان بين جميع البـلاد لتعمير طرق القـوافل القـديمة ووصلها بعضهـا ببعض ، ثـم مضى « جنكيـز خان » فجعـل على كل مـدينة حـاكماً مسئولاً عـن أمنهـا ، مسئولا عـن الطرق المحيطـة بها ، مسئولا عن تعرُّف الزائرين والمارِّين ووجهتهم وأغراضهم وإحصاء ما يدخل إلى البلد من بضائع وما يخرج منها .

وكـان لمن يمـرّ بتلـك المعسكـرات التـى فى الطـرقـات الحق فى أن يستبدل بحصـانه حصانًـا ، إذ كان فى كـل مُراح ما يقـرب من أربعمائة جواد وقد تنقص قليلا ، وأن يتـزود منها بما يشاء على شريطة أن يكون حاملا ذلك الجواز الذى يبيح له ذلـك ، وهو « قرص الباز » فيما كانوا يسمُّونه .

أما هؤلاء الـذين كانوا يسعَوْن إلى الخان من السفـراء والزوّار فكان يرافقهم ضابط من الضباط ، على أن تتقدَّمهم كَوكبة تُؤذن المعسكرات بمقدمهم، ويمضى الزائرون فى تلك الممرّات الصحراوية قاصدين إلى مدينة الخان ، لاتقـع عيونهم إلا على بحار من رمـال ، وأراض جرداء لا نبات فيهـا ولا ماء إلى أن يَقربوا مـن مدينة الخان ، عندهـا تبدو لهم القباب وتقع عُيونهم على قطعان الماشية والمركبات المتراصة فوق السهل المنبَسط .

وما إن يبلغ الزائر هذا من طريقـه حتى يُسلمه مرافقه إلى آخر ، يمرُّ به هذا الرفيـق الجديد بين شُعلتين من نار قبل أن يدخـل به إلى المدينة . يفعل هذا «المغول » بزائريهم ، معتقدين أن من حمل منهم روحًا شرِّيرةً أحرقته النار ، فإن لم يحمل تلك الروح الشريرة مرَّ بسلام .

* * *

وحين يخرج الـزائر من تلـك المشاق يجد نفسـه فى ظـل مأوى مُعَـدّ لاستقبالـه، فيه ما شـاء من طعام وشراب ، وبعـد أن يأخذ حظَّـه من الراحة يمضى لِيْمثُل بين يدى الخان فى سرادقه الفاخر .

وهكذا أمَّن الخان الطرق من الغرب إلى الشرق ، ومن الشرق إلى الغرب ، فعبرها التجار آمنين ، يأخذون حظهم من راحة ويتزوّدون بها شاءوا لهم ولخيلهم . وأقام لهؤلاء التجار حراسًا يصحبونهم ويحفظونهم ، وكانوا يسمون « القراقجية » . فكان نظامًا بلغ من الدقة والروعة حدًّا يعجز الوصف عنه . وهكذا اتصل تجار الغرب «بالمغول» فنقلوا إليهم مع بضائعهم الحديث عن بلادهم ، كما استطاع « المغول » أن يجلبوا إلى بلادهم عَبرْ تلك الطرق ما كانوا يرغبون فيه .

كما أن تلك الطرق حققت للامبراطور أن تصله الأنباء من إقليم يبعد عنه مسيرة عشرة أيام فى يوم وليلة ، فلقد كان الفرسان الذين يعملون على ظهر هذا الطريق يقطعون ما بين مائتين وخمسين ميلا فى النهار وقريبًا منها بالليل ، إذ كان على الفارس ألاّ يمضى بالسرعة نفسها ليلاً . فلقد كان مضطرًّا للاستعانة بحَمَلة المشاعل . وكان الرسول يشُدّ وسطه بمنطقة عريضة تتدلىّ منها النواقيس فيُسمع صوته من بعيد ، وتتهيأ لاستقباله المحطة التالية فتعدّ له الجواد المُراح دون تلبُّث طويل ، وكان مع كل فارس قرص عليه رسم طائر السُّنْقر ، دليلا على أنه موفدٌ فى مهمة سريعة . وكان له الحق إذا ما كبا جواده أو عثر أن يأخذ أى جواد يجد دون نظر إلى صاحبه .

ولبثت تلك الطرق تزيد وتمتد ، كلما زادت فتوحات الغازى وامتدّت ، حتى إذا ما وصل الخان إلى « فارس » وبلاد « الكرج » اصطنع طريقين بريّين عَبرَ القارة الآسيوية ، أوّلها من البحر الأسود

مخترقًا شمال «تركستان » إلى صحراء « الجوبى » ومنها إلى الصين ، وثانيهما يمرُّ بمدينة « خوتان » فى جنوب « تركستان » يخترق « التُّبت » ومنها إلى «الصين » ، وقد فقدت تلك الطرق البرِّية ما لها من أهمية خلال الحروب المغولية فى غرب آسيا ، فلم تكن الطرق مأمونة بين الغرب والشرق ، وكان الاعتماد عندها على الطريق البحرى من «هرمز» إلى الهند ، ومنها إلى الشرق الأقصى .

وما من شك فى أن التجار المسلمين كان لهم فضلٌ فى إنعاش الفكر المغولى، وهم ينقلون التجارة من غرب آسيا إليهم ، فلقد نقلوا إليهم حديث المدن الأخرى، ووصفوا لهم عجائب الرحلات وغرائب الأسفار ، وتركوا بين أيديهم مع بضاعتهم من أسلحة وحلى وعاج ، الكثير من القصص المثير الذى فعل فى النفوس ما تفعله قصص « ألف ليلة وليلة » . وهكذا قرَّبت تلك الطرق بين تجار الفرس والعرب والأتراك وبين المغول يتبادلون التجارة ويتبادلون الأفكار ، وأصبحت « قره قرم » أشبه بخليَّة من النحل ، زحمةَ ناس ، ودقة نظام ، وكانت منار الامبراطورية قانونًا ونظامًا ، ثم منبع النشاط ومصدره .

* * *

وكان من بين من وقع للخان من الرجال فاستعان به وولاّه أكثر شئونه رجل من الصين كان من بين أمراء « لياو يانج » وكان من بين الأسرى الذين بعث بهم « موهولى » إلى الخان ، هو « يى لوتشوساى » الذى خدم أُسرة « الكين » . وكان رجلا نحيلاً طويلا كثَّ اللحية

عميق الصوت كبير العقل ؛ تحدَّث إليه الخان فارتاح إلى كلامه وسُرَّ برأيه فاصطفاه وولاَّه ألصق الأُمور به وجعله من رجال دولته المختارين . وقد أخلص هذا الرجل للخان كما أخلص لوطنه الأول «الصين» ، غير أن ضباط المغول لم يَرُقْهم رأىُ هذا الحكيم ولا تفكيره، فلقد كان على حظ من التدبُّر وكانوا على حظ من الطيش ؛ وكان ذا حكمة ورأى وكانوا قومًا أُمِّيين جُفاة غلاظًا . وكم سخروا من هذا الحكيم وهزئوا به فى حضرة الامبراطور . وحَدَث أن تحدث رجل منهم إلى الامبراطور قائلا : « أى نفع لنا مع رجل لا غناء عنده فى معمعة القتال ، وهو لا يعرف غير الكتاب ! » ؛ وهو يقصد هذا الحكيم . فأجابه هذا الحكيم قائلا : « وهل أُنسيت أن الدولة فى الحرب والسلم إنما يدبِّر أمرها الكُتَّاب ؟ » .

وما شغل « يى لوتشوساى » بالناس وما صرَفته سُخريتهم به بل مضى يجمع ويدرس . يرصد الأفلاك ، وينظر فى الأعشاب يعرف ما فيها من نفع طبِّى ، ويصف البلدان ، حتى إذا ما فارق دُنياه ظَنَّه «المغول» قد أثرى وأفحش فى الإثراء ، فإذا هم لا يقعون عنده إلاّ على كتب وأعشاب وأوراق .

* * *

وفى « قره قرم » استتبَّت أقدام أُسرة الخان فنمت وانتشرت ؛ وامتلأت الخيام بنساء الخان وأبنائه وبناته ، غير أنه لم يأنس إلا إلى أولاده من زوجه « بورتاى » فتعهَّدهم وأسلمهم إلى محاربين متميِّزين

ليَلقنـوا عنهـم فنـون الحرب ، وكـان كثيرًا ما يخلـو إليهـم فيـزوِّدهـم بنصائحه .

فولده « جوشى » وهو أكبر أبنائه مـن زوجه « بورتاى » على الرغم من الشـك فى صحة نسبـة إليه ، شَبَّ فى ظـل رعايتـه وكان مـن نسله «باتـو» مؤسـس الجيش الـذهبى الـذى سحق « الـروس » ووصل إلى «بولندا » . ثـم «شاطا جاى » الـذى امتاز بالعقل والفطنـة والرزانة ، وقد ولاّه أبـوه إمارة القانـون والعقار ، وكـان من نسله « بـابُور » أول امبراطور مغولى فى الهنـد. ثم «أجوتاى » رجـل المشورة الذى جمع بين عقل الحكيم وقلب المقاتل . ثم كان أصغرهم « تولى » الذى كان أثيرًا على قلب الخان ، ولقَّبه أمير الجيـوش وكان يصحبه دومًا . ومـن نسل «تولى» « قوبلاى خان » الذى رآه جـده يومًا ، فقال : « استمعوا إلى ما يقول هذا الصبّى وتدبَّروا قوله ، فهو لا ينطق إلا عن حكمة » . وحين حانت منيّة الخان ، وجلس إليه أولاده ليختـار من بينهم مَن يخلفه على العرش لم يكـن « جوشـى » حاضرًا بـل كان فى روسيـا ، وأرسل مَـن ينوب عنه معتـذرًا بمرضه ، وأحبَّ الخان أن يطمئن من الـرسول عن ابنه فـإذا هو يعلم أنـه غير مريض فغضب وثـار ، وفى ثورته حـرم ابنه «جوشى» من العرش ، وكان صاحبه .

ويعنينـا أن نصف لـك كيف كـان سرُادق الخان الخاص الذى كـان يستقبل فيه السفـراء والزائرين . لقد كـان مصنوعًا من اللبـد الأبيض المبطّن بالحرير الموشّى ، على مدخلـه من جهة مائدة ضمَّـت إلى اللحم

المجفّف واللبن فى أوْعيته صنوفًا من الفاكهـة ، ومن جهة أخرى منصَّة عالية عليهـا البُسُط والوسائد ، قد هُيِّئَـت لجلوس الخان ، وإلى أَسفل منهـا منصّة أخـرى تجلـس عليها « بـورتاى » أو غيرهـا مـن زوجاتـه وبـالقـرب مـن منصّـة الخان كـان يقــف الـوزراء ومـن بينهـم « يـى لوتشوسـاى » ؛ وقريبًا منه كـان يقف الكاتب يحمـل فرشة وقرطـاسًا مطويًا مُتهيئًا لتدوين ما يأمـر به الحاكم . وكما كان يفعل حكام الغرب فعل « جنكيـز خان » ، فخـصّ قائدًا من قُـوّاده ممن يثـق بهم أن يحمل كأسـه ،.وعلى جانبـى السرادق تمتد منصّـات جُعلت للنبـلاء ، كانـوا يجلسـون عليها صـامتين فى حُلاَّتهم الطـويلة ، وقـد تمنطقوا بـأحزمـة عريضـة رُصِّعت بالجواهـر ، وعلى رؤوسهم القـلانس المصنوعـة من اللبّاد الأبيض ، ومن خلف الأمراء والنبلاء يجلس الطارخانات ، وقد لَووا سيقـانهم تحت أفخاذهـم ، وجعلوا أكفَّهـم المُثْخنة بـالجراح فوق أفخاذهم ، ومن خلفهم يقف قادة الفرَق الحربية يحملون أعلامهم .

فى هـذا السرادق يجتمعون ، وعلى هـذا النحـو يجلسون ، يعـرض عليهـم الخان ما يـريد مـن أمر ، يـأخذون ويُعطـون فى صوت هْـادئ خَفيـض ، حتى إذا مـا نطـق الخان كـان قولُـه الفصـل فـاستمعوا لـه مستجيبين .



مخطوطة جامع التواريخ . جنكيز خان جالسا على عرشه ومن حوله حاشيته . دار الكتب القومية بباريس . هراة . من العصر التيموزى (١٤٢٥) .

نحو الغرب

ولقد مرّ بنا مـا فعل « جنكيز خان » بقبائل « النايمان» قبـل خُروجه لغـزو «الصين » ، وكيف شتّـت شملهـم وأبـاد جمعهم ، وكيـف فـرّ زعماؤهم أمامه وتفرقوا فى البلاد . وكُتب لزعيم من هؤلاء الزعماء هو « كشلو خان» أن يأوى إلى بلاد «الخطـاى » السوداء وأن يُفسح له خان « الخطاى» فى جـواره . وتمضى الأيام فإذا « كشلـو » قد اجتمع لـه نفر من مؤيـديه ، وإذا هو قد استمال إليه قبائل ، وإذا هـو خانٌ على هؤلاء وهؤلاء . ومـا إن استقامت لـه الحال وثبتَ سلطـانه حتى مـدّ يده إلى «علاء الديـن » خان «خوارزم» يحالفـه ، وكانت « خـوارزم » تقع إلى الغرب من بلاد «الخطاى » .

ما رعى « كشلو » ما أسدى إليه خان « الخطاى » من معروف ولا ما لَقيـه بـه من تـرحيـب ، وحين قـوى عُوده كـان أول الخارجين عليـه الساعين إلى حَربـه ؛ وكان الظن به غير هذا ، وكـان الظن بهذا الحلف الذى تمّ له مع ملك «خوارزم » أن يكـون نواة للثأر ممن نكّل به وأذاقه مُرّ العـذاب وشتّت شمل آله ، ألا وهـو « جنكيز خان » . ولكنـه كان حلفًا أُريد به النيل من خان «الخطاى» ليمهّـد به السبيل أمامه كى يحكم

بلاد « الخطاى » السوداء ، ويكون له السلطان الكامل عليها .

وأحسّ « غور » خان « الخطاى » بغدر صديقه فسعى هو الآخر سَعيه يُفسد عليه ما دبّر . فأرسل يطلب إلى « علاء الدين » خان « خوارزم » أن ينفُض يده من حلفه مع « كشلو » وأن ينضم إليه ليكونا معًا حربًا على «كشلو». وكان خان « خوارزم » ماكرًا أحبّ أن يأمن جانب الاثنين ، وألاّ يُقحم نفسه فى شر ، وألاّ يعرِّض جيشه لعطب . من أجل ذلك لم ينفُض يده من حلف « كشلو » ولكنه مدّها ليحالف خان « الخطاى » . يريد بذلك أن يَكون مع هذا ومع ذاك ، حتى إذا ما ثارت الحرب بينهما تربَّص بهما يرقُب ما سيكون ، فإذا ما رجحت كفَّةٌ كفَّةً انحاز إلى الكفّة الراجحة ، فيكون بذلك قد آمن الشر الذى أراد أن يأمنه وحقّق لنفسه شيئًا من غُنم ، إن كان ثمّة غُنمَ .

وكان ما قد قدَّره « علاء الدين » ، فلقد وقعت الحرب بين الخانين ، خان « الخطاى » السوادء و « كشلو » ، وحين تمكن «كشلو» من هزيمة جيوش « الخطاى » السوداء أو كاد انضمّ إليه « علاء الدين » يتعجل النصر ، ويتعجل القضاء على جيوش «الخطاى » السوداء . وانتهت المعركة بانتصار «كشلو » وقهر « غور » خان «الخطاى » السوداء . وبذلك انفسح المجال أمام « كشلو » ليعلو عرش « الخطاى » السوداء ويصبح مَلكًا عليها ، يحكم تلك الرقعة الواسعة التى تُتاخم أرض خصمه القديم « جنكيز خان » من الشرق ، وأرض « علاء الدين » من الغرب .

والنصر يُغرى بنصر ، والناس - إلا القليل منهم - إن مَلكوا ذكروا أحقادهم القديمة فتهيَّئوا للانتقام . وكان « كشلو » تنطوى نفسه على حقد قديم لـ « جنكيز خان » ، ولقد أصبح قويًّا ذا سلطان يَملك أن ينتقم ، ويملك أن يفعل شيئًا يُرضى نفسه الحاقدة ؛ وهاهو ذا يقف لخصمه وجهًا لوجه ، ليس بعيدًا عنه فيفوِّت عليه النَّيْلَ منه ، ولكنه قريب منه يغريه هذا القُرب بأن يفعل شيئًا . وهكذا راح « كشلو » يؤلِّب على « جنكيز خان » قبائل «المركيت » التى لم تكن قلوبها معه ، تظهر له غير ما تضمر ، يضمها إليه الخوف منه ، وتودّ لو هان فخرجت عليه ؛ لذلك كانت استجابتهم لـ «كشلو» هينة ، طمعًا منهم فى أن ينالوا بها ما يَصْبون إليه .

وما وقف « كشلو » عند هذه فإذا هو يأسر خان « الماليك » ويذبحه ، وقبيلة « الماليك » من القبائل التى تحت سلطان « المغول » والاعتداء عليهم اعتداءٌ على المغول . ثم مضى يثير على « المغول » قبائل أخرى غير قبيلة «المركيت » ممن يظن بهم ضعفًا ، وممن يظن بهم خوفًا ، وممن يراهم بمنأى عن نفوذ «جنكيز خان » ، وكان من بين تلك القبائل قبائل «الأويجور» .

وانتهى إلى « جنكيز خان » فى « قره قوم » ما كان من « كشلو » ، فأعدَّ لذلك جيشه وخرج ذلك الجيش ليلقى « كشلو » . وطالعت جيوش «جنكيز خان » جيوش « كشلو » ، ولكنها لم تشأ أن تدهمها فى أرضها فتمكّن لها الاحتماء بمواقعها المنيعة ، وتمكّن لها من الانتفاع

بإمداداتها التى بين يديها ، بل لقد احتالت عليها ليخرج بها عن أرضها وعن إمداداتها ، فانسحبت أمامها تجرُّهاوراءها ، حتى إذا ما أبعدت بها بعيدًا عن أرضها كرَّت عليها كرَّة عنيفة ، تُعمل فيها الحراب وتُعمل فيها السيوف حتى أفنَتْها عن آخرها . غير أن « كشلو » استطاع أن ينجو واستطاع أن يفرّ . وما كان هَمُّ «جنكيز خان » أن ينال من الجند ولكن كان همُّه أن ينال من « كشلو » وأن يظفر به . من أجل ذلك أرسل قائده « شيبه نويون » فى إثر « كشلو » الفار يريده حيًّا أو ميتا .

ومن قبل هذه فرَّ « كشلو » عن أهله وبلده واستطاع أن يجمع الناس حوله ، وأن يكون ذا دولة ، والظروف التى قد هيأت له هذا من قبل قد تهيئه له اليوم ، ولن يعدم « كشلو » مُعينًا ما دامت قلوب نفر من الناس معه . وما بقاؤه مختفيا بين العشائر بالأمر اليسير عليه ولا بالعسير على تلك العشائر ، وليس باليسير على « شيبه نويون » أن يجده إذا أخفاه الناس ، وما هى بالحرب فيواجه « شيبه نويون » خصمه ويدبر للقضاء عليه ، ولكنها شئ آخر أشقُّ من الحرب تتطلب من «شيبه نويون » الدخول إلى البيوت والنفوذ إلى العشائر ، وليس هذا بالهينّ إن لم يجد من الناس العَون الصادق عليه ، وأنَّى له بهذا العون الصادق .

ولكن شيئًا وقع مهّد السبيل أمام « شيبه نويون » إلى ما يريد . لقد كان «كشلو » بوذيًّا وكانت زوجه مسيحية . وكان « كشلو » يجدُّ فى نشر البوذية والتمكين لها ، على حين كانت زوجه تجدُّ فى نشر المسيحية

والتمكين لها ، لا ينجو مـن ذلك مسلم أو غير مسلم ، فضـاق الناس بأمـر كشلو وبـأمر زوجـه ، وليس شيء كـالمساس بـالديـن والمساس بالعقيدة يؤذى النفـوس وتضيق به . وأحسّ « شيبه نويـون » ما يعانى الناس من ضيق وما هم فيه مـن حرج، وكان كمولاه « جنكيز خان » يؤمـن بالحرية الدينيـة ويرى غيرها نُكـرًا ومحنة تُشيع الفوضـى وتُبلبل العقول وتزلزل الحكم على الحاكم . وهـو يحب كمولاه أن يرى الرّعية آمنةً فيسهـل عليه قيادهـا ، وأن يراها وادعـة فتنتظم له شئـونها . من أجل ذلك أتاح لها حريتها الدينية ، فاجتمعت عليه القلوب وانصرفت عن « كشلو » ترى أنها لو أيّدته أيَّدت مـا يُرهقهم به ، وما هى براضية عنه فانقلب المُخْفُون لـ « كشلو » عيونًا على « كشلو » ؛ وإذا هو فى يوم وليلة أسير ، وإذا هو قد وقع فى قبضة « شيبه نويون » . وما كاد «شيبه نويون » يقع عليه حتى قتله وأرسل برأسه إلى « جنكيز خان » فى موكب حافل قوَامـه ألف فارس على جياد من طراز واحـد ، كـل جـواد منها ذو أنـفَ أبيـض . وهكـذا أصبحـت « الخطـاى » السـوداء فى حـوزة «المغول» .

* * *

وما نسـى « جنكيز خـان » لمن خرج عليه مـن القبائل خـروجهم ، فبعث بالجيوش إلى مَن خرج منهم ليردّه إلى حوزته . وكان من بين هذه القبائل مَـن خرج عـن خوف فـرجع إليـه عن خـوف فلم يلـق كيدًا ، ومنهم من خرج عن ضعف فانصاع إليه عن رضى لم ينل أذى ، ولكن

كانـت ثمة قبائل خـرجت وهـى تقصد إلى هذا الخروج ، وهـى قبائل «المركيت » فأرسل إليهم « جنكيز خـان » قائده « سابوتاى » على رأس جيش كبير لتأديبهـم . وخرج «سابوتاى» فى عشر آلاف مـن الفرسان إلى « المركيت » ، وما كان «المركيت» ، يقـوون لجيش « سابـوتاى » ، ولا يستطيعون عن أنفسهـم دفعًا ، وما كان لهم ماض طيـب يردون به عن أنفسهـم شر الانتقام . من أجل ذلـك ذاقُوا بلاء شديـدا ، وذاقوا ويلاً كبيرًا ، ولقنوا درسًا لم يَنسوه .

وحين تمَّ للمغول حكم « الخطاى » السوداء أصبح لهم ولاء القبائل التركيـة البربريـة التى تنـزل الهضـاب ما بين التُّبَّـت وسهول روسيـا ، وانضم رجالها إلى جيش المغول فازداد بهم عددًا وقوة ، وغدا « المغول» وفى يدهم توازن القوى فى آسيا .

* * *

ومضى رجال « جنكيـز خان » يلقّنون الناس شريعتهـم التى تمليها «الياسة» ليجمعوهم معهـم على رأى واحد ولون واحد واتجاه واحد ، لا يَنُون ولا يفـرِّطون حتى لا يصبح النـاس أشتاتًا تفرِّق بينهـم الأهواء وتفرق بينهـم القوانين . واستتبَّ الأمـر للامبراطـورية المغوليـة الفتيّة التى تمتدُّ حدودها إلى حدود الامبراطـورية الخوارزمية الناشئة ، جوارٌ كـان لابدَّ معـه مـن صـدام ، فلكلٍّ مـن الـدولتين آمـال ، ولكل مـن الدولتين أطماع ، ولابدّ لإحداهما من أن تُملى على الأخرى .

ولكننا قبل أن نسوق لك ما وقع بين هاتين الدولتين نعود بك إلى الوراء قليلا لنُحدّثك حديث « خوارزم شاه » ، وكيف أُتيح له أن ينشئ امبراطوريته فى الغرب من آسيا ، وما كان يطمع فيه من بَسْط سلطانه على ربوع آسيا من الشرق إلى الغرب .

لقد تعرضت الدولة العباسية فى أيامها الأخيرة لمحنة من المحن القاسية التى فتّت فى عَضُدها ثم ذهبت بريحها فيما بعد . فلقد كانت الصلة بين الولاة والخلفاء صلةً تكاد أن تكون مقطوعة . كان الخلفاء لاهين منغمسين فى تَرَفهم وملذّاتهم ، حَسْبُهم من الولاة ما يرسلون به من مال كانوا يجودون به أول الأمر ليشتروا رضى الخليفة ، وإنْ أنس واحد منهم فى نفسه القوة بعد ذلك منع عن الخليفة ما كان يرسله واستقلّ بالأمر دونه . وقد يرسل إليه الخليفة الجيش لتأديبه وقد ينال الخليفه منه ، ولكن إلى حين ، إذ سرعان ما كانت تؤول الولاية إلى غيره ممن هو على شاكلته فينهج نهج سلفه ، يغريه انشغال الخليفة عنه ، ويغريه ضعفه عن أن يهُبّ لحربه . وهكذا عاشت الدولة العباسية فى حروب داخلية مستمرة مستعرة ، لا أمن ولا طمأنينة ، مشغولة بتلك الحَزازات وتلك الانقسامات وتلك الحروب الداخلية عن أن تهيئ لنفسها وعن أن تمكّن لسلطانها ، أضعف ما تكون عن أن تواجه حربًا خارجية ، وعن أن تستعد لفتح جديد . فكان للخليفة من الخلافة اسمها لا يحمل غيره .

وتتابعت دويلات تحكم باسمها مستقلة عن الدولة العباسية ، كان

منهـا الدولـة السلجـوقية ، وحين انحلَّـت تلـك الـدولة نشـأت على أنقاضهـا دويلات أخـرى ، أولاها بالـذكر الـدولة الخوار زميـة التى تضرب إلى أصل تركى . أسَّس تلك الدولة الخوار زمية « بوشتكين » ، وكان أول أمره حاكماً للسلاجقة على هذا الإقليم ، يحمل لقب خوارزم شاه لقَّبـه به سلطان «السلاجقـة» وحين أنس فى نفسه القـوة وأنس في سادتـه الضعف ، خـرج عليهم مع الخارجين ، شـأنه شـأن ولاة ذلك العهد .

وما خلص ذلك المُلك لـ « بوشتكين » هيّنًـا سهلاً ، بل لقد كان له خصوم وأعـداء ، وكان على رأس هـؤلاء الخصوم والأعـداء الدولـة السلجوقية نفسهـا على الرغم مما كـانت تعانى مـن ضعف وانحلال ، ولقـد مكَّن هـذا الضعف لـ «بوشتكين » مـن أن يطمع فى أن يستقـل بولايته أولاً ، ومكّـن له هذا الضعف أيضًا مـن أن يحُالف « الخطاى » السوداء للقضاء على تلك الدولة السلجوقية المحتضرة .

ويـؤول أمر « خـوارزم » إلى « تكش » فتكـون لـه مع « الخطـاى » السوداء حروب يخرج منها عـام ١١٩٧ وقد استولى على « بُخارَى » . ويرث الملك من بعد « تكش » ابنه « عـلاء الدين محمد » ، الذى مرَّ بنا شئٌ عنه . فلقد عرفنا كيف أعان علاء الدين « كشلو » على « الخطاى» السوداء ، وكيف تـمَّ لـ «كشلو » الاستئثار بالمُلك ، ثـم قتله على يدى «شيبه نويون » .

وكان هناك فرق بين سياسة الأب وسياسة الابن ، فكان الأب يرى

التحالف مع الدولة الغورية * وممالأة الخلافة العباسية ، وكان الابن لا يرى هذا ولا ذاك . ولكن الأب قبل هـذا كان قد كفى ابنه شراً كبيراً . ففى أيامه كانت للإسماعيلية ثـورة بزعامة رجلهم « حسن الصباح » . فقضـى الأب «تكش » على تلـك الثورة ، وحـاصر قلعة الإسماعيليـة المنيعة ، وأرغم الإسماعيليين على الخضـوع له وأن يدفعوا لـه مائة ألف دينار .

ولكن الابـن « علاء الـدين » قد ورث عـن أبيه عبئًـا ثقيلاً وتـركة محوطة بالمصـاعب ، فلقد كانت الـدولة تسودها الفوضـى الداخلية ، والـدولـة الغوريـة على الحدود تنـاوئهـا وتثير القـلاقل مـن حـولها ، والخلافة العباسية تسعى سَعيها لتقضـى على تلك الدولة النـاشئة . فما هى إلاّ أيـام حتى هـبَّ «شهاب الـدين » الملـك الغورى فضـم إقليم «خراسان » إلى ملكه ، ولكن «علاء الدين» سرعان ما أعدَّ جيشه وشنَّ الحرب على « شهاب الدين » ، فـآستردَّ «خراسان » ، وأمعن فى أملاك الدولة الغورية فضمَّ إليـه مدينَتَى «بَلْخ» و«هَراة » ثم إقليمى « كرمان و«مكران» . ومضى فى غـزوه إلى ساحل المحيط الهنـدى وإلى الأقاليم التـى تقع إلى غـرب « السنـد » ، وإذا هو يشرف على مـدينـة «غَزْنـة» حاضرة الدولة الغورية ويحاصرها ، ولا تمكـث المدينة طويلا حتى تقع

---

* سلالـة إسلامية خلفـت الغزنويين انتسبـت إلى بلاد غور فى أفغـانستان غلبتها سـلالة خوارزم شاه .

فى يديه عام ١٢١٥ ، ثم أستمر فى فتوحه فضمَّ إليه كابُل .

وتقع فى يد « علاء الدين » كتب كَان الخليفة العباسى الناصر قد بعث بها إلى حكام الدولة الغورية يثيرهم إلى الاتحاد مع « الخطاى » السوداء ليكونوا حربًا على « علاء الدين » ، فحرّك هذا فى نفسه رغبته القديمة فى الاستيلاء على « بغداد » ومضى يشقُّ طريقه إليها مستوليًا على « فارس » و«أذربيجان » و « العراق العجمى » ولكنه ما كان يبلغ «بغداد » حتى ثارت الطبيعة وأرغمته على أن يعود أدراجه .

كان هذا هو غاية ما وصلت إليه امبراطورية « خوارزم » ، فقد كانت حدودها تمتدُّ من « العراق العجمى » غربًا إلى حدود الهند شرقًا، ومن شمالى بحرى « قزوين » و « آرال » شمالاً إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبًا .

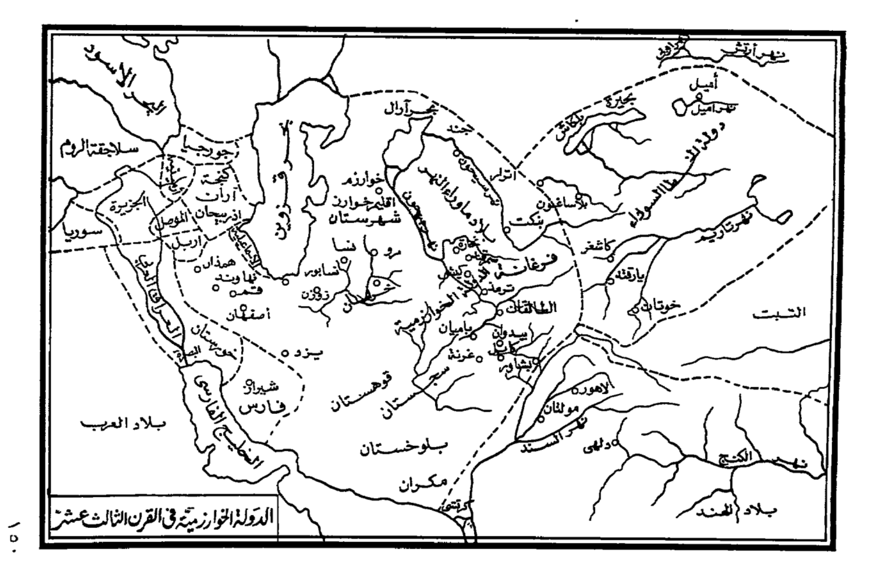
وفى تلك الرقعة الفسيحة كُتب للعلم والفكر الإسلامى أن ينبثق ويشيع ، وكُتب للمدنية والحضارة أن تزدهر وتتألق فتلفت إليها العالم كله . لقد خضع لسلطان « خوارزم » كل من حولها ، وكُتبت لها السيادة فى ذلك المكان من غرب آسيا . وكان يسيراً على « خوارزم» فتح « بغداد » ودخول العالم الإسلامى بأسره تحت رايتها ، لولا أن الطبيعة قَسَتْ على تلك الجيوش الفاتحة فردَّتها عن أبواب « بغداد » متعثرة .

* * *

ولـو أتيـــح لنـا أن نـوازن بين امبراطـــوريـة وامبراطـــوريـة ؛ بين امبراطوريـة الخان المغولى الـوثنى وبين امبراطـورية الشـاه الخوارزمى المسلم ، لـوجدنـا الأمر يتبايـن جليًّا فى نظمهـم السيـاسية وأسـاليبهم الحربية ومكوّنات شعوبهم .

فلقد أقام الخان المغولى امبراطـوريته العظيمة فى الشرق معتمداً على سلطان الجيش الذى درَّبه وجهَّزه ، ثم على « الياسة » التى ضمّنها تلك المبادئ العامـة والخاصة ، والتى كان لها أثـر فى جمع الناس على نظام أو شبه نظام ، ثـم على ما كان يتمتع بـه الخان من بطش وجبروت وإرادة وعزيمة وحكمة وتدبّر . فى ظل هذه القوى الثلاث ـ الجيش و«الياسة» والامبراطور ـ عاشـت تلك الـدولة المغـوليـة ، تَرهـب ذلك الجيـش فتنصاع خائفة وجلة ، وتنظر إلى تلـك القوانين والمبادئ التى تضمنتها «الياسـة » وتضمنت معها العقـوبات المفروضـة الصارمة على كـل من يخالف أمـرها ، فتلتزم تلـك المبادئ وتلـك التعاليم لا تحيـد عنها ولا تفكـر فى الخروج عليها ، ثـم تتطلع إلى الامبراطـور فى عزمـه وحزمـه ودهائه ثم آماله وأمانيه ، فترهبه لشـىء وترغب فيه لشىء ؛ ترهبه لهذا العزم وذلك الحزم وذلك الدهاء ، وترغب فيه لما يمتلئ به قلبه من آمال لأمته وأمانىّ لبنى جلدته .

وعلى قدر مـا أعَطى « جنكيـز خان » لجيشه أفـاد منه ، فلقـد نظّمه فأحســن تنظيمه ، وأخـذه بالتـدريب القـاسى ، يخرج بـه كل عـام مع الصيـف إلى الفيافى فى سير طـويـل مُضـنٍ على طرق غير مستـويـة بين



الدولة الخوارزمية في القرن الثالث عشر

منخفضات ومرتفعات يقضون فترة طويلة فى تدريبات عنيفة شديدة . وألزمه بالطاعة لا يخرج أحدهم على أمره ، وأجزل له العطاء وأباح له ما يسلب وما ينهب . عاش أكثر ما عاش هذا الجيش فى البرارى بين الحيوان المفترس فى صراع دائم ، فقَست طبيعة النفوس وغلظت الأكباد وتوحّشت الغرائز . ولم يعش هذا الجيش وراء الأسوار والجدران فترقّ طبيعته وتلين أكباده وتلطف غرائزه .

وهكذا خلق « جنكيز خان » جيشًا يُلقى الرعب فى القلوب ، ويبعث الفزع فى النفوس ، حيثما حلّ حمل على جناحيه النِّقمة ، وحيثما نزل نزل البطش والدمار . هال الناسَ حديثُ هذا الجيش فظنّوا قُوَّته فى كثرة عدده ، وأطلقوا الأعنة لخيالهم فجعلوه عدد الحصى والرمال . وما ملَكَ « جنكيز خان» غير مائتين وخمسين ألفًا من الفرسان ؛ فعل بهم ما فعل ، فيما بين الصين والدنيبر ، من عجب عجيب .

وما كان « جنكيز خان» يستطيع أن يجنِّد من أمة « الجوبى » ، التى لم يزد عددها عن المليون والنصف ، جيشًا يضم أكثر مما ضَم ممن بهم قوة على حمل السلاح وجَلَد على خوض غمار الحرب . ولو كان يملك هذا العدد الكبير كما خال المتخيّلون ما وكَل إلى الصبيان أن يقوموا برعاية الخيل على محطات الطرق ، وما ألزم غيرهم من الصبيان ممن شبُّوا قليلا أن يشاركوا فى القتال . فهذا وذاك يدلُّك على أن جيش الخان لم يبلغ هذا العدد الذى تخيَّله المتخيلون، وأنه لم يكن بين يديه من يكفى لتكوين مثل هذا الجيش الكبير .

ولكن « جنكيز خان » جعل من هذا الجيش القليل جيشًا يبدو كبيراً بتنظيمه له فى فرق تنتشر هنا وهناك ، تملأ الأرض فتتراءى وكأنها جمٌّ غفير ، فجعلَ منه فرقة للحرس الامبراطورى قوامها عشرة آلاف فارس ، وجعل فى القلب فرقة قوامها مائة ألف وجعل ابنه « تولى » رئيسًا عليها ، وجعل للجيش جناحين ، أيمن وقوامه سبعة وأربعون ألفًا ، وجناحًا أيسر وقوامه اثنان وخمسون ألفًا . وبعد هذا فلقد كانت البقية الباقية من الجيش ــ وعددها تسعة وعشرون ألفًا ــ أخلاطًا من مقاتلى « الصين » و«الأويجور» و« المماليك » من « الخطاى السوداء » .

ولسوف نرى « جنكيز خان » يضرب الدولة الخوارزمية ، ويضرب غيرها من الدويلات الخاضعة للدولة العباسية ، بجيش كان قوامه دون ما ذكروا بكثير . فنحن نعلم أن « جنكيز خان » كان قد تخلَّى عمّن فى جيشه من « الأويجور » و « المماليك » قبل أن يمضى إلى تلك الحروب خوفًا من أن ينقلبوا عليه ، أو أن يضارّوه فى حربه بثورة أوعصيان ، أو أن يمالئوا عليه عدوّه فيصبحوا عونًا له عليه .

ومن هنا نستطيع أن نعزو هذا الذى كُتب لقوات « جنكيز خان » من نصر وغلبة إلى تلك الروح العالية ، وإلى ذلك التدريب المتميز ، وإلى تلك المهارة الفائقة ، وإلى تلك الحنكة المكتسبة ؛ إلى هذه الأشياء كلها التى شاعت فى الجيش كله جندًا وقادة . لقد كانوا يجيدون حركة الالتفاف «التولوغما» وكان على ذلك اعتمادهم ، يُطبقون على العدو فإذا هم قد أخذوه من خلفه . وإذا لم يفلح القائد فى الالتفاف بعدوّه

انسحب أمامــه يجرّه وراءه ممعنًا فى البيداء ، فإذا مـا اطمأن إلى أن عدوّه قد ظـن به الضعف وظنـه يفرّ ، فأُنسـى نفسه شيئًا ، انقـضّ عليه على حين غفلة وفى سرعة مفاجئة ، فقضى عليه وأباده .

ولا يظنن ظانٌّ أن هذا كله كان يتمُّ فى يُسر يسير ، فلقد كان «جنكيز خان» قبـل أن يخرج لغزوة ما يجمـع إليه « الكورلتـاى » ، ويحضر هذا «الكورلتاى » الحكـام والنواب والأمراء ، لا يتخلف منهــم أحد سواء منهم القاصى والـدانى . فإذا ما انعقد هذا المجلـس أخذ يدرس الأمر من جميع نـواحيه ، فيُدْلى كلٌّ بـرأيه ، والخان من ورائهم جميعًـا يعقِّب على الرأى ، يـدفع رأيًـا ويأخـذ رأيًا ، حتـى إذا ما انتهـوا إلى شىء ، انتهوا إليه مدروسًا بكل ما يضمن له النجاح ، ثم يُوكَل إلى كلٍّ ما يقوم به .

ومـن قبل ذلـك يستأنـس « الكورلتـاى » بما انتهى إليـه من أخبـار الجواسيس والعيون ، الذين كانـوا بين تجار جاسوا خلال أرض العدو يتظاهرون بالبيع والشراء ، وهمّهم تعرُّف ما عند الأعداء ، وبين فارّين من أرض العـدوّ ناقمين على حُكـامه . غير أن « الكـورلتاى » كـان لا يـأخذ بقـول هؤلاء وهـؤلاء قضيةً مسلّمـة ، بل كـان يقلِّبه على جميـع وجوهه ليعرف صحيحه من زيفه .

وبعد هذا وذاك ، فلقد كان « جنكيز خان » يفيد من حربه لخصمه ، يعرف ما عنـده من أساليب فى الـدفاع والهجوم ، ويعـرف مــا عــنده مـن حيلـة ومكـر ، ويعـرف مـا عنـده مـن سلاح وعــتاد . حـارب

«جنكيز خان» الصين فأفـاد من مَناعة حصونها ، ومقاومـة جيوشها ، وشاهد ما لهم مـن مدافع ذات مرمى بعيد ومَن حـولها من رجال مَهَرة يـرمون بقـذائفهـا ، فضم هـذا إلى جيشـه ، وجعـل من فِـرَقـه فرقـة للمدفعيـة قوامهـا عشرة آلاف من المقـاتلين كلهم مـن الصينيين وعلى رأسهم قـائد صينى. سـارع « جنكيز خان » بـإدخال هـذا التنظيم إلى جيشه، لا يريد أن يمهل نفسه فيفوت التدريب رجاله . وكان إلى تلك الفرقة اختيار أماكن الرمى ، وإعـداد المجانيق وإطلاقها . وكانت تلك المجانيق لا تُنقل إلى ميادين الحرب كاملـة ، بل كانت تنقل إليها أجزاء لتركّب فى المواقـع المختارة ، حتى إذا مـا انتهت الحرب فُكَّـت لتُحمل مجزأةً إلى حيث تُخزن .

وكما أفـاد الخان مـن الصين هـذه الأشيـاء عنهـم فى الحرب ، أفـاد غيرَها عنهم فى السّلـم . أفاد من علمهم وطبّهم ونقل معـه فى خروجه عنهم جملة من الأطبـاء ؛ وكان من عادة المغول إذا مرض أحـدهـم ركز أمام قبتـه رمحًا ، فإذا ما رآه الطبيب سعـى إلى علاجه ، كما أفـاد عنهم نظام الإدارة فجلب موظفين مختصين ليلقّنَ عنهم « المغول » .

وحارب جنكيـز خان « خوارزم » فـأفاد من أسلـوبها فى التسليح ، فـإذا هو ينشـئ فرقتـه العاصفـة التى جعـل بعضهم الفضـل الأوّل فى إنشائها إلى القادة الألمان فى القرن العشرين . فلقد درّع « جنكيز خان » الخيل بالجلد المقّـوى ، وجعل لكل فارس قوسين ، قوسًـا يستخدمها وهو راكـب وقوسًا له وهـو راجل . وجعل له جُعبتين للسهـام تضم

كلتاهما أنواعًا ثلاثة من السهام ، منها ما هو للمسافات القريبة ، ومنها ما هـو للمسافـات البعيدة ، ومنهـا ما هـو للمسافـات التى بين بين ، يرجـع الفارس إلى الجعبة الثانيـة حين تنفد سهام الجعبـة الأولى . وكان على رأس كل فارس خوذة من الصلب لها ذيل ممتد على العنق لتحميه . هذا إلى درع قـوية مكينة تحميـه سهام الأعـداء . وكان كل فـارس من فرسـان الوحـدات الثقيلة مـزودًا ببَلطة شُـدَّت إلى منطقة فى وسطـه ، وبحبل فى طـرفه أُنشوطة لجرّ العـربات وآلات الحصار ، وبكيـس فيه علـف جواده ، وبـوعاء يستخـدمـه الفارس لطعـامه ، وبمبرد لسَـنِّ الرمـاح والسهام . وكان الفـارس يضع سلاحـه كلّه فى قربـة مستطيلة تكـون لهذا الغرض ولغـرض آخر ، فـإذا ما اضطُـرَّ لعبور نهر نفخهـا واتخذها وسيلة للعبور . وبعد هذا فقد كان كل فارس يحمل معه طعامًا للطوارئ مـن لحم قديـد ولبن خـاثر أو مجفـف ، يعوزه قليـل من الماء ليعود مع التسخين لبنًا سـائغًا . وكانت لكل قائد الحريـة أثناء القتال ، غير أنه كان مُلزمًا بالاتصال بالخان عن طريق الرسل أو الإشارات .

هذا هو الخان ، وهذا هو جيشه الـذى غزا البلاد الإسلامية ، فهدم حصونها وقتل رجالها وهتك نساءها وقذف الرعب فى قلوب أهلها .

* * *

ولنترك الخان وجيشه لنعود إلى « خوارزم » فلقد كـانت لمّا تزل بعدُ فتيَّةً حين اتجه المغول إليهـا غازين . كان النـزاع فيها قائماً بين السلطتين الدينيـة والدنيـوية ، وعمـل أهل « خـوارزم » على أن يكسبوا الخليفـة

العباسى إلى جانبهم ليكسبوا تأييده الدينى فيكسبوا دنياهم ، وكان من حول السلطان وزراء بيدهم تصريف الأمور .

ولما كانت أيام «علاء الدين» ، وكان لا يثق بوزرائه ، أقام مجلسًا من كبار رجال الدولة للنظر فى شئونها ، على ألاّ يقضى فى أمر إلاّ إذا أجمعوا عليه . ثم جعل لكل غرض ديوانًا ؛ فكان للمال ديوان ، وللإنشاء ديوان ، وللجيش ديوان . وكان إلى هذا الديوان الأخير أمر الجيش وإمداده بالسلاح والذخيرة ، وكان هذا شيئًا يفارق به الجيش المغولى الجيش الخوارزمى . وثمة فرق آخر بين الجيشين ، فلقد كان للمغول جيش نظامى ثابت ، على حين لم يكن للخوارزميين جيش نظامى ثابت . غير أن الذى لا شك فيه أن سلاح الجيش الخوارزمى كان يفوق سلاح الجيش المغولى . فلقد كانت سيوفهم طويلة مقوّسة من صُلب متين ، وكانت سهامهم أقوى وكذلك أقواسهم . وكانت لهم مجانيق ترمى باللهب ، وقاذفات للحجارة الثقيلة ، وكانت لهم مهارة وحذق فى استخدام القار والزيت بعد إشعاله . غير أنه لم تكن بين هذه الجيوش الخوارزمية رابطة ، ولم تجتمع على أمل أو هدف ، تتباين فرَقها وتختلف طباعها وتتفرق لهجاتها وتتغاير أمزجتها وأهواؤها . من أجل ذلك فقد سلاطين « خوارزم » ثقتهم بجيوشهم ولم يطمئنوا إليها ، فأحاطوا أنفسهم بحرس خاص .

وكان هؤلاء القوم حديثى عهد بالإسلام ، فلم يبلغ الدين أن يؤلف بين قلوبهم وأهوائهم ، وكان كل فرد منهم يغلبه تعصُّبه لجنسه

على تعصُّبه لدينه ، فالفارسى يريد أن تكون له الكلمة على العربى ، والتركى يريد أن يذلّ له الفارسى ، والعربى يرى نفسه أولى بسيادة هؤلاء جميعًا . وهكذا تعرضت الدولة لفتن داخلية أفلتَ الزمام فيها من أيدى الحكام ، ولم يجدوا الجيوش تغنيهم ، فأقاموا الأبراج والقلاع ، وبَنَوْا قصورهم من وراء تلك الأبراج وهذه القلاع ليكونوا أشد أمنًا ، وجعلوا فيها المخازن ومساكن الجنود . وهكذا قنع الخوارزميون بأن يكون لهم جيش دفاع لا جيش هجوم ، على الرغم مما كانت لهذا الجيش من أسلحة مستحدثة ، ولكنهم على هذا لم يستطيعوا أن يصمدوا لهجمات الجيش المغولى المهاجم . وإمعانًا فى حرص الخلفاء على أنفسهم جعلوا لأنفسهم قلاعًا مختلفة فى مدن مختلفة ، فقلعة فى «مرو» ، وقلعة فى «سمرقند» وقلعة فى «خوارزم» . وتلك الحياة الحربية الوادعة صحبتها حياة للسلم وادعة ، أسرف فيها الخلفاء على أنفسهم وانغمسوا فى ترف واسع وغرقوا فى مباهج ذات ألوان .

وكان نظام الحكم عند الخوارزميين وراثيًّا رعاه الخلفاء قبل «علاء الدين» ، فلما آل إليه جعله لابنه الأصغر «أزلاغ شاه» متخطيًا ابنه الأكبر «جلال الدين منكبرتى» تغريه بذلك أم ابنه الأصغر «تركان خاتون» ، غير أنه عندما أحسّ الموت عاد فأوصى بالخلافة لابنه «جلال الدين» .

ولقد مرّ بنا كيف أقصى «علاء الدين» الوزراء وأقام مكانهم مجلسًا من كبار رجال الدولة . ولك أن تعلم أن «خاتون» زوج «علاء

الديـن» كانـت تركيـة وأنها أقحمت فى هـذا المجلس كثيراً مـن رجالها الأتراك ، فـأفسد هؤلاء الأتـراك الحكم على الخوارزميين فاضطـربت أحوالهم .

وبهذا مهّدت هذه الدولة الفتيّـة الناشئة السبيل إلى زوالها ، ولم يكد يشرف عليهـا « جنكيز خـان » بجيوشـه حتى انهارت حصـونها أمامـه وتمزقت وأصبحـت وكأنها لم تكن ، وذلك بما ملكـت مع مولدهـا من أسباب للفناء ومع نشأتها من بذور للهلاك .

مبعث الشـّـر

لقد رأينا كيف كانت نشـأة الدولتين الخوارزمية والمغولية ، كلتاهما اعتمدت على قـوتها الحربية تزيـد فيها وتهيئ لها علّها تستطيع يـومًا أن تخضع ما حولها وتضم الشعوب المجـاورة إليها . وانفسح الطريق أمام «المغول » فضمّوا إليهـم « الخطاى » السوداء كما رأيت ، وباتـوا بعدها يُتاخمون الـدولة الخوارزمية لا يفصـل بينهما شئ . واجهت قُـوة قوة ، وجاورت دولـة فتية طامحة دولـة أخرى فتيـة طامحة ، فكان لا بُـد من صـدام بين تلـك القـوتين ، خسر فيـه « المغـول » شيئًـا ، وخسر فيـه «الخوارزميون » شيئًـا ، وكان لا بُد مـن أن يجرّ هذا الصـدام إلى حرب عاتية تُكتب لإحداهما فيها الغلبة ، ولكن «جنكيز خان » كان فى شغل شاغل بحربه مع الصين ، ولم يشأ أن يفتح على نفسه بابين من الحرب ، فمال إلى أن يهادن الدولة الخوارزميـة ، وأرسل إلى الشاه رسالـة تفيض وُدًّا وتفيـض أُنسًا ، يَعنينـى أن أقتطف لـك منها شيئًـا ، فهى سـوف تـدلّك على مـا كـان لخوارزم مـن شأن ، حسبنـا عنـه أن أقـرّ به خـان المغـول، كما تـدلنا على خُلـق المحـاربين ونَهجهـم ، فهم كما يـؤمنـون بالبطش حين يـأمنون العاقبة ، يمَيلون إلى السلم حين لا يـأمنون تلك

العاقبة . على هـذا النحو جاءت رسالة الخان إلى الشاه يقـول له فيها :
«ما غاب عنى ما بلغتَ من شأن ، وما أدركت من سلطان ، لك الملك المبسوط ، والحكـم النافـذ ، تدين بـه لك أقاليـم شتى ، ولقـد رأيت مسالمتك واجبًا من بين الواجبات ، إذ أراك بمنزلة أعز أبنائى إلىّ ، ولا إخالك تجهل أنى قد ملكت الصين وبسطت سلطانى على ما وراءها من بلاد الترك ، أذعنـت لى قبائلهم ، ودانـت لى عشائرهم ، وإنـك لتعلم أنى أملك أرضًا تموج بالجند وبها معدن الفضة ، فإن رأيت أن نصل ما بين البلدين ونفتح الطريق أمـام التجار يختلفون إلى هنا إلى هناك ، عَمّ النفع بلَدْينا وشاع الغُنم».

وهكذا أعطـى « جنكيز خـان » للشاه حقـه من الإجـلال والإكبار ليستيمله إليـه ، لكنه لم يشـأ أن يهمل نفسه فـأحبّ أن يَـدل الشاهَ على شأنه ، مـن أجل ذلك أعطى للشاه صـورة صادقة عن قـوته وبطشه ، ليُكبره الشاه كما أكبره هو ، وليكـون الأمر بينهما ما بين ندٍّ ونـد ، لا ما بين رجـل كبير ورجل صغير . وحمّل الخان تلـك الـرسالـة ثـلاثة مـن التجار المسلمين ، وحمّلهم معهـا جملة من الهدايا والعطـور ، وشيئًا من سبائك الفضة ، وشيئًـا من الأحجار الكريمة . وكان وصـول الرسل مع أوبة « علاء الـدين » من « بغداد » فاشلا . ولم يكـن رجوع « علاء الدين » من « بغداد » رجوع المنهـزم فيذل ويهون ، ولكنه كان قد رأى الأمـور فى يديـه وأباهـا عليـه القَدَر ، فلـم يهُن ولم يذل ، وعـاد يحُسّ إحسـاس المنتصر ويستشعر شعـور المغلـوب على أمـره ، فيزيـده هـذا

الشعور الثانى اعتزازًا بنفسه وثورةً على القَدَر الذى حال بينه وبين ما يريد . وإذا ثار الإنسان على القَدر ملأته هذه الثورة ضيقًا بما حوله وقُنوطًا وهمًّا . من أجل ذلك ما كادت رسالة « جنكيز خان» تقع فى يد «علاء الدين » حتى نظر إليها بعَيْنى ثورته وغضبه لا بعَيْنى رضاه واطمئنانه ، فرآه شرًّا ما رآه « جنكيز خان» خيرا ، وعزَّ عليه أن يخاطبه المغولى فيُسمّيه ولده ، ورآه لونا من التهديد ما ذكره المغولى من إخضاعه للأتراك ، وما كان « علاء الدين » بعيدًا عن الأتراك نسبًا وأصلا .

والتفت «علاء الدين » إلى تاجر من التجار الثلاثة الذين حملوا الرسالة إليه يستوضحه مبلغ ما وصلت إليه قوة « جنكيز خان» وما وصف به نفسه ، فعْلَ الرجل الذى قضى فى أمره وقَضى أن يحارب خصمه فهو يستوثق قبل أن يُقدم . وما كذب التاجر الشاه ولا أراد أن يغرِّر به ، فلقد وصف الخانَ وما يملك ، لم يَغْل ولم يَنقْص . و لكنه على هذا أحس الغضب فى عينى «علاء الدين» ، وهكذا الملوك مهما كانوا ، وعلى أية حال وُجدوا ، لا يرون فى الدنيا خيراً منهم ، ويُغضبهم أن يسمعوا أن فى الدنيا من هو خير منهم ، لهذا يعيشون ـ إلا القليل منهم ـ مخدوعين ، ويموتون مخدوعين ، تَصْلَىَ أُممهم بخداعهم أحياء وأمواتا . وما إن أحس التاجر غضبة « علاء الدين » حتى عدل عن الصدق إلى الكذب ، وعن الحق إلى الباطل ، فهوَّن من شأن المغولى ورفع من شأن الخوارزمى ، تهوينًا كاد يذهب فيه بكُل ما

للمغول ، ورفعةً كادت تجاوز الحد عن الخوارزميين . ولكن «علاء الدين » على هذا لم يكن بالغُرِّ ولم يكن بالغافل ، فلقد أرضى هذا نفسه ولكنه لم يُرض عقله ، ورأى الأمر سوف يُكلفه شيئًا إن هو ترك للغضب أن يملك زمامه ، فأذعن للخان فيما طلب ، وكانت بينهما مُعاهدة تُظل التِّجارة والتجار بالأمن والطمأنينة ، يَغْدون ويروحون على الطريق بين «خوار زم » وبلاد المغول » فى حراسة الحراس .

وعلى حين كانت الأمور تجرى صفوًا طيِّبة رخيَّة ناعمة بين المغول والمسلمين فى « خوار رزم » ، كانت تجرى عاصفة عاتية عكرة قاسية بين المسلمين فى « خوار زم « والمسلمين فى « بغداد » . لم يقو الشاه على الخليفة العباسى ، ولم يقو الخليفة العباسى على الشاه ، وكان للشاه أمل فى أن يعود فينتصر ، ولم يكن للخليفة أمل فى أن يعود فينتصر ، من أجل ذلك لم يفكر الشاه فى أن يحالف على الخليفة ، ومن أجل ذلك فكر الخليفة فى أن يحالف على الشاه ، وإذا يد الخليفة العباسى تمتدّ إلى المغولى يريد أن يجعل منه حليفًا على الشاه .

وأخذ الخليفة يدبّر لأمره ، فهو لا يستطيع أن يرسل إلى المغولى إلا إذا اجتاز الرسول « خوار زم » ، وما أخوفَ الخليفة فى أن يقع الرسول فى يد الشاه ومن أن يفتضح أمره فتفسُد عليه خطته ويضيع عليه تدبيره . ولكن الحكام إذا أرادوا لم يَعْيَوا ، وإذا أعملوا فكرهم لم تَفُتْهم الحيلة ، فأرسل الخليفة إلى رجل من رجاله المُخلصين له وأعمل المُوسى فى شعره فأزاله ، وخطّ على جلد رأسه رسالته ثم ترك شَعره لينمو ،

فكسا الشعرُ الرسالة ولم يعد يظهر منها شيء . عند ذلك أرسل الخليفة رسوله إلى الخان ، واخترق الرسول « خوارزم» دون أن تنكشف له حال ، وبلغ الخان آمنًا ، وكان هذا الرسول قد أُلزم بحفظ الرسالة فحفظها عن ظهر قلب ، وتلاها على الخان ، وكان الخان يشكُّ في أمره فأمر بأن يُحلق شعره فبان له صدقه حين وجد ما خُطّ على جلدة رأسه هو ما تلاه بلسانه . ولكن الخان لم يُرد أن يستجيب إلى الخليفة ، واكتفى بأنْ عَلِمَ من أمر الخليفة وأمر العالم الإسلامي شيئًا ، فأرجأ انضمامه إلى الخليفة وأرجأ إقحام نفسه في تلك الحرب بين المسلمين إلى حين قدّره في نفسه ليدرس ما حوله ، فإذا أقدم أقدم عن بيّنة وخبرة .

ويَفِد إلى بلاد الخان ثلاثة من التجار المسلمين يحملون بضاعة ثمينة ، ويعلم علم هذه البضاعة الثمينة الحافظون للطرق ، ويرون أنها بالخان جديرة ، فحملوا التجار ببضاعتهم إليه . ويسأل الخان واحدًا من هؤلاء التجار عن ثمن ما في يديه من بضاعة ، فيجيب هذا التاجر ، وقد أنسى شيئين ؛ أنسى أن « المغول » على بصر بالتجارة يكادون يقدرون الأشياء قدرها لا تختلُّ في تقديرهم الأثمان ، وأُنسى أنَّ أبغض شيء إلى الخان أن يساومه إنسان على تجارة . أُنسى هذا التاجر هذين وأخذ يغلو في تقدير بضاعته ويفرض لها ثمنًا يجاوز الخيال ، فثارت ثورة الخان وأباح بضاعة هذا التاجر لرجاله ينهبوبها كما يشاءون ، وأمر فأُلقِيَ بالرجل في السجن .

ومَثل بين يدي الخان زميلاه ـــ أعني التاجرين الآخرين ـ وكان قد

انتهى إليهما مـا حلَّ بزميلهما ، فَفطنا لأمـرهما وعرضا مـا يملكان على الخان هـدية . والهدايـا تفعل فى النفـوس فعلهـا ، تَعمرهـا بالأنـس ، وتقرِّب مـا بينها ، وتزيل الـوحشة بين أصحابها . وهكـذا سُرَّ الخان بالهدايا . والملوك حين تُؤنسهم بالهدايا تجُرُّهم إلى أن يبذلوا أضعافها ، فهم لا يـرضَون أن يكونوا أصغـر من المُهدين . وهكـذا عوّض الخان هذين التاجرين أضعافًا مضاعفة عماَّ قدّما . فكال لهما من الفضة كيلاً ، ورضى عنهما رضىً جرّه إلى العفو عن صاحبهما .

وعاش هـؤلاء التجار الثلاثة فى معسكـر المغولى راضين مطمئنين، حتى إذا حان حين رحيلهم ، أمر الخان فُنودى فى الناس بأن يبعث كُل أمير من دولته رجلا وكـل قائد من قواده جنديا ، يحملـون جميعًا سلعًا مغولية إلى غرب آسيا ، ليستبدلـوا بها غيرها مما يُعرض فى أسواق تلك البلاد . وأرسل مـع هؤلاء التجار رسالة إلى « علاء الـدين » ، يصف فيها له ما لقى هؤلاء التجار من أمن فى ظل الخان ، ويذكر له أنه أرسل فى معيته رجـالا من عنـده ببضاعـة مغوليـة ليحملوا عـوضًا عنهـا إليه بضاعـة خُوارزميـة . وكما بدأ الخان رسالتـه إلى « علاء الـدين » يـذكر الأمن الذى لقيه التجار المسلمون ختم رسالته طامعًا فى أن يلقى التجار المغوليون أمنًا مثله ، ليتأكد ما بين البلدين من حلف تجارى ، ويقضى على كل ما من شأنه أن يفرّق بينهما ، أو أن يدع مجالا للفُرقة .

وبلغت القـافلة مدينة « أوتـرار » على نهر « سيحون » وكان قـوامها أربعمائه وخمسين رجلا ومعهم خمسمائة جمل . ورأى القافلة أميرُ المدينة

«ينال » وكان قريبًا من أقرباء السلطان « علاء الدين » ، فهاله الأمر وظنها جيشًا غازيًا ، وكان يؤكد له ذلك ما رآه فى إثرها من جند مسلحين . فخفّ يكتب إلى الشاه ما هو فاعل . وسرعان ما ردّ عليه الشاه « علاء الدين » دون أن يتروّى ودون أن يتدبّر ، يأمره بمصادرة ما معهم وقتلهم جميعًا .

وكأنّى بهذا الأمير لم يقل الحق فى كتابه إلى الشاه ، وكأنى به لا عهد له بمثل هذه القوافل التجارية ، وكأنى به لا يعلم ما بين الخان والشاه من حلف تجارى ، وكأنى به حين هاله الأمر خرج عن وعيه فوصف غير ما بين يديه . وما أظن « علاء الدين » مهما بلغ به الشطط ، ويلغ به النَّزَقُ ، ويلغ به الغضب ، يخرج عن حلف معقود دون مبرر ، ويقسو على الناس تلك القسوة دون إعذار أو إنذار .

ولكننى أعود فأقول : لعل « علاء الدين » ، ولعل ذلك الأمير من قبله ، كانا يعلمان ما للخان من سابقات فى التجسس ، يستعين فيها بإرسال التجار والجند عيونًا له يسبقوه إلى تلك البلاد التى يريد أن يغزوها ، وما أظنّ الأمير وما أظن « علاء الدين » غاب عنهما ما فعل الخان فى الصين من قبل من شىء كهذا .

من أجل ذلك اشتطّ الأمير فأنهى إلى الشاه الخبر كما كان على حقيقته ، نافذًا إلى باطنه غير مخدوع بمظاهره . ومن أجل ذلك استشاط الشاه غضبًا ، فأنهى إلى الأمير ما أنهى غاضبًا ، يرى الحق معه ، ويرى أنه إن أبطأ فى الخلاص من هؤلاء فتح على نفسه بابًا من الشر قد لا يستطيع غلقه .

ويبلغ « جنكيز خان » ما فعل الشاه برجاله فيَغضب ويَهيج ويخلق من الباطل حقًّا ، ويجعل من تلك السابقة ـ التى هو فيها ملوم ـ حليفَه ملوما ، وكأنه قد عزَّ عليه أن يخفق فى وسيلته تلك فيَقلق . وكان إذا قلق صَعد فى الجبل ونزع عنه قَلنسوته وعلّق نطاقه فى عُنقه ، واتجه إلى خالق السماء ومُرسل السحب والرياح يسأله النصر على عدوّه الخُوارزمى هذه المرة .

هذا شىء كان يفعله الخان ، وسواءً أكان يصدر منه عن زَيف أو عن إيمان فقد ملك أن يحرّك به قلوب الناس معه ، وقد جرَّبوه من قبل يدعو إله السماء فيَستجيب له إله السماء . ويحكُون أن الخان استقر على الجبل ثلاثة أيام لا يبرح ، صامتًا لا يتكلم . ويحكون أنه فى الليلة الثالثة رأى فيما يرى النائم شَبحًا فى جلباب أسود وبيمينه عصًا يُشير بها إليه وهو يقول : لا تخْش شيئًا فإنى ناصرك .

وهبَّ الخان من نومه فزعًا ، يخالجه شىء من خوف ، ويخالجه شىء من فرح ، واختار رجلاً من المسلمين جعله رسوله إلى الشاه ، وأرسل معه رجلين من « المغول » ، وقد حمّل ذلك الرسول رسالة إلى «علاء الدين » يقول له فيها :

« لقد تنكّرتَ لحلفك ، ونقضت ما خطّت يمينك ، وإنها لكبيرة على الحليف أن يفعلَها ، فما بالك إذا كان ذلك الحليف مُسلما ، وإنْ عزَّ لك أن تزعم أن ما فعله الأمير « بنال » كان عن غير أمر منك ، فسلّم إلينا الأمير تَسْلم ، وخلّ بينى وبينه أجْزِه بالذى فعل ، حقْنا

للدماء أن تُراق ، وتسكينًا للنفوس أن تثور ، وإلا فآذن بحَرْب تذهب بالرخيص والغال وتترك بلادك وما عليها عرضة للسلب والنهب والخراب » .

وكان الأمير « ينال » يمُتُّ بصلة القربى إلى أُمّ الشاه « تركان خاتون» وهى تركية ـ كما مرّ بك ـ وكان لها نفوذ يصغر معه نفوذ الشاه ، وكان الأمر أمرها والنهى نهيها ؛ من أجل ذلك لم يستطع الشاه أن يُسلم الأمير «ينال » إلى الخان فيخالف أمر أمه ، بل لقد غلا الشاه فقتل الرسول المسلم ، وأمر بالمغوليّين فحُلقت لحاهُما وشُهِّر بهما .

ومن فعل هذا كان عليه أن يستعد لحربَ ، لهذا ما نفض الشاه يده مما فعل برُسل المغولى حتى أخذ يحشد الجيوش ويقيم الحصون ويَبنى الأسوار حول المدن ، ثم جمع إليه رجاله ممن لهم بالحرب خِبرة ، فأخذ يناقشهم ليرَوا معه الرأى النافع والخطة السليمة .

وعاد المغوليّان إلى الخان على حال يُرثى لها ، فحزّ فى نفسه ما رأى من شأنهما ، وقصّ المغوليان على الخان ما كان من أمر الشاه وما رأيا ، فازداد غضبًا وعزم على أن ينتقم من الشاه ، وألا يدع الشاه يعبث برجاله وبرُسله هذا العبث المهين . وكما عوّدنا الخان أن يفعل ، سبق فبعث عُيونه والكاشفين يَسبقون الجنود ويجوسون خلال الجبال ، يتعرّفون الطرق ويتحسّسون الأخبار .

وأحسّ الشاه ما بدأ به الخان ، فأرسل هو الآخر عيونه يتعرفون أخبار جيوش « المغول » . وهكذا سبقت الحرب نُذرها وبدت فى

الأفق رُعودها ، ولم يبق إلاّ أن ينْشب القتال وترُاق الدماء ويأخذ الرجال بأعناق الرجال ، حتى تُكتب لأحدهما الغلبة على الآخر .

ومن هنا جرّت حادثة « أوترار » على المسلمين الخطوب الفادحة والكوارث البالغة ، حتى لقد قيل : « لقد ضحّى المسلمون عن كل قطرة من دماء أولئك « المغول » بسيل من الدماء ، وتقاضى « المغول » عن كل شَعرة فى رءوس هؤلاء التجار أضعافها مضاعفة من أرواح المسلمين » .

صراع الطبيعة

وهكذا صحَّ عزم الخان أن ينتقم من الشاه ، وأن يُلقى عليه درسًا لا ينساه ، فأرسل يجمع إليه الحكام والأمراء الذين يخشى منهم الغدر ويخشاهم على مملكته فى غَيبته ، فطلب إليهم أن يخرجوا معه وأن ينضموا إليه فى حرب الشاه ، ونظر الخان فإذا قوّاته لا تزيد عن المائة ألف . فأرسل يدعو قوّاده أن يلقوه بجيوشهم على ضفة من ضفاف تلك الأنهار التى إلى الجنوب الغربى من صحراء « جوبى » حيث السهول المنبسطة والمراعى الممتدة ، فخفّوا إليها يسوقون بين أيديهم قطعانًا لا تُعدّ ولا تُحصى ليتركوها فى تلك السهول وعلى تلك المراعى فصل الصيف الخصيب فَتسمن وتكبر ، وأمر فخرجت النساء بالخيام ينصبنها لاستقبال المحاربين ، ولتكون مثوى لمن يفَدُ عليهن من القواد ليلا .

واجتمع إليه قواده فى مؤتمر عام ودرسوا الخطط ووضعوا الوسائل وأعدّوا ما هم فى حاجة إليه لمثل تل الغزوة . وخرج الخان على جواده الأبيض وفى قلنسوته ريشات من ريش النسر ، مُتمنطقًا بمنطقة عريضة مرصّعة بالذهب ، يلبس حُلة من الجلد ذات فراء أسود وأكمام

طويلة ، ومرَّ يستعرض جنده . وكان أحرص ما يكون حين يخرج لحرب ، على أن يتفقد الجياد بعُدَّتها ، ويتفقد الأسلحة كلها ، فلقد كان محاربًا يَعرف أن الفارس بجواده وعُدّته ، فإذا هو فقد جواده من تحته ولم يصلُح له سلاحه الذى فوق كتفه لم يُغن فى الحرب شيئًا .

وما إن استعرض الجند حتى وقف فى وسط الساحة وقد اصطف الجنود صفوفًا فى سُكون ، وإذا هو يصيح فيهم : سنسير معًا لنكيل لخصمنا الصاع بالصاع ، ولنعاقبه على ما فَرط منه فى حقنا ، ولنَنتقم لمن قُتل من رجالنا ، وستكونون شركائى فى السرّاء والضرّاء ، واعلموا أنه لا نَصر لجند إلا مع الطاعة ، وإلا مع النظام ، فَلْيُطعْ الجندىُّ قائدَه ، وليُطع القائدُ أميرَه ، واعلموا أن جزاء من قَصَّر الموت ، ليس له وحده ، وبل لنسائه وأولاده .

* * *

وإن نظرة إلى خريطة آسيا وإلى ذلك اللون البُنىّ القاتم الذى يُظل تلك البقعة ، لتدلّ على ما يقوم فوق هذه الأرض من جبال شاهقة وما يفترش أرضها من هضاب وتلال . وأرضٌ هذا شأنها لكفيلةٌ بأن تعوق الجيوش وتقوم حاجزًا منيعًا فى سبيلها ، تفوّت تقدُّمها وتمكّن لنفسها من أن تَنال منها . هذا إلى أن طبيعتها المحلة وأرضها المُجدبة ونضوب المياه فيها أمر آخر له خَطره على الجيوش .

لذلك كان لزامًا على الخان أن يتدبّر أمره بين تلك الجبال ووسط تلك المتاهات ، وأن يعرف أى سبيل هو مُخترق وأية أرض سوف

يَدوسها ، فلقد كان لزامًا عليه وعلى جنده أن يقطعوا تلك المرحلة من غرب بحيرة « بيقول » إلى بلاد « فارس » ، صاعدين فى الجبال مرة هابطين إلى السفوح أخرى ، ضاربين فى الوديان مجتازين المضايق خائضين فى الأخاديد والأخوار ، سابحين فى الأنهار . وهكذا ضُرب على هذا الجيش المغولى بهذه الحرب رحلة من أقسى الرحلات وأشقِّها ، إنْ قَوِى على الجوع لم يَقْو على السير ، وإن قوى على السير لم يَقْو على الريح العاتية والبرد القارس الذى تجمد معه الأطراف ، ولا يستطيع الإنسان معه حركة .

ما غاب عن الخان هذا كله . ولقد دبّر لهذا كله ، وكان ذا عزم لا يثنيه عنه إلا الموت ، عَزم الرجل البُدائى الذى لا يملك فى ثورته عقله ولا وُجدانه ولا قلبه ، ويَمضى هائجًا هيجان الوحش المفترس لا يَردُّه عن قصده إلا أن يموت أو يُميت . دَعك من إيمان « جنكيز خان » بنفسه وإيمانه بقوة جُنده ، فلقد كان هذا الإيمان وذاك شيئًا تَنطوى عليه النفوس ، ويجرى به الدم ، وينبض به القلب ، فإذا صاحبه قد أنسى نفسه وأنسى الموت الذى يستقبله ، وذكر شيئًا واحدًا هو أنه لا بد أن ينتصر .

ويهلُّ الفجر ، ومع إهلال الفجر كانت تحركات « المغول » . فَدقَّت الطبول ، واندفعت بين أيديهم قطعان الماشية ، تلك القطعان التى لا تقع تحت حصر ولا يشملها عدٌّ ، والتى شبّت وترعرعت ونَمَتْ فى تلك المراعى الخصبة ، وأصبحت وكأنها جيش يسبق جيشًا ، من

ورائها سار المقاتلون فى مركباتهم وعلى دوابهم .

ومضى ذلك الزحف فى سيره يلقى عناء بعد عناء ويبذل جهداً بعد جهد، يَصعد ويهبط . وكان الشتاء قد حلّ وكست الثلوج الأرض ، وبدت من تحت أرجلهم بيضاء ناصعة ، الشيء الذى اضطرّ القوم إلى أن يستبدلوا بمركباتهم زاحفات تَنقلهم فوق تلك الأرض الجليدية وكنت تستطيع أن تتعرف مسار القوم على تلك الصفحة الجليدية بما يخلّفون وراءهم من عظام على منعرجات الطريق .

صعد « جوشى » بفرقته فى جبال « تيان شاه » كما صعد « شيبه نويون» ، كلاهما قد بلغ القمة التى تناطح السماء ، ثم هبطا منحدرين نحو الجنوب يسلكان بجيوشهما الطريق الشمالى الرئيسى المُفْضى إلى بلاد الشاه ؛ على حين بقيت القوات الأخرى من الجيوش المغولية تزحف وئيدة ، تخوض الأغوار وتجتاز البحيرات المُتجمدة إلى أن بلغت بوابة « سنجريان » أو بوابة الريح ـ كما كانوا يسمونها ـ وهناك هبّت عليهم رياح عاصفة عاتية فنفقت الماشية . وكان الجيش من قبل ذلك قد استنفد الكثير مما يملك من طعام ، واستنفد الكثير مما يحمل من علف الدواب . فلم تقو بعدُ على أن تجرّ المركبات ، فاضطروا إلى ترك تلك المركبات فى الطرق ؛ وخلّوا بينها وبين الخيل ؛ ولكن الخيل على هذا قد أصيبت بالإعياء من قلة الغذاء . وكان البرد يصيب حوافرها بالعَطب ؛ فكانوا يلفُّون تلك الحوافر بسيور من الجلد لوقايتها ؛ وحين فرغ الزاد ولم يبق مع القوم ما يتبلغون به كان الرجل منهم يفزع إلى

جواده فيقطع شريـانًا من شرايينه ليمتص شيئًـا من دمه ، يدفـع بذلك عن نفســه شيئًا من غـائلة الجوع وشيئًا مـن حر العطش . وهكـذا كاد البرد وكـاد الجوع لهؤلاء الجنود كيـدًا عظيما ؛ وقسَت عليهـم الأرض وعنفت بهم الجبال . فكـانت رحلة من أشق الرحـلات لا تقوى عليها الجيـوش ؛ ولكن قـد قـوى عليها جيـش « المغـول » وصَمد لصعـابها كلها ؛ وتلقّى شدائدها جميعها .

وكـأنـى بهذه المصاعـب وتلـك الشـدائد التـى تُـوهن مـن قلـوب الرجـال ، قد زادت قلوب هـؤلاء الرجـال قسوة وعُنفًا فـوق قسوتهم وعنفهم ، وغَدوا كـالوحوش الضاريـة يزيد الجوع وتزيـد القسوة من ضراوتها ؛ فإذا هى أكثر ما تكـون وحشية حين تجوع ؛ وأكثر ما تكون ضراوةً حين تقسوعليها الطبيعـة ؛ فاندفع هؤلاء المحاربـون المغوليون حين بلغوا الهضـاب الغربيـة وحين أصبحوا خلف بـوابة الـريح ، إلى غابـات الصنوبر التـى راعتهم أشجارها الفـارعة الطويلـة الضخمة ، يقطعـون الغصـون ويـوقـدون عليهـا مـع الليـل ليبعثـوا الـدفء فى أوصالهم ، وإذا هم حين أنسُوا بالدفء قـد أُنْسُوا ما مرَّ بهم من شدة ، فجلسـوا حول مـدافئهم يضحكـون ويسمرون وكـأنهم لم يبعدوا عـن مراعيهم وقبابهم فى صحراء « الجوبـى » ، وانتشروا هنا وهناك فى تلك الغابات الصنوبرية يَصيدون الدببـة والثعالب ، يقذفون بها إلى النار ثم يلتهمونها نهمين شرهين ، تاركين حين رحلـوا من خلفهم عظامهـا مع عظام ما بقى من حيوانهم لتدلّ على آثارهم .

وانتهت الجيوش بعـد ما جازت من جبال ومرت بـوديان وسلكت من غابـات ، إلى السهول التى على حـدود الامبراطورية الإسـلامية ، وأخذت فرق الجيش يـدنو بعضها من بعض ، يلحق المتـأخر بالمتقدم ويتلبّث المتقدم ليلحـق به المتخلف ، حتى إذا مـا تجمعت أخذت تعبر نهر « سيحون » وكان عندها فى إبان فيضانه ، وكلما مرت تلك الجيوش بقريـة من تلك القرى المنتشرة على ضفـاف النهر أغارت عليهـا فنهبت وسلبت وأهلكـت الحرث والنسل ، وحملت معهـا ما يخفّ ومـا هى فى حاجة إليـه من طعام وكسوة وعلَـف للدواب ، يسترون هجماتهم على تلك القرى الآمنة الوادعة بالحرائق يُشعلونها ليشغلوا الناس بها فينسوا المهاجمين .

وكان الشاه عندما بلغت تلك الجيوش حدود بلاده قد عاد لتَوّه من الهنـد منتصراً فانتهـى إليه خبر هـذا الغزو ، وكـان جيشه لا يـزال على أُهبَته لم يخلع عنه لباس الحرب فخرج بـه للقاء « المغول » ، وكان قوامه أربعمائه ألف مقاتل ، فاندفـع إلى الشمال لكى يدرك هذا الجيش المغولى قبـل أن يلتئـم شملـه ، فيقضـى عليه . وكـان الشـاه يـرى أن قـوات «المغول» لن تصمد لقـواته ، عقيدةً عَمر بها قلبُه يُذكيهـا فى هذا القلب أنـه مُسلـم وأن خصمـه وثَنـىّ . ومـا كاد الشـاه يبلـغ قـريبًا مـن نهر «سيحون» حتى ترك الشطرَ الأكبر من جيشه هناك ومضى هو فى البقية الباقية منه مُنحدراً إلى مصب النهر .

لقد قدّر شيئًا وساق القدر إليـه شيئًا آخر . فلقد قدّر أن « المغول »

بعيدون عن هذا الطريق الذى سلكه وأنه سوف يلقاهم فى مكان آخر. فإذا هو أمامهم وجهًا لوجه فى واد طويل ، تكتنفه الغابات الكثيفة وعلى جانبه المنحدرات . وكانت جيوش الشاه تفوق جيوش «المغول»، تفوقهم عددًا وتفوقهم قوة، وكانت الرحلة الطويلة الشاقة قد أنهكت « المغول » ، وكان جنود الشاه قد نالوا حظًّا من راحة . ولذلك أراد الشاه أن ينتهز الفرصة ويأخذ «المغول» على غرّة ، فسرعان ما نُفخ فى الصور ودقّت الطبول ، فإذا الجيش قد اصطف، وإذا هو على أُهبة بأن يخوض معركة فاصلة .

وفزع « شيبه نويون » لما رأى من تلك الحشود فى نظامها وعددها وسلاحها . وعلم أنه لن يقوى لها إذا وقف أمامها وجهًا لوجه وأملى عليه تدبيره السريع أن يأخذ فى الحيلة . وحيلة « المغول » معروفة ، لكنها جازت على المسلمين . فحين رأى « شيبه نويون » أن لا حيلة له فى نصر إذا واجه خصمه فكر فى خداعه . وطلب إلى زميله « جوشى » أن ينسحب بفرقته أمام العدو ليغريه باللحاق به . خدعة قديمة للمغول مرَّ بك شيء عنها . ولكن « جوشى » ابن الخان أَبَى على صديقه هذا وأصدر أمره إلى جنده أن يهجموا . وامتطى المغول خيولهم وسيوفهم القصيرة فى أيديهم القابضة على أعنّة الخيل والرماح المشرعة فى أيديهم الأخرى ، واندفعوا نحو أعدائهم . ونَشبت الحرب وكان نصيب المسلمين فيها غُرمًا كبيرًا ، وتعرّض الشاه لمحنة من المحن القاسية ، كاد يذهب فيها ضحية حين أحاط به « المغول » لولا أن

استبسل فى الدفاع عنه حرسه الأشداء . وكرَّ « جلال الدين » أكبر أبناء الشاه على قلب « المغول » كرة ضعفوا أمامها ولم يصمدوا لها فارتدوا بألويتهم .

وحل المساء فترك « المغول » معسكرهم بنيرانه المشتعلة . وامتطوا خيلهم ينسحبون ، فقطعوا فى ليلة واحدة ما كانوا يقطعونه فى ليلتين . وأشرقت الشمس على ذلك الوادى فإذا هو مملوء بجثث القتلى ومَن حولها كتائب الشاه، وقد نالها ما نالها ، ولا أثر لمغولى فى الميدان . فقد اختفوا وكأنهم لم يكونوا . وكانت المنطقة قد تعرّت هى الأخرى مما على سطحها من نبات . فلم تجد الخيل ما تقتات به . ولم يجد الجيش هو الآخر طعامًا يكفيه . من أجل ذلك رأى الشاه أن يتراجع إلى مُدنه ليكون وراء أسواره المنيعة ، فيأمن هجمات «المغول » الخاطفة . ومرّت هذه الموقعة بعد أن تركت فى نفوس المسلمين أثرًا أى أثر . لقد هالتهم الخسائر التى خسروها ، وشق على نفوسهم أن تنال منهم تلك الشراذم المغولية ، وأذهلتهم تلك الشجاعة الخارقة للمغول . لم ينجُ من ذلك الشاه نفسه ، فلقد أصابه هَمٌّ لا يفارقه كاد يُقضُّ عليه مضجعه ويهيج نفسه ، ولكنه على هذا خرج من تلك الحرب وهو يُكْبِر أعداءه ويرى فيهم خير جند وخير قادة ؛ صبرًا وقوة احتمال وتسديدَ ضِربات .

وكان الخان فى إثر تلك الطلائع التى التحمت بجنود الشاه . وبلغه وهو على حدود الدولة الخوارزمية ما قام به ابنه « جوشى » فأرسل إليه مَدَدًا من الجند ، وأمره أن يعود فيتعقب الشاه .

فيما وراء النهر

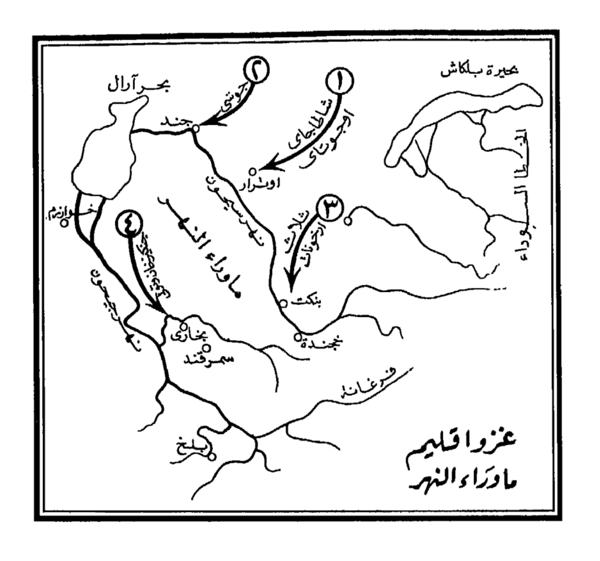
كان أول ما يطالع « المغول » الراجعين من الأقاليم الإسلامية إقليم «ماوراء النهر » ، وكان ذا شقَّين متباينين يفصل ما بينهما بحر «آرال » ؛ فإلى الجنوب والغرب من هذا البحر المالح كان الشق الأول ، وهو هضبة جرداء قاحلة تكسو بعضها طبقات من الطَّفل الأحمر ويعلو بعضها الآخر رمال وتراب ، وإلى الشرق من هذا البحر كان الشق الثانى من هذا الإقليم يخترقه نهران « سيحون » و « جيحون » . يجرى «سيحون » من الجنوب الشرقى إلى الشمال حيث يصب شمالى بحر «آرال » ، ويجرى « جيحون » جنوبًا حيث يصب جنوبى هذا البحر ، يضم هذا النهر وذاك بينهما واديًا خصبًا مُونعًا مخضراً . وعلى «سيحون» قد أُنشئ الكثير من المدن الإسلامية ، شىء منها على ضفته اليمنى وشىء منها عى ضفته اليسرى ، تصل هذه المدن بعضها بعضا طرق القوافل ، فكانت كحلقات فى سلسلة متصلة تمتد فى هذا الوادى الذى تكتنفه الصحراء . وعلى « جيحون » كانت تقوم قلعتا الإسلام المنيعتان « بخارى » و «سمر قند » .

* * *

وحين زحف « المغول » إلى « خوارزم » وَلّوا وجوههم شطرَ هذا الشقّ الخصيب ، وإليه انحدر الشاه ليلقاهم بجيش بلغت عدّته أربعمائه ألف مقاتل . ولبث الشاه إلى الجنوب من نهر « سيحون » يرقب خصمه يريد أن يدهم جيوشه وهى تعبر النهر . وطال به الانتظار فترك مكانه ليبحث عن عدوّه ، فإذ هو يلقاه وجهًا لوجه فى واد من الوديان ـ كما مرّ بنا ـ وإذا عدوُّه يلوذ بالفرار ، ويدرك الخان جيوشه المنسحبة فيعجب بما كان لها من جولات صادقة ، ويعجب بما كان لها من انسحاب خادع ، فيزوّدها بمَدَد من الرجال ومَدَد من العتاد ومدد من الرأى والتدبير ، لتعود فتهاجم جيوش الشاه .

وأطبقت جيوش المغولى على ميدان المعركة تحيط به من جهاته الأربع ، فكان ولداه « أوجتاى » و « شاطاجاى » على رأس الجيش الأول الذى قصد « أوترار » ، تلك المدينة الإسلامية التى قتل أميرها البعثة التجارية ، وكان ابنه « جوشى » على رأس جيش ثان ، وكانت وجهته « جنَد » القريبة من مصب « سيحون » للاستيلاء عليها ، وكان على رأس جيشه الثالث ثلاثة من قواده ، وانحدر هذا الجيش يستولى على « خجنده » و « بنكت » ، وجعل الخان قيادة الجيش الرابع إليه بعد أن ضمَّ إليه ولده « تولى » .

وبدأت الجيوش المغولية زحفها معًا تسبقها الأنباء لتبلغ سمع الشاه ، فنبأ من « أوترار » بأن « المغول » على أبوابها ، ونبأ من «خوارزم» بأن «شيبه نويون » قد انفصل عن « جوشى » بفرقة عبر بها


بحر آرال
جند
جوتشي
٢
١
شاطاجاي
اوجوتاي
اوترار
بحيرة بلكاش
٣
٤
خوارزم
نهر سيحون
ماوراء النهر
نهر جيحون
بنكت
خجندة
بخارى
سمرقند
فرغانة
بلخ
غزو اقليم
ماوراء النهر

الجبال وهـو فى طريقـه إليها ، ونبـأ من « خجنـده » بأن الخان بجيشـه أصبـح على قاب قـوسين أو أدنى منهـا . وهكـذا تزاحمت الأنبـاء على الشاه فبَلْبَلَت فكره وأوقعته فى حيرة ، ورأى إن هو ظلّ فى مكانه خلف نهر « سيحون » تعرض لشيئين : انفصال عن مراكز الإمداد ، ثم قطع الطريق عليه إلى « جيحون » وهو خط دفاعه الرئيسى . من أجل ذلك لم يصدر الشـاه عن رأى سـديد ، ولا ملـك فكره ليتـدبرّ ، ولا اطمـأن ليتروَّى ؛ وإذا هو ثائر طـائش اللب ، وإذا هو مع تلـك الثورة وذلك الطيش يفـرّق جنده على المدن ليلقى العدوَّ أشتـاتًا . وقد أُنسى أنـه قد مكّن بـذلك لعدوّه وأعطاه مـا يريد . فلقد أراد الخان أن يشتت قوى الشاه بهذا الهجوم وأن يفوّت عليه التجمع ، فيسهل عليه النيل منه قوة قوة وفرقة فـرقة . وقد تمَّ للخان ما أراد فإذا الشاه يـرسل بأربعين ألفا مـن المقـاتلين لتشدَّ أزر الحصـون الممتـدة على نهر « سيحـو ن » ويخصّ «بخارى» بثـلاثين ألفًا ، ثم يمضى بسـائر ما بقى معه إلى « سمـرقند » وكان العدو قد أشرف عليها .

ولقد ظن الشـاه أن قلاعه ستغنى عنه شيئًا وسـوف تردّ المغول على أعقابهم ، وأنهم لن يقووا على اقتحامها وأنهم لـن يظلوا وراءها طويلا وسوف يعـودون أدراجهم بعد أن يسلبـوا ويغنموا من الـزرع والماشية وغير الزرع والماشية ، لا هَمَّ لهم غير ذلك . ظـن هذا الشاه فبرّر به ما فعل من تشتيت قواته على القلاع والحصـون ، لكن هذا كان ظنًّا يُمليه الجهـل بحيـاة «المغـول» ، ويُمليه الجهـل بسيرة هـذا الغـازى الجديـد

«جنكيز خان» . ومـا نخال الشاه كان يجهـل هذا كله ، ولكنها كـانت زلّة حربية ، وكم لكل زلّة مـن تبرير ، ولكن التبرير إذا لم يسانده شيء ضم إلى الزلّة زلّة .

وكانت « أوترار » على الأطراف ، وكانـت المفتاح إلى تلك الأقاليم الإسلامية، وكـان حاكمها « ينال » خصـم « المغول » الأول ، وهم لا ينسون له ما فعـل . من أجل ذلك أسرعت « أوترار » تعـدّ نفسها قبل غيرها وتُدعّم حصـونها وقلاعها . ووقفت « أوترار »تدفـع عن نفسها أشهـرًا خمسـة ذاقت فيهـا ويـلات كثيرة حتـى خـارت قوى الـرجـال واختفت بطـولة الأبطـال . وبقى « ينال » فى الميـدان يمطر المغـول من فوق الأبـراج بوابل من السهـام ، حتى إذا ما انكشف رمـى بنفسه إلى سطـح من السطـوح ، وأخذ يـرمى « المغـول » بالحجـارة يناولها إيـاه النسوة إلى أن وقع أسيرًا ، فلقد كان هـو المقصود قبل « أوترار » . فهو يدافع عن نفسـه مع دفاعه عن « أوترار » ولا غرو فهو يـدافع عن جاه وإمارة . ولا ندرى مـا الذى أبطأ به عـن أن ينجو بنفسه هاربًـا بعد أن فقد قواته المدافعة . لعله آثر أن يموت كريماً ، ولعله كان على يقين من أن فراره لـن يغنيه شيئًا ، فهو لـن يستطيع أن يخرج من مـدينة محاصرة يحيط بها الأعداء من جميع جهاتها . ووقع » ينال » فى يد الخان المغولى ، فأمر بأن تصـبّ فى عينيه وأُذنيه فضّةٌ مصهورة إمعانًـا منه فى التنكيل به وإمعانًا منه فى تعذيبه .

وفيما كان الجيش الأول يـدخل « أوترار » كان الجيش الثـالـث يجتاز

الـوادى الخصيب فى طـريقـه إلى « بنكـت » و « خجنده » ، ينتقـل بين بساتين نضرة ، فيها أشجار الفاكهة تتدلى منها ثمارها الطيبة ، يتميز من بينها الـرمان بحجمه الكبير الـذى تملأ الواحـدة منه قبضتى الـرجل ، وكان للقوم منه شراب لذيذ مرىء . وتمتد على شاطىء النهر من ورائها حقول فسيحة تفيض بألوان من الزرع ، ويفترش البطيخ أرضها ، كل بطيخة تزن مـا يقرب من خمسين رطلا ، وبها الأراضى المنبسطـة تزخر بالأنعام والإبـل والخيل ، ومن وراء هذا كله القرى تحيـط بها أسوارها إحاطة السوار بالمعصم .

لم يغرّ هذا النعيم ذلك الجيش الجائع العطـش ، بل مضى فى طريقه لا يتلبّث ، ومـا نعنى أنـه لم يصب مـن ذلك شيئًـا ، وإنما نعنى أنـه مرّ زاحفًا إلى هدفه الأكبر فى ممرات جبـال « تيان شان » ذات البرد القارس ليبلغ » بنكت » و « خجنده » . وتهون « بنكت » فلا تقوى على مقاومة وتسلم أمرها إلى «المغول » فيدخلونها دون حرب . وكان على «المغول» أن يرعوا هـذا لهؤلاء القوم المسالمين ، وكان عليهـم أن يحسنوا إليهم ، وأن يحتاطـوا منهم ، ولكن المغـول كانوا غـادرين تُـملى عليهـم ذلك الغدر طبيعة النفس وطبيعة الأرض . لقد قست عليهم الأرض فقسوا على أنفسهم ، ثم قسوا على الناس مع أنفسهم .

وإنـا لنعجـب لهؤلاء « المغـول» بعـد أن فتـح لهم أهـل « بنكـت » الأبـواب ، وبعـد أن مكّنوهـم مـن الـدخـول حين لم يرعـوا لهـؤلاء المسـالمين سلمهم ، فقد جمعوا إليهم المحاربين لم يستثنوا منهم أحـدًا ،

وقتــلوهـم عـــن آخـرهـم لــم يُبقــوا مــنهـم أحــداً . وهكذا يـؤمِّـن المغوليون أنفسهــم ؛ ويحموا ظهورهم ؛ لا يعنيهم مـاذا يصيب الناس ولا يقدّرون ما يفعلون .

غير أن « خجنـدة » وقفت لهم تحميهـا أسوارهـا العاليـة وأبراجهـا السامقـة المكينة ، ومن وراء تلـك البروج وقف الجنود ووقـف القائد «تيمور ملك» يدافعون عنها دفاع المستميتين . غير أن زحف « المغول » كان عنيفًا ، وهجومهم كان قاسيـا فلم تصمد المدينة كثيرا وخرج عنها قائدها « تيمور » إلى جزيرة وسط النهر ، ومعه ألف من جنوده تنقلهم القـوارب إلى تلـك الجزيـرة التـى أخـذوا فى تحصينهـا . واتجه إليهـم «المغول» يضيّقون عليهم الخناق . وكانت المياه تفصل ما بين هؤلاء وما بين هؤلاء ، ولا يستطيع «المغـول » بلوغ أعدائهم إلا إذا أقـاموا جسراً يعبرون عليـه ، وإن لم يفعلـوا فسيظـل ما بين القـوم بعيـداً وسيطـول الحصار .

وشرع « المغول » يقيمون هذا الجسر يسخّـرون له الأسرى من أهل «أوتـرار » و « بنكت » ، ينقلـون الحجارة ويلقـونها فى النهر . وأخـذ الجسر يمتد يومًا بعد يوم تحت إشراف نفر من مهندسى الصين .

هـذا على الـرغم ممـا فعـل القـائد « تيمور » ، فهـو لم يترك أعـداءه يمضون فى إقامة الجسر ، ولم يقف إزاء ذلك مكتوف اليدين . فلقد هيّأ من مراكبه أسطـولا وحاط كل مركب بمتاريس خشبية تـدفع عن رماة السهام الذيـن بها ، وبعد أن مكّن لهذه المراكب أطلقهـا فى النهر تقذف

«المغول» والعـاملين فى إقامـة الجسر بسهام دقيقـة . وما سكـت رجال المدفعية فى جيش « المغـول » على هذه ، فراحوا يقذفـون تلك القوارب بأوعية حَشوها النار والكبريت .

وما يئس «تيمور » ولافتَّ ذلك فى عَضُده ، بل راح هو الآخر يقيم لتلك القوارب حواجز وسقوفا ذات ميل يكسوها بالطين لتنزلق عليها النار ولا تَعْلَق بها . وهكذا كـان مكر « المغـول » ومكر « تيمـور » ، يغلب مكرٌ مكراً ، ولكن ماذا يُغنى المكرُ أمام أيد عاملة لا يَقْوَى عليها هذا الفناء البطىء ، وأمام جيش جرَّار للمغول لا يملّ و لا يسأم ؟ وما هى إلا أيام أخرى حتى تمَّ الجسر وامتد إلى الجزيرة . وأحس « تيمور » أن عدوَّه مُدركـه ، فخرج عن الجزيرة مـع الليل فى رجاله تحملهـم اثنا عشر مركبًا قاصـدين الجنوب ، وذلك بعد أن حطم هـذا الحاجز الذى أقامه « المغـول » فى النهر يمنعون به العبور . وجـرى « المغول » فى إثر «تيمـور » يتابعـونـه على الشـاطىء ، وسبـق «جـوشـى » وسبق معـه المهنـدسون ، فـأقـاموا المجـانيـق على الشاطىْ يـريدون أن يستقبلـوا «تيمور» فى أسطوله الصغير فيبيدوه إغراقًا .

وفطـن « تيمـور » لما أراده أعـداؤه ، فلـم يُمعـن فى السير نحـو الجنوب ؛ ومـع الليل أرْسَى سفنـه عند مكـان مهجور من الشـاطىْ ، ونزل برجالـه يظنُّ أنه فى مأمن وأن أعداءه عنـه بعيدون . ولكنه ما إن وطئـت قدمـاه الأرض ، ووطئتهـا معه أقـدام رجـالـه حتى وجـدوا «المغول» من حولهم يُعملون فيهم السيوف والحراب حتى أفنَوْهم جميعًا

لم ينجُ منهـم غير « تيمور » الذى لاذ بـالفرار . وجرى فى إثـر «تيمور» ثلاثـة من المغـول استطاع « تيمـور » أن يرمـى أحدهـم بسهم فيرديـه قتيلا ، واستطاع أن يلـوِّح للآخرَيْن مهدداً فـرجعا عنه بعد مـا رأيا من إحكامه للـرمى بالسهم . ومضى « تيمـور» فى فراره حتى أدرك الأمير «جلال الدين » ابن الشاه فى أقصى الجنوب .

وهكذا أفلـح « تيمور » فى أن يشغل جيشًـا للمغول شهـوراً عدَّة ، أثبت فيها شيئًا مـن الشجاعة وشيئًا من الحيلة ، لا يعنينـا ما انتهى إليه أمره ، فلقد فعل ما لو فعله غيره وصبر له لعوّقوا تلك الجيوش المغولية تعويقًا قد يبعث فيها الملل وقد يتيح للمسلمين فرصة .

* * *

ومضى الجيـش المغولى الثـانى بقيـادة « جوشـى » يطوى بين يـديه القطاع الشمالى من نهر « سيحون » مستوليًا على تلك المدن الصغيرة التى يمرُّ بها ، وتخلّـت الحامية التركية عن « جنـد » وتركتها لـه . وحين تم «لجوشى» الاستيـلاء على الإقليم الشمالى واستخلاصـه كله مـن أيدى أربابـه المسلمين انحدر جنوبًـا نحوالجنوب يـؤازر الجيش الثالـث عند «خجنده » . ولقـد مرَّ بنـا انفصال «شيبـه نويـون » عنه بفـرقه قـاصداً «خوارزم» إلى سمرقنـد . وما خرجت الجيوش المغوليـة فى فتحها هذا عن مألوفها الفظ وطبيعتها القاسية ، من قتل للمحاربين بعد استيلائهم على المدن ، ومن تسخير للأسرى فى أشق الأعمال .

عرف لهم الخوارزميون هذا فاستبشعوه منهم أولا ، ثم ألفوه عنهم

ثانيًا ، وسرعان ما يألف الناس القسوة إلفهم للرحمة ، يصبرون لذلك مغلوبين عليه ، لا يجدون فى يومهم جديدًا من ضيق ولا جديدًا من همّ . وإذا هم ذات يوم يجدون « المغول » قد جاوزوا قديمهم المألوف إلى جديد غير مألوف . لم يكن جديدًا يتصف بالرحمة فيخفف عن النفوس ، ولكنه كان جديدًا يتميّز بالإفراط فى القسوة ، فضجّت تلك النفوس المتألمة بألم جديد وذابت تلك القلوب التى تحجَّرت ألمًا لتجرى ألمًا .

فلقد حدث أن بعث المغول برسول لهم من التجار المسلمين إلى مدينة من المدن ، وكان الناس فى كل مدينة من تلك المدن الإسلامية ضيقة صدورهم بالمغول يضيقون بهم ذرعا ، وهم أكثر ضيقًا بمن يعاونهم ، لا سيما إذا كان ذلك المعين مسلمًا . فما إن وقعت أيديهم على ذلك التاجر المسلم حتى قتلوه ومزّقوه إربًا . وانتهى خبر ذلك إلى «المغول» وعدّه المغول امتهانًا لهم وتهوينًا من شأنهم ، وهم قساة وإن لم يُمتهنوا أو يُهانوا ، فما بالك لو أحسوا أنهم امتهنوا أو أهينوا ، فثارت ثائرتهم ، وأقبلت جيوشهم على تلك المدينة الظالمة المظلومة تحصد السكان حصدًا ، وإذا هم فى عشية وضحاها صرعى لا تجد من بينهم حيًّا ولا تجد من بينهم ساعيًا .

* * *

ولقد أنسانا الحديث عن تلك المجازر الدامية التى تلطخت بها أيدى المغول أن نسوق إليك حديث جيوشهم وحديث الجيش الرابع ،

خاصة الـذى كان يقوده الخان نفسه . فلقد انطوت أخبـار هذا الجيش عن المسلمين وعـن «المغول » ، وظـل هؤلاء وهـؤلاء لا يعلمون عنـه شيئًا . وأمعن الخان فى الاختفاء فكان يعمِّى آثاره على الطريق فلا يترك ما يدل عليه ، وإذا بـه يظهر فجأة على حافة الباديـة القاحلة وهو يسرع السير إلى « بخارى » من الغرب وكأنـه أراد بذلك أن يقطع ما بين المدن المحاصرة وما بين مراكـز إمدادها فيشطر الإقليم شطريـن ؛ وكأنه أراد أن يتم له الاستيلاء على القلب ليضرب ضربتـه الأخيرة ويقطع الطريق على الشـاه فيحـول بينـه وبين أن يسعـف مُدنـه المحـاصرة على نهر «سيحون» .

وأصبح الشـاه مطوَّقًا تحدق القوى المغـولية بجانبيه ، وتكـاد تقطع عليه الطـريق إلى الجنوب حيـث جيوشه وابنـه جلال الديـن ، وحيث الإمدادات . وحيث « خـراسان » و « فارس » بمواردهـا الغنية ، وها هو ذا « شيبـه نويـون» يزحـف إليه مـن الشرق و « جنكيز خـان » من الغـرب . وأحسّ الشـاه الشر ، وأحسّ الشرك الممـدود لـه ، فأرسـل جـزءًا من جيشـه إلى « بخـارى » و«سمرقنـد » ، وأرسـل جزءًا آخـر للدفاع عن « بلخ » و«كندور » ، وخـرج من «سمرقند » لا يصحبه إلاّ نفر من النبـلاء ورجال حرسه وجماعات مـن الفيلة والجمال ، وقد حمل معه كنوزه وكنوز أسرته ، وكأنه كـان قد يئس من تلك الموقعة فأراد أن يهيئ لموقعة أخرى .

ولكن الشـاه الذى عجـز عن هـذه عجز عـن غيرها ، وأتـاح لهذا

المغولى أن يقهره فى ميدان البطولة وأن يمحو اسمه من سجل الأبطال .
فمن قبل هذه كان رعايا الشاه يلقبونـه بالإسكندر الثانى ، فإذا هم مع هذه التجربة القاسية ـ التى مُنى فيها الشاه بالفشل ولم يكسب نصرًا ما ـ يسيئون بـه الظن ، وتنطوى قلوبهم على حسرة حين خـاب رجاؤهـم فيه ، وهو رجاء العالم الإسلامى كله حينذاك .

* * *

وكـان الخان عَجِلاً مَشـوقًـا إلى أن يضرب ضربتـه الأخيرة ، فلـم يتلبث أمام تلك المدن الصغيرة التى مّر بها إلاّ ريثما يتزود بماء أو طعام ، إذ كان همّه أن يفـاجئ «عـلاء الديـن » فى « بخارى » . وكـان الظن أن يثبت « علاء الدين » للقاء الخان ، وكـان الظن أن ينتفع بقلعة المدينة ، يكيـل لخصمه مـن ورائهـا ويكلفه ثمنًـا ما قبـل دخـولها ، ولا يدعـه يدخلهـا دون جهد مـا ، فحاميتهـا لم تكن تقـل عن عشريـن ألفًا مـن المقاتلين بين فُرس وأتراك .

ولم تُثْبت « بخارى » وجودها أمام هـذا الفتح ، وفرّ « علاء الدين » عنها خـائفًا ينجو بنفسه . ودخلهـا « جنكيز خان » شـامخًا . ولا غرو فلقد كانت قلعة الإسلام الضخمة ومدينة الجامعات الإسلامية ، يضم ذلك كله سور يحيط بالمدينة وما حولها من قرى ومزارع يبلغ طوله نحوًا من اثنى عشر فرسخًا ، تشرف مـن فوقه أنّى مددتَ البصر على خضرة واسعـة تنعقد مـع خضرة السماء ، فإذا أنـت بين قُبـة أرضها وسمائهـا سواء ، تلـوح القصور البيضـاء على رقعتها وكـأنها الكَواكـب ، والماء

ينساب بينها تحمله إليها القَنَوات من نهر « سمر قند » .

ومن عجب أن تُـذعن تلك المدينة المنيعة بحصونها ، الغنيـة بالرأى والفكـر ، والتـى كانـت على رأس البـلاد الإسـلامية يستملـون منهـا ويقتدون بها ، من عجب أن تذعن تلك المدينة « للمغول » فى هذا اليسر اليسير ، وتتيح للقـائد المغولى أن يسخـر بأهلهـا حين قال : « ليسـت الأسوار فى مناعتها بمُغنية شيئًا عن أهلها إن فقدوا شجاعتهم ووهنت قوتهم » .

ولكنا نعـود فنسأل : من كـانوا هـؤلاء المدافعين عنها ؟ لقد كـانوا جنودًا مأجورين من « الأتراك » الذين دخلوا على الدولة الإسلامية من طرق شتى ، همّهم المناصب ، وهمّهم الجاه ، وهمّهم الرزق ، شركاء فى اليُسر ، عونٌ للأعداء فى العُسر ، يعنيهـم أن يعيشوا ويموت الناس ، وإن استشعروا البـأس ولّوا الأدبار وتركـوا الناس يصلون هـذا البأس ويذوقون ويلاته .

هكذا فعـل الأتراك حماة » بخارى » ، لم يكلفـوا أنفسهم كثيرًا ولا قليلا . وحين أشرفت على الأسوار جيوش « المغول » تركوا المدينة لهذه الجيوش فى جنح الظـلام آمنين ، وهجروا المدينة بأهليهـا رجالاً ونساء وأطفالا يلقون البأس والهلاك .

غير أن هـؤلاء الأتراك الـذيـن فـرّوا من الموت لقـوا الموت جبنـاء وماتوا فى ساحته جبناء . فلقد سكت عنهم « المغول » حين خرجوا من الأبواب الخلفية ، وأغضوا عنهم حين مـرُّوا تحت أعينهم ، حتى إذا ما

كانوا فى العراء لا يسترهم بنيان ولا يحميهم انقضُّوا عليهم فأفنوهم عن آخرهم .

وخرج شيوخ المدينة وقُضاتها وأئمّتها ليلقوا الخان ويسلموا إليه مفاتيحها ، ليؤمنوا الأهلين الويلات وليقوا المدينة شر الخراب . فما كان فى مقدورهم ولا فى مقدور الأهلين من خلفهم أن يفعلوا شيئًا ، ورأوا الأمن والسلامة فيما فعلوا ، ففعلوا .

ولكن المغول هم المغول ، يطربون للدماء ويهشّون للدمار ، ويستخفّهم أن يقتلوا وأن يسلبوا وأن ينتهكوا الحرمات ؛ لا يعرفون للحرب قانونًا ، قانونهم فيها هواهم ، وهواهم فيها هوى جرىء لا يعرف الحدود ولا يضبطه ضابط . وهكذا لم يؤمِّن « المغول » من استأمنوهم . ودخلوا المدينة وأهلها وادعون ، فنهبوا ما بين أيديهم ، واقتحموا المكتبات فبعثروا ما فى القماطر من كتب ، وتركوها تحت سنابك الخيل تدوسها ، ومن بينها المصاحف ، واندفعوا إلى المساجد وبيوت الله بخيلهم يتخذون من أبهائها مجالس للشراب يسكرون فيها ويعربدون .

هذا ما فعله جنود « المغول » ، وقد نلتمس لهم شيئًا من عذر لأنهم جفاة بدائيون لم يؤخذوا بحظ من تأديب ، ولكنا لا نستطيع أن نلتمس لمثل هذا الفعل عذرًا إذا وقع من رجل مثل الخان قيل عنه إنه تأدب ، وقيل عنه إنه أخذ الحكمة عن مشايخ قومه ، فلقد رووا له أنه نظر فرأى بناء يعلو المبانى ويكبرها ، فسأل عنه وهو يظنه قصر الشاه ،

فقيل لـه : هذا الجامع الأكبر ، فقصـد إليه على ظهر جـواده ، وصعد درجاتـه ، حتى إذا ما أدرك صحنه تـرجَّل عن جـواده وارتقى المنبر ، ونظر إليه المسلمون واجمين ، وكان ظنهـم أن الرجل سيقول شيئًا ، فإذا هو يقول من على هذا المنبر المقدس ، ومـن ذلك المكان الطاهر الذى لا يبـاح فيـه لغو ولا يسمـح بلهـو : « لقـد نفد العلـف. . . . . . . هيّـا فاجمعوا للخيل علفها »!

ونزل الخان بعـد أن ملأ القلوب اشمئـزازًا وبعد أن ملأهـا جنوده ضغنًا وكـراهية . ولكنـه أحسّ أن القـوم لهم دين يحضّ على الـورع ، ولهم تقـوى تنهى عـن الفحش ، ولهم إسـلام يبـدو فيها يقولـون وفيها يفعلون ؛ فلان لهم والتفت إليهم يسائلهم عن دينهم وعن نبيِّهم فآمن بشئٍ وكفـر بأشيـاء ، وإذا كُفره يُـرْبى على إيمانـه ، وإذا هو آخـر الأمر جرىءٌ على الـدين وأهلـه ، ونسى مـا كان قـد بدأ فيـه ، وعاد يـذكر الحرب ومـا كـان عنها ؛ يغـريـه النصر ، ويمعُـن فى الاعتزاز بقـوّتـه وجبروته ، ويسخر بهؤلاء النـاس الذين سوّلت لهم أنفسهـم الوقوف أمامه والـدخول معه فى حرب . لام الأهالى لأنهم شاركـوا فى حربه ، ولا م الرؤسـاء فأكثـر ، لأنهم أثاروا هـؤلاء الناس لحربـه ، وإذا كان هـؤلاء وهؤلاء مَلُـومين مجرمين فقـد عَـدّ نفسه « نقمـة الله » أرسلهـا عليهم ، يسوق الدليل على ما يقـول بأنه المنتصر ، ولو لم يكن نقمة الله ما انتصر . .

وكما أفاد الخان من الصينيين أفاد مـن المسلمين ، فقد كان المسلمون

لا يقلُّون عن الصينيين حضارةً وتمدينًا ، لهم المدن المَشيدة ولهم الحضارة التليدة ومن بينهم العلماء والفنانون ، وبين أيديهم كتب ومؤلفات يتناقلها عنهم الناس . هذا الملك الواسع لم يفت « جنكيز خان » أن يأخذ عنه ويفيد منه ، وكما أخذ عن الصينيين أخذ عن المسلمين ؛ أخذ عنهم فنونهم وعلومهم وأخذ منهم رجالهم وصنّاعهم، وهكذا انتفعت صحراء «الجوبى» بشىء جديد عن المسلمين بعد هذا الشىء القديم الذى أخذته عن الصينيين .

وقد حدثنا حديث الخان حين صعد إلى المنبر وقال ما قال . وما قصَّر أهل « بخارى » فى إمداد الخيل بالعلف وإمداد الجند بالغذاء . وكان أهل «بخارى» يظنون أن أمر الخان سينتهى بينهم وبينه عند هذا الحد ، ولكنهم فاتهم أنه غاز شَرِه ، وما تكبد تلك الرحلةا لطويلة ليقنع بعلف للدواب وغذاء للجند ، وفاتهم أنه ما دخل بلدًا إلاّ حمل منها أنَفس ما فيها من جواهر كريمة وكنوز ثمينة . من أجل هذا وقف الخان مرة ثانية إلى أهل «بخارى» يقول لهم : « والآن فلتكشفوا لى عن كل ما خبأتموه من شىء ثمين ، ولا تعنوا أنفسكم بما هو تحت أعيننا فى بيوتكم فهذا أمر معروف لنا» .

ولكى يتمَّ للخان ما أراد من الاستيلاء على الثروات المخفية ، ولكيلا يقف هؤلاء الأثرياء فى وجه « جنكيز خان » ويفوّتوا عليه جمع هذه الثروات أو يعملوا على إخفائها عنه ، ساق « جنكيز خان » هؤلاء الأثرياء جملة فى حراسة الجنود ليدلّوا على ثرواتهم ، منهم من استجاب

فنجى من العذاب ، ومنهم من عـزَّ عليه أن يكشف عما بين يديه فذاق من العـذاب أصنافًا وألـوانًا ، فإذا هو آخـر الأمر يكشف عما بين يـديه تحت هذا الإرهـاب وتحت هذا التنكيـل . وتمَّ « للمغـول » الاستيلاء على ما أرادوا مـا أظنهم فاتهم شيء ، فقـد وقعوا على ما كان مـن تلك الثروات فى المخابئ وما دفنه الأهلون فى الآبار .

وما قنع « المغول » من القوم بهذا الـذى نالوه من ثرواتهم ، وكأنهم عزَّ عليهم أن يخفـى القوم شيئًا ولا يعطوه عن رضـى ، فإذا « المغول » بعد أن تحقق لهم مـا أرادوا يسوقون الأهلين جميعًا إلى العـراء ليقتلوهم على مرأى مـن نسائهم وأولادهـم ، لا يحرك قلوبهم عويـل النساء ولا صراخ الأطفـال . ومـا قنعـوا بهذه ، كما لم يقنعـوا بتلـك ؛ فـإذا هـم يغتصبون النساء على مرأى من رجال لهم كانوا لا يزالون أحياء ، منهم مَن أغمض عينيه على أسى وحزن ، ومنهم من عزَّ عليه عرضُه فاندفع كالمجنـون يدافع عـن هذا العرض المسلـوب ، وهو يعلم أن دفـاعه لا يُغنى عنه شيئًا ولا يعرِّضه إلاَّ للموت الأكيد .

وتثور الوحشية ثورتها الأخيرة فى قلوب هؤلاء البرابرة المتوحشين ، لا يـرضى نفـوسهـم أنهم سلبـوا القوم أمـوالهم وسلبـوهـم نساءهـم وسلبوهـم حياتهم ، فـإذا هم يشعلون المدينـة نارًا ، وتشتعـل النار فى جميع الأحياء تلتهمها حيًّا بعد حىّ ، وتبقـى النار مشتعلة عامًا وبعض عام حتى تأتى عليها كلها فلا تتركها إلا خرابًا .

وبقى فى المدينـة بعد هذا كلـه قليل مـن الرجال والنسـاء والأطفال

ساقهم أمامهم المغول أسرى إلى « سمرقند » ، وكانوا مشاة والمغول راكبين ، وعلى هؤلاء المشاة أن يجاروا الراكبين ليلحق عَدو بعدو ، وأنّى للراجل المتعب المكدود أن يجارى الفرس النشيط السريع ، وكان منهم من ينكبُّ على وجوهم إعياءً فينهال عليهم الراكبون بالسياط يشبعونهم ضربًا لينهضوا ، فمنهم من قضى نحبه ولم ينهض ، ومنهم من هاله الضرب فوقف على رجليه ليمضى مع الركب ، وكثير منهم سقط فى الطريق ولم يبلغ «سمرقند» .

* * *

وترك « جنكيز خان » بخارى « مسرعا للحاق بالشاه فى «سمرقند»، وبينما هو فى طريقه التقى بفرق من جيشه بعد أن نفضت يدها من «سيحون» تزفُّ إليه نبأ استيلاء جيوشه على مدن القطاع الشمالى .

ويعنينا أن نحدثك عن « سمرقند » ، فلقد كانت مدينة عظيمة أقيمت على ربوة ، تقوم هذه الربوة على حافة الوادى ، يحيط بسُورها خندق عظيم ، تدخل إليها المياه على جسر شيّد على عُمد . ومن تحت هذه المدينة ينبسط واد يانع بالأشجار الخضراء تنتشر فيه هنا وهناك قصور سامقة ومجار للمياه تنساب على تلك الأرض المنبسطة . ولقد كانت مدينة كتلك المدن العظيمة مليئة بالأسواق العامرة والحمامات الكثيرة والفنادق الضخمة والمساكن المتعددة ، مرصوفة طرقها بالحجارة .

وكانت « سمر قند » كما مرّ بنا مـن أمنع المدن يحميها سُورها الملتف بها ، هذا السور الـذى كان الشاه قد أمر ببنـائه حين أراد أن يجعل منها حصنه الأخير ، غير أنه مما يؤسف لـه أن الخان أدركها بجيوشه ولم يتمّ بناء هذا السـور ، إلا أنها على الرغم من ذلـك كانت تقوم فيهـا مواقع للدفـاع قوية منيعـة لها مداخل اثنا عشر ، يقـوم على كل مدخـل أبراج حصينة ، وكـانت بها حـامية قوامهـا مائة وعشرة آلاف مـن المحاربين الترك والفرس . وما من شك فى أن هذه الحاميـة كانت تفوق الجيوش المغـولية المهـاجمة ، ولكن « جنكيـز خان » كـان قد هيّـأ نفسه لحصـار طويـل، فجمع سكان البـلاد المجاورة وأسرى « بخارى » وسخّـرهم جميعًا ليعاونـوه فى التضييق على المدينة . ولو قد أُتيح لتلـك المدينة قائد شجاع مثـل « تيمور » يُحكـم التدبير لاستطاعـت هذه المدينـة أن تصدّ غارة المعتدين أو أن تصمد لهم أمدًا طويلا على الأقل .

ولكن الهجـوم الخاطف الذى قـام به « المغـول » قد ألقى الـذعر فى قلـوب جنود المسلمين ، هـذا إلى شـىء آخر خدع بـه « الخان » تلـك الجيوش المسلمة وجعلها تظن أنه يسوق لهم عددًا لا قِبَل لهم به ، ذلك أنه حمّل الأسرى أعلامًا مغولية ودفعهـم أمامه ، فإذا المسلمون يهولهم ذلك ، ويظنون أنهم أمام جيوش لا قِبَل لهم بها ، وإذا هم مستسلمون كما استسلم إخـوان لهم من قبل ، وإذا الأئمـة والقضاة فى هـذه المدينة يخرجون إلى لقـاء الغازى كما خـرج إخوان لهم مـن قبل فى « بخـارى » يسلمون مدينتهم . وكما خان الأتراك « بخـارى » من قبل خان هؤلاء

الأتـراك « سمرقنـد » ، فإذا ثـلاثون ألفًـا من مقـاتليهم ينضمـون إلى «المغول » زاعمين أنهم وإياهـم ينحدرون من أرومة واحـدة . وأحسن «المغول » استقبالهم يستدرجونهم ، وخلعوا عليهم كسوات عسكرية ؛ حتـى إذا اطمأنـوا إلى أنهم آمنـون قـام إليهم المغـول فـذبحـوهم عـن آخـرهم . فلنسـمِّ ذلـك غـدرًا إن شئنا ، ولكنـا لا نتردد فى أن نسميّـه حيطة ، فما كـان للمغولى ـ وهو هـذا الرجل الفطـرى الذى يُملى عماّ فى طبعه من جفوة وعماّ فى طبعه من بداوة ـ إلا أن يؤمن بالحكمة القائلة : إن من خانك خان غيرك . ولقد خان » الأتراك » « الشاه » فليس ببعيد عليهـم أن يخونـوا « الخان» . وسخّـر المغـول العمال والأهلين فيما يشاءون ، ثم ضمـوا إليهم من كان من الـرجال قويًّا جلـدًا يريدون أن يفيدوا منه فى أعمال كثيرة .

وكان الشاه قـد ترك المدينة واتجه إلى الجنوب ، وكـان الخان لا يريد أن يفلت الشـاه منه ، ويريد أن يقبـض عليه حتى لا يترك له فـرصه فى تعبئة جيش جديد . من أجل ذلك دعا الخان إليه قائدَيْه « شيبة نويون » و«سابـوتاى » وأمرهما أن يمضيا فى إثـره على أن يأتياه به حيًّـا أو ميتا . والغريب أن « الخان » كان هنا يُملى عن طبيعة أخرى ، طبيعة طيبة غير تلك الطبيعة القاسية ؛ فقد أمر قائديه أن يعطيا الأمان لكل مدينة تفتح لهما أبـوابها وألاّ يفتكا إلا بـالمدن التـى تمتنع عليهما ، ووضـع « الخان » تحت إمرة هـذين القائديـن فرقتين قـوامهما عشرون ألفًا من الـرجال ، ومضى القائدان وراء « الشاه » ينحدران نحو الجنوب فى أبريل من عام ١٢٢٠

كان « علاء الدين» قد ولىّ وجهه شطر الجنوب يقصد « بَلْخ » التى تقع على مرتفعات « أفغانستان » الشاهقة ، وكان « جلال الدين » حينذاك فى الشمال مشغولا بتعبئة جيش جديد من محاربى الصحراوات التى تحفُّ ببحر « آرال » . غير أننا لا ننسى أن استيلاء الخان على «بخارى » كان حائلا دون الشاه ودون الاتصال برجاله فى الشمال .

وخُيِّل للشاه أنه مستطيعٌ أن يدخل إلى الأراضى الأفغانية فيجمع من قبائل الحدود رجالا من المحاربين يكوّن بهم جيشًا جديدًا . وتردّد «الشاه » طويلا فيما يفعل ، ثم اتجه صوب الغرب عابرًا الصحارى القاحلة ، يقصد تلك المنطقة الجبلية الواقعة إلى الشمال من « فارس » .

وحين انتهى إلى « نيسابور » خيِّل إليه أن أصبح فى مأمن ، إذ كان بينه وبين الغزاة من « المغول » ما يقرب من خمسمائة ميل .

وأدرك « شيبه » و « سابوتاى » مدينة « بلخ » التى كانت سدًّا منيعا ، تصدّ « المغول » عن عبور نهر « جيحون » فأمرا مَن معهما من الرجال أن يعبروا النهر سابحين بخَيلهم ، واصطنع المغول أحواضًا كبيرة من الخشب غَشَّوْها بجلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ، ثم وضعوا فيها سلاحهم وعتادهم وساقوا الخيل أمامهم إلى الماء ممسكين بأذنابهم ، وقد أمسكوا هم بتلك الحياض ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض . هكذا عبروا جميعهم النهر بعتادهم وسلاحهم .

وحين أدركت الجيوش المغولية « بَلْخ » وجدت « الشاه » قد خلَّف

هذه المدينة أيضًا ، فمضى فى إثره « شيبـه » و « سابوتاى » نحوالغرب مسرعين لا يباليـان عناء ولا يـأبهان بطعـام ، يقطعـان الصحـارى والفيافى ، إلى أن انتهيـا إلى الوديـان المزهرة التى تحيـط بمدينـة « مَرْو » البيضـاء ، وكـانـا يظنـان أن «الشاه » قـد استقـرَّ بها ولكنهما مـا كـادا يقتحمان المدينة حتى علما أن الشـاه قد تركها إلى «نيسابـور » فلم يستقر لهما مقام » بمرْو » ، ومضيا فى إثر «الشـاه » الفارّ إلى « نيسابور » ، وما إن بلغاها حتى علما أنه تركها . وكـانت الأنباء قد سبقت « المغول » إلى «نيسابـور » بالنـذر والوعيد تشيـع عنهم القسوة والـوحشية ، فـألقى ذلك الذعـر فى قلوب الناس وشاع الفزع فى المدينة . مـن أجل ذلك لم تجد جيوش « المغول » عناء كبيرًا فى الاستيلاء على المدينة .

وخرج « سابوتاى » و « شيبه » باحثين عن الشاه حتى بلغا «الريّ» . وفيما هما يسيران لَقِيَـا « تـركـان خـاتـون » أُم « الشـاه » فى مـدينـة «مازندران» ، فأسراهـا وبناتها ومن معها من الإماء ، واستـوليا على ما كان فى حـوزتها من حلى وجـواهر وثيـاب ، وأرسلاهـا مع إمـائها إلى «الخان» . وقد بقيت فى حوزة « المغول » إلى أن عادوا بها إلى بلادهم فى صحراء « الجوبـى » . وهناك تزوج «شاطـا جاى » إحدى بنـاتها ، أما أبنـاء « الشاه » فقـد أمر «الخان» بقتلهـم جميعًا على الـرغم مـن حداثـة سنهم .

ومما يؤسف له أن نذكر شيئًا وقع فى مدينة« الرَّى » ، فقد كان هناك فى تلك المدينة مذاهب أربعة : الشافعى والحنفى ثم المالكى والحنبلى ،

وكان بين أصحاب المذهبين الأولين وأصحاب المذهبين الثانيين خلاف شديد. يجوز هذا بين الناس فى وقت السّلم ولكنه غير معقول أن يجوز فى وقت الحروب والعدوُّ على الأبواب ، وغير معقول أيضًا أن يستعين أصحاب مذهب من هذه المذاهب على غيره بأجنبى ، لا سيما إذا كان ذلك الأجنبى على غير دين . فلقد رأينا أن قاضى القضاة الشافعى ـ انتقامًا من خصومه الذين هم على دينه لا يفرّق بينهم غير اختلاف فى المذهب ـ يُسرع فينضمّ إلى « الخان » ويفتح له الأبواب ليستعين به على أهله وذويه . وهكذا دخل «المغول» المدينة لم يرحموا رجلا من رجال هذه المذاهب كلها ، وسلّطوا السيوف على الرقاب ، فقتلوا خصوم المذهب الشافعى أولاً ليرُضوا هذا الخائن بعض الرضى ، ثم انقلبوا فقتلوا أتباع المذهب الشافعى ثانيًا ليخلصوا من هؤلاء وهؤلاء ، فهم كما علمت قوم على بداوتهم لا يؤمنون بالخيانة ولا يثقون بالخائن .

وخلّف « الشاه » كنوزًا لم يلبث « المغول » أن عثروا عليها ، وكان ثَمّ كنوز له أخرى ساقها أمامها لتسبقه إلى بغداد مع أسرته . وكأن «الشاه» قد أُنسى أنه كان منذ أمد قريب خصما للخليفة ، ولكنه لم يجد أمامه ملجأ غير هذا ففزع إليه ، وأخذ فى طريقه يجمع إليه الرجال من هنا ومن هناك فإذا حوله بضع مئات ، ومضى فى الطريق المفضى إلى «بغداد » حتى إذا ما أدرك « همذان » وجد « المغول » من خلفه فتفرّق عنه رجاله ، وكادت أن تدركه سهام « المغول » لولا أنه فرّ متجها إلى بحر « قزوين » ومعه نفر من الأتراك الذين عنّ لهم أن يخونوه فى محنته

تلك ، فتركوه حتى نـام ورشقوا خيمته بالسهام يريـدون القضاء عليه والخلاص منه .

أصبح « الشاه » فرأى هذا ممن كان يتخذهم حاميته ، فقال واليأس يملى عليه : « أمَا من بقعة فوق الأرض أجد فيها الأمن والسلامة ! »، وأقبـل إليه رجـل من خلصـائه يشير عليه أن يـركب بحـر « قزويـن » ويقصد إحدى الجزر ، وهنـاك سوف يجد مكانًا آمنًـا يقبع فيه إلى حين حتى يتمكـن أبناؤه من تعبئـة جيش قـوى يستطيع به أن يـردّ الغزاة . واستجاب « الشاه » وخرَج متنكرًا ، واجتاز المفازة قاصدًا بلدة صغيرة على الشاطئ الغربى لبحر « قزوين » . ولكنه كان ملكًا قبل كل شىء ، وكان عزيزًا عليه أن يخرج عـن مُلكه على تلك الصورة المشينة ، وأصرَّ على أن يؤمّ الناس للصلاة فى المسجد الجامع .

ولم يعدم « الشـاه » أن يجد رجلا من رجالـه حاقدًا عليه إذ كـان قد أصابه بسوء ، فمضى هذا الرجل إلى « المغول « ووشى بالشاه ، فأسرع «المغول» إلى تلك القرية يمطرونها وابـلا من السهام التى انصبّت عليها انصبـاب المطر ، وكـان المركـب الذى يحمـل « الشـاه » قـد أبعد عـن الشاطئ فاندفع بعض الفرسان من « المغول » على ظهور خيلهم فى اليمّ يريـدون أن يلحقوا بالشاه ، ولكـن الأمواج طوَتهم ، ونجـا « الشاه » منهم .

وعلى الرغـم من أن « المغول » لم تقع أيـديهم على « الشاه » ، إلا أن «الشاه» كـان قد بلـغ به المرض والإعياء والضعـف حدًّا بعيـدًا فقضى

نَحْبَه وحيدًا بإحدى الجزر التى لا تبعد كثيرًا عن ساحل « مازندران » ، ويحكون أنه لم يجد كفنًا يكفّن فيه ، فخلع عليه أحد المقربين إليه قميصه وكفَّنه فيه . وقبل أن يمضى « الشاه » للقاء ربه كان قد أوصى لولده «جلال الدين » بولاية المُلك ، وقال فى رسالة له إلى أولاده : « لقد انفصمت عُرَى المملكة ، وانحلّت قُواها ، ووهنت أسبابها ، وتهدمت قواعدها ؛ وهذا العدوُّ قد أنشب أظفاره فيها وقَوِيَت كلمته ، وما أظن مَن يقدر على الأخذ بالثأر منه إلاّ ولدى منكبرتى جلال الدين . وإنى على هذا مُولِّيه عهدى من بعدى ؛ فالزموا طاعته » .

جـــوّالة المغول

ما علـم القائدان المغوليـان « شيبه » و « سـابوتاى » أن الشـاه الذى يبحثان عنـه ويفتشان فى منـاكب الأرض قـد قضى نَحْبَـه وحيدًا فقيرًا بائسًـا فى تلك الجزيرة النائيـة . وحين يئسا من العثور عليـه أرسلا إلى الخان بما وقعت عليه أيديهما من كنوز للشاه عثرا عليها من هنا وهناك ، كما أرسلا إليه بمن وقعت عليه أيديهما من أمراء تلك الأسرة المنكوبة ، وأرسلا مع هذا وذاك رسالة إلى الخان يقـولان فيها : « لقد أبحر الشاه على ظهر سفينة يقصد الشرق ، وقد فقدنا الأمل فى وجوده » .

وحسب « الخان » أيضًا أن « الشاه » لا يزال حيًّا ، وخشى أن يكون قـد قصـد إلى الشرق يحاول أن يلقى ابنـه « جـلال الـدين » فى مـدينـة «أورجنش» ، وما إن قرّ فى ذهنه هذا حتـى بعث جيشًا ليلقى « الشاه » حيث فرّ وحيث قصد .

وقضى « سـابوتاى » الشتـاء يتنقل فى مراعـى « قزوين » التـى كان الجليد يكسوها ، ثم خطر له بعد ذلك أن يزحف إلى الشمال ملتفًّا حول البحـر ليلتقى بـالخان ، ولكنه قبـل أن يفعل أرسـل رسولـه إلى الخان يطلب إذنه ، وأقَّر الخان « سابوتاى » على ما طلب ، وبعث إليه ببضعة

آلاف من محاربى « التركمان » ليعزِّز بها جيشه . وكـان « سابوتاى » قد سبق فاختار مـن قبائل « الأكراد » ـ وهم جُفاة متوحشون ـــ من يأنس فيه أن يكـون جنديًا ، فـاجتمع له بمـن جنَّد وبمن أرسلهـم إليه الخان وبمن كان فى يده عدد كبير.

وكان « المغول » بعد أن فرغوا مـن الجنوب قد اتجهوا شمالا صوب «القوقـاز » ، فأغـاروا على إقليم « الكـرج » بعد معـارك دامية نشبـت بينهم وبين الجنود الكرجيين الشجعان ، وكاد « المغول » أن يرتدُّوا عن هـذا الإقليم ، و « المغـول » إذا لم تغنهـم قوَّتهم شيئًـا ارتـدُّوا يحتالـون ويمكرون ، وهكـذا فعلوا بهذا الإقليـم كما فعلوا بـأقاليـم أخرى مـن قبل ، فاختبأ « شيبه » بقواته فى جانب الوادى الطويل المفضى إلى مدينة « تفليس » ، وتظاهر «سـابوتاى » بالفرار ، فانقـضَّ جنود « الكرج » على خصومهـم يقتفون أثرهم . عنـد هذا ظهرت جيوش « شيبـه » من مخبئها والتفَّت بجيش «الكرج» وأعملت فيه السيف فمزقته شر ممزَّق .

ومشى « المغـول » فى زحفهم مجتـازين وادى « القـوقاز » عـابريـن بوابة « الإسكندر » الحديدية ـ وكانت مدينة بناها « الإسكندر » وجعل عليها بابًا من حديد ـ وما كادت طلائع « المغول » تظهر على المنحدرات الشمالية حتـى وجدت أمامها وجهًـا لوجه جيشًـا قد تألف مـن سكان الجبـال مـا بين «شراكسـة» و « قفجـاقيين » ، ونظـر « المغـول » فـإذا خصمهم يُـرْبى عليهـم عددًا ، ونظـر « المغول » فـإذا هم لا يملكـون التقهقر . وإذا ضـاقت السبـل بالمغول وسعتهـم الحيلة ، فسرعـان ما

تراجع « سابوتاى » ، وسرعان ما جرى فى إثره جنود » القفجاق » ، وإذا هذا الجيش الكبير الموحّد جيشان ، جيش « للقفجاق » فى إثر «المغول » ، وجيش للشراكسة ثابت مكانه . وما إن أدرك « المغول » هذا الانقسام فى هذا الجيش حتى التف فرسانهم بالشراكسة ، ومضى مشاتهم أمام جنود « القفجاق » ممعنين فى البرارى المالحة فيما وراء «القزوين » واستمروا يجرُّونهم وراءهم إلى بلاد الأمراء « الروس » . وهنا بدا « للمغول » أنهم جرُّوا على أنفسهم شرًّا جديدًا لم يكن فى الحسبان ، فقد كان « الروس » يسمعون عن « المغول » ، ويسمعون عن عدوانهم على البلاد الآمنة ؛ فما إن وجدوهم على الحدود حتى هبُّوا لمحاربتهم فاجتمع لهم جيش من « كييف » وغيرها من البلدان المحيطة بلغ عدده اثنين وثمانين ألفًا من المقاتلين ، وعبر هذا الجيش نهر «الدنيبر» ليلقى هذا العدو المغير ، ولكن « المغول » ما كانوا ليشتبكوا مع عدوهم فى حرب فى ميدان يختاره العدو ، فانسحبوا وضربوا فى الأرض تسعة أيام حتى أدركوا الميدان الذى رأوه صالحًا لتسديد ضرباتهم . وظل القتال بين «الروس » و « المغول » يومين متتاليين لقى بعدهما الأمير الروسى مصرعه ولقى غيره من القواد والجنود مصرعهم ، ومَنْ كُتبت له السلامة من «الروس » ـ وهم قليلون ـ عبروا نهر « الدنيبر » مرة ثانية .

وما إن فرغ « سابوتاى » من الروس ومَن انضم إليهم من «القفجاق» حتى مضى ليلحق بزميله « شيبه » . وانضم القائدان

وانضم الجيشان يقصدان شبه جزيرة « القرم » ، وما نسيا « الدنيبر » وما نسيا تلك المعارك التى نشبت حوله .

وفى الحق لقد كان « المغول » لا تقع أعينهم على أرض إلاّ تاقوا لفتحها ، يغريهم المكان بالمكان وكأنهم يريدون أن تكون الدنيا لهم جميعًا . فلقد فكّر « سابوتاى » وفكّر معه « شيبه » فى أن يعبروا «الدنيبر» ليغزوا «أوروبا » . فكّرا فى هذا وكانا على وشك أن يهمّا به ، لولا أن أرسل إليهما الخان ـ وكان على علم بحركاتهما ـ يطلب إليهما أن يعودا ، وأن يلقياه فى مكان حدّده لهما إلى الشرق على بعد ألفى ميل .

وفى طريق العودة قضى « شيبه » نَحْبه . وما منع ذلك « المغول » فى رجعتهم أن يغيروا على « البلغار » ، وكانوا ينزلون على ضفاف «الفولجا » .

وهكذا داس « سابوتاى » هذه الأراضى الفسيحة الممتدة التى تجمع تسعين درجة من درجات الطول ، لم يمرّ عليها معصوب العينين ولا مغلق الفكر ، بل رأى وشاهد ودَرَس وتدبَّر ، فإذا هو على علم تامّ بما هنا وبما هناك ، علم مهَّد للمغول فيما بعد أن يعودوا بعد بضع سنوات لينقضّوا على « موسكو » وليعبروا « الدنيبر » وليغزوا شرق أوروبا ، ثم كانت علاقات تجارية بينهم وبين « جنوا » و « البندقية » .

وبينما كان «شيبه » و « سابوتاى » ينشران الرعب ويخرّبان ويسلبان وينهبان غربى بحر « قزوين » ، كان ولدان للخان يمضيان نحو بحر «آرال» ليتعرّفا خبر الشاه وليضيّقا الخناق عليه . وما لبثا أن علما أن

الشـاه قد فـارق الـدنيا وأنـه يرقـد فى مثـواه الأخير ، فمضيَا يقطعـان الطريـق سائرين على شـاطئ « جيحون » حتـى بلغا مدينـة «خوارزم» وهناك التقـى جيشان : جيـش مغولى يملـك الحزم والإرادة ، وجيش وراء أسـوار « خوارزم » كلـه مـن المرتـزقة لا حـزم عنـده ولا إرادة .
ولكن الأهالى عـزَّ عليهم أن يسلموا مدينتهم ، وعـزّ عليهم أن يتركوا أمر الـدفاع عنهـا إلى تلك الحاميـة المستضعفة ، فـوقفوا للمغـول صفًا واحـدًا . ورأى « المغـول » فى الأهــالى الإرادة والحزم فتهيئـوا لحربهم ونصبوا مجانيقهم . وحين أعوزتهم الحجارة قطعوا الأشجار ، وقطعوا من الأشجار كتلا ، وأشربوا الكتل ماءً لتثقل وتصلب .
ويشاء القَدر أن يقع الخلاف بين « جوشى » و « شاطاجاى » فيطول الحصـار ويـدخل فى شهـره السـادس . ولكـن سرعان مـا يبلـغ الخبر الخان ، فيبادر بإرسال جيش آخر يعقد لواءه لابنه الأصغر «أوجتاى» ، ويعيد «أوجتاى » النظام ويوحِّد الصفوف ويبدأ الهجوم . وبعد أسبوع سقطت «خوارزم » وما استطاعت أن تقاوم ، وما استطاعت أن تصمد للنفط المشتعل الذى صبّه المغول عليها . ودخل « المغول » « خوارزم » وخرجوا منها بالأسرى والغنائم راجعين إلى حيث يقيم الخان .

* * *

وكان الصيف قـد حلَّ ، والصيف فى الوديـان غيره فى المرتفعات ؛ لهذا فكّر الخان فى أن يريح جنده ، وفى أن يخفف عنهم ، وفى أن يجنِّبهم قسوة الحر فى الوديـان وما اعتادوه ، وأن يخرج بهم إلى المناطـق الباردة

فيما وراء نهر « جيحون » ، وأن يتيح لخيلهم أن تستريح وترعى فى تلك الوديان الخصيبة .

ولقد كان هذا الموسم ـ موسم الصيد ـ لا يقل عند المغول شأنا عن أية معركة حربية ، وكان الجيش كله بوحداته كلها يشارك فيه ، ينظّم لهم هذا دستور موضوع سنّه لهم زعيمهم جنكيز خان ، ويمضون فى صيدهم هذا عنه لا يحيدون . وكان « جوشى » أمير الصيد عندها غير حاضر إذ أرسله الخان بعيدًا فى شأن من شئونه الخطيرة ، فقام نائبه يحدد الميدان وسط الجبال ويبين معالمه ، واضعا عُمدا عند أماكن البدء ، لكل كتيبة عمود تتدلى منه أشرطة تتميز عن غيرها . وكما يفعل هذا فى أمكنة الابتداء يفعل مثله فى أمكنه الانتهاء .

وتصطف السرايا فى نظام دقيق ثم تنقسم شطرين ، شطر إلى اليمين وشطر إلى الشمال فى تنسيق رائع ، ويمضى كل شطر إلى غاية يقف عندها . ويتلبث هذ الشطر وذاك مكانه يرقبان وصول الخان ، ويهلّ الخان ومن حوله النافخون فى الأبواق وقارعو الطبول . وإذا جيشه من حوله فى نصف دائرة قد طوت ما يربى على ثمانين ميلا . ويشير الخان بيده فيبدأ الصيد وتنطلق الخيل بفرسانها عليهم دروع قد جُدِلت من الأغصان وفى أيديهم السلاح يقصدون أن يثيروا الحيوان أمامهم .

ويندفع الفرسان وسط الأجمات والأدغال ، يهبطون الأخاديد ويعلون الرُّبى ، تسمع لهم صراخًا حين تقع أبصارهم على النمور والذئاب وهى تطل برءوسها من خلل الأجمات . وما يكاد ينصرم

الشهر حتى يكون قد اجتمع بين أيديهم أعداد عديدة من الحيوان . ويُضيّق الفرسان الخناق على تلك الأعداد من الحيوان شيئًا فشيئًا ، فإذا هم آخر الأمر قد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وإذا هو لا يجد له من بين صفوفهم المتراصة منفذًا ، وإذا ما تعثر منه شيء دفعوه أمامهم يستحثونه ، وكلما توارى منه شيء أثاروه ليخرج من مخبئه ، وهم يفعلون هذا كله دون أن ينالوا هذا الحيوان بأذى ، إذ كان دستورهم يحرم عليهم أن يشهروا السلاح على الحيوان أثناء مطاردته .

وإذا ما استدار الفرسان بالصيد تقدم الخان ليلقى وجها لوجه أشد الحيوان شراسة وأجرأها افتراسًا فيصوّب إليه سهمه . ويكون هذا إيذانًا منه باستخدام السلاح . فيعدو الفرسان فى إثره يقتلون والخان مشرف عليهم من فوق ربوة عالية . وقد تمتد هذه المذبحة يومًا بأكمله إلى أن يتقدم أحفاد الخان وأبناؤه يطلبون منه الإبقاء على بعض الحيوان. وحين يستجيب الخان لهم ، يقف الذبح وينصرف القوم يجمعون ما قتل . .

ومضى الخان بجيوشه نحواً من أربعة أشهر فى هذا التدريب القاسى ، الذى كان « المغول » يقصدون به إعداد أنفسهم إعدادًا قويًّا ، فَمن قَوى على مجابهة الحيوان المفترس قَوِى على مجابهة الإنسان الوادع . ثم رأى «الخان » أن يعدّ العدّة للخريف وما سيكون فيه من حروب ، وعاد ليلقى «جوشى » و« شاطاجاى » وهما يحملان إليه نبأ وفاة «الشاه» .

* * *

وعلى حين كـان الخان يفعل هـذا كـان « جـلال الديـن» السلطـان الجديد يهيئ نفسه لحرب جديدة ، ويجمع لتلك الحرب جيشًا جديدًا . وانتهى إلى الخان أن ثمّـة قوات فيها وراء الأفـق تتجمع للقـائه . وكان المسلمـون حين فقدوا الشـاه ، وفقـدوا قبـل الشاه اثنين مـن أبنـائه فى المعـركـة ، وفقدوا قبـل هـذا الكثير مـن قـادتهم وأمرائهـم ورجـالهم وأبنـائهـم ، وفقـدوا مـع هـذا ديـارهـم وثـرواتهم ، ثـم أصيبـوا فى أعـراضهم. كـان المسلمـون لهذا الذى فقـدوا ولهذا الـذى أصيبوا بـه ينقمون على « المغول » ويرون أن عليهم واجبًا مقـدسًا لابدّ من حمله . لهذا تجمّعوا ، فكـان لهم جيش جـديد على رأسـه قادة جـدد من أمـراء الفرس.

وأحسّ الخان تلك الروح العالية فى قلوب المسلمين ، وأحس ذلك التجمـع السريع فقّـدر الأمر قـدره وبات يتـدبّر مـوقفه . لقـد كانـت جيوش المسلمين هـذه المرة تبلغ المليون فى عُدة كـاملة ، ولكنها كـانت تعوزهـا قيادة قـادرة . وكانـت جيوش الخان لا تتجـاوز مائة ألـف ، وكانـت ثمّة قبـائل من «الأويجور» قد طلبـوا إليه أن يعـودوا إلى « تيان شان » فسمح لهم ، وكان الخان إلى ذلك قد فقد بعض قواده وأحس أنه فى حاجـة إلى جمع من «الأرخونـات» يكونون إلى جـواره . ولكنه على هـذا عقـد العـزم على أن يجمـع أمره وينظـم صفـوفـه ويهيـئ الجيش للحرب، وخرج زاحفًا وهمُّه القضاء على كل من يلقاه.

نحو خـــــراسان

تـم « لجنكيــزخـان » الاستيــلاء على إقليمـى « مـا وراء النهـر » و«خوارزم» وأصبح بهذا يحيط بإقليم « خـراسان » ، هذا الإقليم الذى كان يطمع الخان فى الاستيـلاء عليه وأن يجعله هدفه الثانـى . من أجل ذلك أرسـل الخان ابنه على رأس جيش كبير إلى « خراسـان » ، وما إن تولىّ ابنه قيادة الجيش الذاهب إلى « خراسان » حتى أرسل طليعة له من عشرة آلاف مقاتل تحت إمرة « توجاشر »الذى كان زوجًا لابنة الخان . وأدرك هـذا القائد مـدينـة « نسا » ، وقـاومـت « نسـا » واستطاعـت حاميتها أن تقتل جملة كبيرة من الجيش المهاجم . « والمغول » ـ كما نعلم ـ فيهم عناد وفيهم جَلَد ، فما راعهم هذا العدد الكبير الذى قتل منهم ، فلقد جربوا القتال وعلمـوا أن الضحايا الأولى وإن كثرت لا تَعنى أنهم المغلويـون وأن خصمهم هو الغالـب ، فطوّقوا المدينة يضربـون عليها الحصار . ونصبـوا حولها المجانيـق ، ودام الحصار أسبـوعين استطاع «المغول » بعدهما أن يحدثـوا ثُغرة فى سور المدينة نفذوا منهـا ليلا ، وما أصبـح الصبح إلاّ وكـان « المغول » داخـل الأسوار يملئـون ساحـات المدينة وكأنهم قطعان الماشية يسوقها الرعاة ، ولم تمتد يد « المغول » أول

الأمـر بالسلـب والنهب ، فـاجتمع إليهـم أهل المدينـة رجالاً ونسـاء وصبيانًا مخدوعين بهذا الذى رأوا ، ظانّين أنهم بين يدى جيش آخر غير هذا الجيـش الذى سمعـوا عنه من قبـل ، فإذا ما اطمـأنوا شيئًـا ألقى «المغـول » إليهـم أمرًا غـريبًـا . لقـد رأى المغول هـذه المرة ألا يكلّفـوا أنفسهم عناء النَّيل من خصومهـم وأحبوا أن يُكلّفوا خصومهم أن ينال بعضُهم من بعـض ، وأن يقتل بعضهم بعضًا . ولقـد كانت كبيرة على إخوان مسلمين أن يفعلـوها بـإخوان لهم مسلمين ، ولكنهـم فعلوهـا مُكـرهين متراخين ، ولكن « المغـول » لم يُـرضهم مـن أعـدائهم هـذا التراخى فى القتل ، وهذا اللين فى الإيذاء ، فهبّـوا هم يفعلون ما لم تَقوَ عليـه تلك الأيـدى المضطرة المكـرهة ، فقتلـوا وأسرفوا فى القتـل ، لم يرحموا شيخًـا ولا طفلا ولا آمـرأة ، فإذا المقتـولون بيـد المغول سبعين ألفًا . ولو قُدِّر لأهالى « نسا » أن ينجوا بأنفسهم وألاّ يُخدعوا بما خُدعوا به وولّـوا وجوهم شطـر الجبل القريـب لوجدوا مـن كُهوفه ومغـاراته وشعابه مكانا آمنا .

ويحدثنـا التـاريـخ أن المؤرخ الكبير « محمـد النسـوى » الـذى أرّخ «لجلال الدين » فـرّ مع الناس إلى قلعة حصينة من قـلاع « خراسان » . ويحدثنا التاريـخ نقلا عن هذا المؤرخ مـا نحب أن نسوقه إليـك ، فلقد قال :

« بعد سقوط « نسا » لجأتُ إلى قلعة مشيـدة على قمة من قمم الجبال الصخريـة المرتفعة ، وكانـت من أقـوى قلاع « خراسـان » وأمنعها ،

وكانت تتوسط الإقليم . من أجل ذلك عُدّت مأوى يلجأ إليه الفارون أمام هذا الزحف القاسى . ولم يمض غير قليل حتى ظهر « التتر » أمام القلعة ، غير أنهم وجدوها منيعة حصينة ليس من الهينّ الاستيلاء عليها ، ولم يرغبوا فى أن يرتدُّوا دون أن يغنموا شيئًا ، فطلبوا أن يُعطوا عشرة آلاف من الأثواب القطنية ، كما طلبوا غير ذلك من نفائس «نسا» ، وأجبتُهم إلى طلبهم وجمعت لهم ما أرادوا . ثم كانت المشكلة ، مَنْ يا تُرى هذا الشخص الذى يقبل أن يحمل « للمغْول » ما طلبوا ؟ فلقد كان الناس يعلمون أن المغول خَونة لا يُقدِّرون العهود ولا يرعون الذمم . وتقدَّم منى شيخان وطلبا إلىّ أن يكونا رسولين إلى « المغول » يريدان أن يخلِّصا المدينة من هذا الشر المحيط مضحِّيَين بحياتيهما ، فلقد كانا يعلمان أنهما غير راجعين ، واستودعانى أطفالهما وأوصيانى بهم ، وأكبرت الشيخين على هذا البذل . وانفصلا عنى إلى « المغول » ، غير أن الأمر وقع كما قدّرنا وقدّر هذان الشيخان ، فلقد قتلهما المغول وقطعوا رقبتيهما » .

* * *

وعاث « المغول » فى « خراسان » يسلبون وينهبون ويخرِّبون ، لا تقع أيديهم على شىء إلاّ أخذوه إن خفَّ عليهم حمْله ، أو أحرقوه وأتلفوه إن ثقل عليهم حمله . يسوقون أمامهم الأهلين سَوقًا ليتقدموهم إلى المدن الأخرى التى يريدون غزوها ؛ يُسخّرونهم أولا فى حمل الأثقال وفى شئون أخرى من شئون الحرب ، ولينشروا بهم الذعر

واليأس بين الناس . وكان «المغول» لا يفرقون بين نبيل وفقير ، يضمونهم جميعًا جنبًا إلى جنب ويكلفونهم جميعًا عملا واحدا لا تفرقة بينهم ، والويل لمن يخالف عن أمرهم .

* * *

وأراد الخان أن يغزو « فارس » فاختار لذلك جيشًا ، وولىَّ عليه ابنه الأصغر « تولى » وأمره أبوه أن يتعقب « جلال الدين » فى طريقه ، غير أن الأمير الخوارزمى استطاع أن يفلت منه . ومضى الجيش المغولى نحو «مَرْو» ، تلك المدينة التى كانت جوهرة وسط رمال الصحراء ، وكانت مقرًّا للهو الأمراء ومتعة العظماء ، يمرّ بها نهر « مرغ آب » ، وكانت تضم مكتبات فيها آلاف المخطوطات .

وفيما كان « المغول » فى طريقهم إلى « مَرْو » وقعوا على جماعة من «التركمان » كانوا قد غنموا من « مَرْو » أشياء منتهزين تلك المحنة التى حلَّت بها ، فأوقع بهم « المغول » وسلبوهم ما معهم .

وأشرف « المغول » على « مرو » ووقفوا بين يدى أسوارها يتحسسون ثغرة . وكما مُنى المغول أمام أسوار « نسا » مُنوا أمام أسوار « مرو » بقتل عدد من رجالهم ، فثارت ثورة « تولى » وأقام جسرًا من الطين يريد أن يعبر عليه إلى المدينة ومن ورائه رماة السهام يحمون تقدم الجنود العابرين ، ودامت المعركة اثنين وعشرين يومًا . ولكن المدينة ـ فيما يبدو ـ كانت قد تعرضت حاميتها لشىء من الوهن وشىء من

الضعف ، يشير إلى ذلك ما يُروَى من أن رجلا من أئمة المسلمين خرج خلسة من المدينة يقصد «المغول» يريد أن يفاوضهم على الصلح . ويروون أن هذا الإمام لم يخرج إلى «المغول» بعلم الأهلين وإنما كان ذلك بعلم الحاكم ، فهو الذى أرسله ليتعرف ما عند « المغول » من استعداد لهذا السلم ، وكان « المغول » مكرَةَ كعادتهم ، فلقد رحَّبوا بهذا الإمام وقبلوا ما حمل إليهم من هدايا وأهدوا إليه مثلها ، وأمعن «تولى » فى إكرام الإمام فدعاه إلى أن يأكل معه ليملأ قلبه طمأنينة ، ثم طلب إلى هذا الإمام أن يبعث إلى أصحابه فى المدينة فيدعوهم ليحادثهم . وخُدع الإمام وبعث فى طلب أصحابه وأجلسهم « تولى » حوله يظهر لهم الودّ ويضفى عليهم الأنس ، وأخذوا فى الحديث ، يحدثون ابن الخان ويحدثهم ، حتى إذا ما أُنْسوا أنفسهم وأُنسوا أنهم بين يدى عدوٍّ لهم ، طلب إليهم « تولى » أن يمدُّوه بقائمة فيها ستمائة رجل من أغنى رجال « مَرْو » . وأجاب المسلمون وكتبوا ما أراده منهم ابن الخان ، وعاد هؤلاء الأغرار إلى المدينة ليجدوا جيوش « المغول » فى إثرهم شاهرة سيوفها لتفتك بهم ، ودخل « المغول » ساحة المدينة يطلبون أولئك الأغنياء بأسمائهم ، وكان لزامًا على هؤلاء الأغنياء أن يخرجوا ، فأسرهم « المغول » ، ثم انتشروا فى أنحاء المدينة يأمرون السكان بالخروج إلى العراء أجمعين ، معهم نساؤهم وأولادهم حاملين كل ما يستطيعون حمله . وهكذا أجلىَ « المغول » أهل المدينة كلهم من مساكنهم فى ساعات قليلة .

وجلس « تولى » ليشهد مصرع قادة المسلمين وضباطهم وفرسانهم، وليشهد تلك الأوامر التى أمر بها أن تنفذ فى الأهالى ، فلقد أمر « تولى » بأن يُقسَّم الأهالى إلى فئات ثلاث : الرجال فى ناحية ، والنساء فى ناحية، والأطفال فى ناحية ثالثة ؛ ثم أرغموا الرجال على الرقاد على الأرض وأيديهم وراء ظهورهم ، وانطلق المغول بين صفوف هؤلاء الرجال المنبطحين على الأرض يقتلون ويذبحون، لم يبقوا منهم غير فئة قليلة من الصناع لحاجة الجيش إليهم . وأخذوا الأطفال عبيداً ، وانفردوا بالأغنياء الذين كتبوا أسماءهم فأخذوا يعذبونهم ليدلّوا على كنوزهم ، وبعد أن نكّلوا ما شاءوا أن ينكّلوا وسلبوا ما شاءوا أن يسلبوا خرجوا عن المدينة ، ولكنهم عزّ عليهم أن يخرجوا عنها دون أن يهدموا أسوارها ويشعلوا النار فى بيوتها .

ويحدّث المؤرخون أن من بقوا أحياء من سكان تلك المدينة لم يجاوزوا الخمسة الآلاف عداً ، أبقى عليهم حياتهم أنهم لاذوا بالأقبية والمخابئ فامتنعوا بذلك عن أن تقع عليهم عيون « المغول » . والمؤرخون يروون أيضاً أن « المغول » بعد أن خرجوا من المدينة عادوا إليها لا لشىء إلا ليستوثقوا من أنهم لم يُبقوا بها حيًّا .

* * *

وهكذا كان شأن « المغول » فى « مرْو » وفى غير « مرْو » من المدن التى مرّوا بها ، حتى لقد كان الناس يلقون بأنفسهم بين جثث الموتى

والقتلى لينجوا من موت محقق ، وأحسّ « المغول » حيلة القوم فإذا هم لا يتركون القتلى ولا الموتى دون أن يقطعوا رءوسهم ويفصلوها عن أجسامهم استيثاقا منهم بأنه ليس على الأرض حىّ بين تلك الجثث الراقدة .

لم يكن « المغول » فاتحين ولم يكونوا محاربين بالمعنى الذى نفهمه للفاتح وللمحارب ، ولكنهم كانوا قتلة سفاكين ، بينهم وبين الآدميين ثأر لا يهدأ ونَهَم لا يشبع ، فلقد كانت كل تلك الألوان من القسوة لا تطفئ ظمأهم إلى الدماء . فيروون عنهم أنهم فى حرب من حروبهم التى قتلوا فيها فأسرفوا وفرّ الناس عنهم خائفين وَجلين يبحثون عن مأوى يختفون فيه ـ وحسب المحارب النبيل أن يخضع الأهالى له هذا الخضوع وأن يفرّوا عنه ، ولكن « المغول » كانوا محاربين لا يتصفون بنبل ـ عزّ عليهم أن يفرّ عنهم الناس دون أن ينالوا من رقابهم ، فاضطروا مؤذّن المدينة إلى أن يعتلى المئذنة وينادى للصلاة ، وحسب الناس أن المغول ولّوا وأن الدنيا عادت أمنًا ، فخرجوا من مخابئهم يلبّون صوت المؤذّن ، فإذا هم يَلْقون المغول بسيوفهم المُشرعة ويَلْقون القتل على أيديهم .

وإمعانًا فى التخريب وإمعانًا فى القتل والدمار ، كان المغول لا يتركون المدينة دون أن يحرقوا ما بها من طعام ، ليأمنوا أن من سَلم من الموت على أيديهم لا يسلم من الموت جوعًا . وفى « خوارزم » لا ينسى التاريخ ما فعله المغول بعد القتل والنهب والسلب حين فتحوا السد

الـذى يحجز ميـاه نهر «جيحون » فطغـت مياهـه على المدينة فـأغرقتهـا وتركتها بحيرة ماء .

وما نعلـم أن الذين نجـوا من بطـش « المغول » عاشـوا أصحاء ولا عاشوا مالكين لقواهم العقليـة ولا عاشوا بنفوس هادئة مطمئنة . وفى الحق لقـد أساء «المغـول » إلى المجتمـع الإنسانـى فعطّلـوا حضارتـه ، وكادوا أن يقضوا على الجنـس البشرى وتركوا من تركـوا بنفوس هَلِعَة وقلوب غير مطمئنة .

والغريب أن هذا الخان لم يرتكب مثـل هذه القسوة فى حروبه الأولى فى صحراء « الجوبى » أو بأرض « الخطاى » ، ولكنه فعل تلك الأفعال الشنيعة بـالمسلمين وبالبلاد الإسلاميـة ، وكأنه أراد أن يثبت بحـق أنه نقمة السماء على هؤلاء ، ولقد وجدناه يلوم ابنه « تولى » على تأمينه أهل « هـراة » وعلى تركـه عشرة آلاف من جنـود « جـلال الديـن » دون أن يقتلهم .

قد يقولون إن أهل « هراة » لم يرعـوا هذا الصنيع الجميل الذى فعله بهم «تولى » فثاروا بالمغول ، ولكن ذلك القول لا يمكن أن يكون عذراً للخان فيما فعـل ، فما يلام المغلوب على حقـه حين يثور لحقـه ، ولكن الملوم هو هذا المعتدى حين يعتدى أولاً وحين يقسو ثانيا . ثم إن الخان وإن كان قد كسب أرضًا فقد خسر قلوبًـا وأحنق العالم كله عليه فوقف له هذا العالم بالمرصاد ليحول بينه وبين طغيانه .

* * *

ويذكـر التاريخ أن قبيلة « التركمان » كـانت تقطن قرب « مَـرْو » ثم فرَّت عنها فزعًا حين غزا « المغول » « مرو » ومضت إلى « أرمينيا » . ثم يروى التاريخ أن المغول بعد أعوام بلغوا « أرمينيا » فخرجت عنها قبيلة «التركمان» حتـى بلغت آسيـا الصغرى وألقـت فيهـا عصا الترحـال ، وكان عليهـا زعيم هـو «أرطغرل»الـذى ما إن لقـى ربّه حتـى انتقلت الـزعـامـة إلى ابنـه « عثمان » الـذى أسـس دولـة على أنقـاض الـدولـة السلجوقية عرفت باسم الدولة العثمانية .

وحـلَّ الصيــف فـاتجه الخان بجــزء مـن جيشــه إلى مـرتفعــات «هنـدوكـوش» شمالى « الهند » ، وهنـاك أبـاح لجنـده أن يستريحوا وأن يأخذوا فى اللهو . وجلس الخان يفكـر فى أمره ويفكر فى أن عليه مهمة ثقيلة هى إدارة هذا المُلك الواسع ، ويفكر فى أن الأمر لا يمكن أن يتمَّ له عـن طريق المراسـلات بل عليه أن يجمـع إليه الخانات يشـاورهم فى الأمر . من أجل ذلك فكَّـر الخان فى دعوة مجمع الخانات على أن يكون الاجتماع فى « هندوكوش » .

جـــلال الدين

ويحلّ الخريف ويبدأ « المغول » يتحركون للحرب ، فلقد ثارت «هراة» وغير « هراة » من المدن التى لقيت شيئًا من شر « المغول » أو سمعت بشىء من ذلك الشر . وانتهى إلى الخان وهو فى « هندوكوش » أن « جلال الدين » يتهيأ لحربه، وأنه يُعد العُدّة لإعداد جيش فى الشرق . وعزم الخان عندما انتهت إليه هذه الأنباء أن يبعث أبنه « تولى» على رأس جيش ليلقى الأمير وليؤدب العصاة ، غير أنه رجع عن عزمه ، وبدلا من أن يرسل جيشًا إلى الشرق أرسله إلى الغرب صوب «خراسان» .

وخرج « جنكيز خان » على رأس ستين ألفًا من المقاتلين ليلقى هذا الجيش الجديد يقوده الشاه ويتولى القضاء عليه ، ومرّ الخان فى طريقه بمدينة «باميان» فطوّقها بحصاره ، وكانت مدينة منيعة فتلبّث أمامها أيامًا . وحرصًا منه على لقاء الشاه أرسل قائدًا من قواده للمضى فى إثر الشاه .

وتجىء الأنباء إلى الخان بأن الجيشين قد التقيا : جيش « المغول » وجيش الشاه ، وأن جيش الشاه قوامه ستون ألفا من المقاتلين ، وأن

الشاه كاد يوقع بالقائد المغولى . ولم تكن كل تلك الأنباء التى انتهت إلى الخان عن الشاه صحيحة ، فلقد حدث أن جيشًا من الأفغان انضم إلى « جلال الدين »، وحدث بعد هذا أن «الأتراك » و « الأفغان » ثاروا بالأرخون المغولى وشتّتوا رجاله فى الجبال، وكان هذا كل ما وقع فلم يجتمع للشاه جيش من ستين ألفًا كما ذاع ، ولم يشتبك الشاه مع القائد المغولى كما بلغ الخان ، ولكن «جنكيز خان » على هذا لم يَعْنه أن ما نُقل إليه حقٌّ أم باطل ، وحسبه أن قد علم أن هناك ثورة وأن هناك تجّمعات ضده ، وأن هذا وذاك كفيلان بأن يحركاه إلى أن ينتقم فيعنف فى الانتقام .

وكان « جنيكزخان » قد خرج هذه المرة دون أن يتزوّد بعتاده الحربى المعهود ، حتى إن « المغول » تعرضوا لكثير من المحن فى حربهم هذه ، ولكن الخان كان ذا عزيمة قوية ، وكان ذا بطش قاس فلم ينثن ، وأمر رجاله أن يزحفوا على « باميان » زحفة رجل واحد ، فإذا « باميان » فى أيديهم بعد لحظات . وعلى مألوف « المغول » انطلقوا فى المدينة يذبحون ويقتلون ويهدمون المساجد والقصور ، وتركوا « باميان » ثكلى تنعى مَن بَناها . ولم يكن غريبًا بعدُ أن تُسمى « باميان » « مدينة الأحزان » ، فإنهم يَروون أنها ظلت خمس سنين ليس فيها إنسان .

وتلبّث « جنكيز خان » قليلا ليستريح من هذا الأثم وليجمع جيشه الذى كان موزّعًا فى شعاب الجبال ، ثم خرج به بعد أن التأمت صفوفه وتضامّت وحداته . وكان « الشاه » قد ظفر بجيش « للمغول » سبق

إليــه فشتّــت شمله في مـوقعـة نكـراء ، غير أن جنده مـا لبثـوا أن دبّ الخلاف بينهم على الأسـلاب ، فإذا هم منقسمـون على أنفسهم ، وإذا «الغوريون» الذيـن كانوا معه ينفصلون عنه ، وجهـد الشاه في أن يعيد الأمور إلى نصابها ، وقد أفلح ولكن بعد جهد جيد . وارتد الشاه شرقًا إلى « غَـزْنَه » يستعـد لملاقـاة « المغول » ، ولكـن « المغـول » كـانوا لـه بالمرصاد فقد قطعوا على رسله السبيل ، وكـان الشاه قد أرسلهم يأتونه بمَدَد جديد ، فسدَّ « المغول » على هؤلاء الـرسل الطريق وحالوا بينهم وبين ما يريدون .

وأسرع الشاه بجيشه ـ وكان قوامه ثـلاثين ألفًا من المقاتلين ـ يعبر به جبـال « السّند » ، وكـان أمله أن يعبر النهـر لينضم بقـواته إلى قـوات «دلهى» ، ولكن « المغـول » كانوا منه قـاب قوسين أو أدنى ، فأحـاطوا بالشاه وجيـوشه ، وعرَّج الشاه نحـوالنهر يريد أن يعبره ، فـإذا هو بين يدى مكان عميق عسير عليه عبوره ، وإذا الجبلُ عن يساره والنهر عن يمينه و«المغول» أمـامه . ورأى « الشاه » هذا الحرج وخـاف أن يدرك اليأس جنوده فيركنوا إلى الفرار ، فأمر فـأُحرقت السفن حتى لا يمكِّن من تطاوعه نفسه بالفرار أن يفرّ .

وأطلّ الفجر واندفعت جيوش المغول زاحفة يتقدّمهم الخان . وكما تقدم الخان جيشَه تقدَّم الشاه جيشه ، واشتبك الجيشان ، يهجم الجناح الأيمـن من جيش الخان على الجناح الأيسر مـن جيش الشـاه فيردّه ، وكان يبغـى أن يبلغ النهـر فيلتف بجيـش الشاه . وهكـذا ثبت جيـش

المسلمين لجيش «المغول». ويحمل الشـاه حملة صـادقة على قلب الجيش المغولى فيمـزقه بَدَدا ، ويُطمعـه هذا النصر فى أن يوغل فى التقـدم بحثًا عن الخان . ويـدرك الخان الشر ، وكـان جـواده قـد صُـرع تحتـه ، فيمتطى غيره ويتحول عن مكانه إلى مكان آخر .

وفى الحق لقد كـانت فـرصة مواتيـة للنصر أبلىَ فيها المسلمـون بلاء حسنا ، وارتفعت فيهـا أصواتهم بالتهليل والتكبير وسـاد الفزع قلوب «المغول» ، ولكـن المسلمين كانـوا قد سحبوا بعـض قواتهم مـن فوق المرتفعات ، ورأى الخان العجوز هذه الفرصة فـاستغلَّها وأمر قائداً من قواده هو «بيلانويون» بأن يمضـى إلى تلك الأماكن التى انسحب عنها المسلمون ، يريـد بذلك أن يمكِّن لنفسه من أن يلتـف بالمسلمين بتلك الحركة التقليدية «التولوغما» . وتمَّ « للمغول » ما أرادوا على الرغم مما لقى هـذا الجيش المتقدم مـن ويلات ونكبات ، وتـدفق الجنود الـذين اعتَلـوا شعـاب الجبـال يـريـدون أن يلتفـوا بـالمسلمين . وهكـذا تـم «للمغول» أن يفصلوا ما بين وحدات المسلمين ، وانقلبت المعركة رأسًا على عقب ، فإذا المسلمون محوطون بـ« المغول » ، وإذا الشاه يفكر فى الانسحاب بـرجالـه إلى النهر . ولكـن عدوَّه كـان أسرع منه إلى النهـر فقطع عليـه السبيل ، وإذا الشاه يبلـغ النهر وحده لا يجد إلى جـانبه إلاَّ عـدداً قليلا مـن أتبـاعه ، وحين أدرك أنهم سيلحقـون بـه تخفّف مـن سـلاحه وامتطـى جـواده ورمى بنفسـه فى النهر يـريـد أن يبلغ الضفـة الأخرى ، والخان ينظـر إليه فى حسرة ، إذ وجده قـد أفلت مـن يده ،

غير أنـه كـان مُعجبًا بشجـاعتـه . ولقـد رووا عنـه أنه فى غمـرة هـذا الإعجاب قال : « ما أسعد من يَلد مثل هذا الابن » . ويحدِّث التاريخ أن الشاه كـان حريصًـا على هذا الجواد الـذى نجا بـه وخلّصه مـن هذا المأزق الحرج ، وظل محتفظًـا به لم يمتطه إلاّ حين استعـاد سلطانـه بعد عودة «جنكيز خان » إلى أرضه .

* * *

وما من شك فى أن الشـاه قد خسر كثيراً من جنده فى الميـدان قتلا ، وخسر كثيراً من جنـده فى النهر غـرقا ، وخسر ابنـه الصبى الذى كـان عنده فى السابعة من عمره ، فقـد وقع فى يد الخان فقتله الخان ولم يرحـم صباه .

وما سكـت الخان عن تتبُّع الشاه ، ففـى اليوم التالى أرسل فـرقة فى إثره فَعَبَرت النهر ودمَّـرت فى طريقها قرى وقتلت أناسًـا ، ولكن تلك الفرقـة لم تقوَ على جـوٍّ تلك البـلاد ولم تقو على أمـراضها فعـادت تنذر الخان بالـويل إن هو بقى ، فلقـد نقلوا إليه فيما نقلوا أنهم رأوا حيـوانًا مخيفًا أخضر اللون لـه قرن واحد وذيل يشبه ذيل الحصـان وأنه يستطيع أن يحكى صوت الإنسان ، وحين رآهم ذلك الحيوان صاح فيهم محذرا بأن يرحلـوا . وصدَّق الخان ما سمع ودعـا إليه رجلا يثق بـه هو « يى لوتشوساى » يسأله عن تفسير ذلـك . ويقول المؤرخون إن هذا الرجل قال له : « إن ذلك الحيوان هو « كيوتوان » الذى يجيد جميع لغات العالم يحب البَشر ويفزع مـن رؤية الـدماء ، وحديثـه هذا هـو نذيـر لك أيها

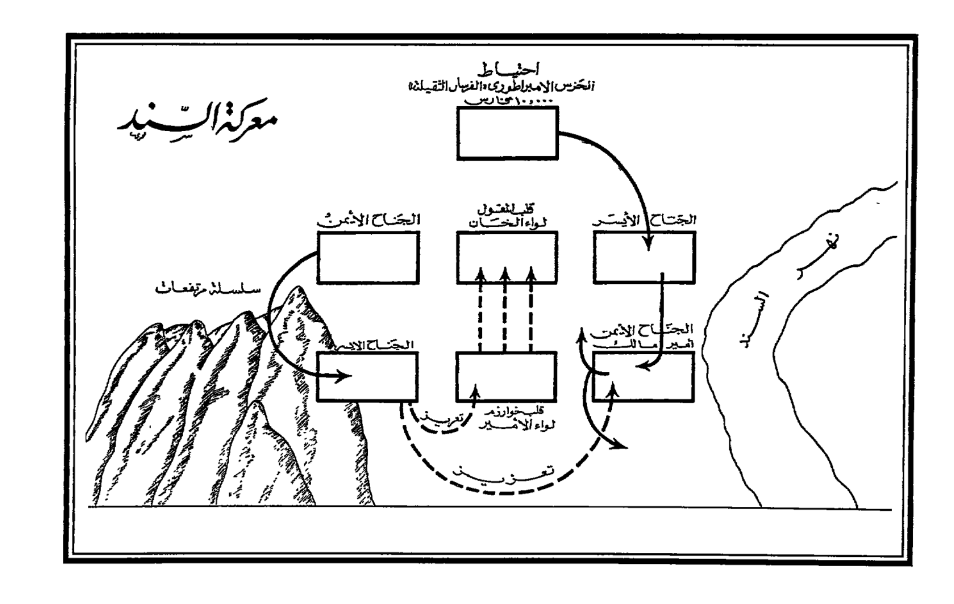
الخان ، وأنت يا مولاى أكبر أبنـاء السماء ، والشعب والناس أبناؤك ، وهـو يطلـب إليـك العطـف الـذى ألهمتـك إيـاه السماء لنفـع الجنـس البشرى» .

والمؤرخون الـذين يـروون هذا يزعمـون أن عدول الخان عـن غزو الهند كان لذلك السبب . .

* * *

وحين أفلتَ الشـاه وعبر نهر « السند » بمن معـه كانـوا لا طعام لهم ولا مأوى فأغاروا يقتاتون ويطعمون . وظل الشاه بمن معه يتنقل بين ربوع الهند حتى بلـغ « دلهى » ، وهناك أبى أمير « دلهى » أن يجُير الشاه خوفًـا من بطش « المغـول » ، وطلب إليـه أن يرحل عنـه بعد أن زوّده بالهدايا ونصحه بأن يقصد إلى « مولتان » التى على نهر « السند » .

لقد كانت موقعه « السند » هى المعركة الأخيرة التى خاضها فرسان «خـوارزم » ، كما كانـت سببًـا فى تفكير الخان فى أن يعود إلى صحـراء «الجوبى » . فقـد بدأ النـزاع يدبّ بين مجمـع الخانات كما بـدأت الثورة تهيج فى مملكة « هيا » . وعاد الخان يشق طرقا جبلية وعرة ، غير أنه فى طريقـه أغار على مدينة « بشـاور » ثم خلفها إلى « سمرقنـد » فبلغها فى خريف ١٢٢١ ليجـدها خَربة قـد يبست أشجارها وتهدمـت قصورها وتقوّضـت مساجدهـا ، ونظر إليهـا الخان وفى قلبه شىء مـن أسى ، ووجد الحكيـم «بى لـوتشوسـاى » الفرصـة سانحـة لأن ينصح الخان فتقدم منـه يقول : «لقـد آن أن نضع حدا لتلـك المذابح يـا مولاى » .


معركة السند
احتياط
الحرس الامبراطوري والفرسان الثقيلة
١٠٫٠٠٠ فارس
الجناح الأيمن
قلب المغول
لواء الخان
الجناح الأيسر
سلسلة مرتفعات
الجناح الأيسر
الجناح الأيمن
أمير مالك
تعزيز
قلب خوارزم
لواء الأمير
تعزيز
نهر
السند

وكان من بين الأسرى » الذين وقعوا فى يد الخان إمام مدينة « هراة » وكان حاضراً هذا الحديث فاشترك فيه والتفت إلى الخان يقول له : « إن ما فعله حاكم « أوترار » بالتجار كان غدراً من الغدر » ، يريد ذلك الإمام أن يلين قلب الخان بعد ما وجده قد لان شيئًا عند سماعه كلمة الحكيم الصينى . والتفت الخان إلى هذا الإمام يقول له : «وهل يبقى اسمى خالداً بعد موتى » وأجابه الإمام ـ وكان حكيما لَبِقًا ـ : «إنما يبقى الاسم ما بقى السكان » .

عندها رقّ « جنكيز خان » شيئًا وأقام على « سمرقند » حاكماً من أهلها ، وأشرك « المغول » مع الأهلين فى إدارة شئون البلاد ، ولكنه اشترط عليهم أن يجعلوا « الياسة » قانونهم .

ولكن ما كاد الخان يخرج عن المدينة ، وما كاد يمضى بعيدا حتى ارتدت إليه قسوته ، فإذا هو يأمر بقتل الأسرى كلهم ، وإذا هو يقضى على جموع كثيرة كانت تمضى فى إثر الجيش المغولى ، ثم حمل معه نساء المسلمين إلى صحرائه بعد أن تركهنّ يُلقين آخر نظرة على أرضهن .



«جامع التواريخ » لرشيد الدين هراة ١٤٢٥ م هولاكو وزوجته

فى مجلس أنس وطرب . دار الكتب القومية بباريس



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥م جنكيز خان يعتلي منبر مسجد بخارى

دار الكتب القومية بباريس



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥م المغول يسوقون الأسرى
دار الكتب القومية بباريس.



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥م مضرب خيام المغول وتعذيب الأسرى

دار الكتب القومية بباريس



«جامع التواريخ» لرشيد الدين هراة ١٤٢٥ م هولاكو يحاصر مدينة بغداد

دار الكتب القومية بباريس



شاهنشاهنامه . شيراز ١٣٩٧ م الخليفة المعتصم بين يدى هولاكو ـ

المتحف البريطانى

نهاية محارب

لقد بدأ الوهن يدبُّ فى جسد هذا المغولى الهَرِم ، فلقد جعّدت السنون وجهه الغليظ وانحطّت قواه وفقد حيويته وأخذت جراحاته القديمة تلحُّ عليه وتنغّص عليه راحته ، وأدرك الخان أنه ميت ، وأن منيّته قد قَربت ، فأرسل رسله يدعو إليه كبار ضباطه لحضور مؤتمر كبير على ضفاف نهر «سيحون» ، فى ذلك المكان الذى نفذ منه أول مرة إلى «خوارزم» . وكان الوقت فى مستهل الربيع ، ذلك الشهر الذى جرت العادة بأن ينعقد «الكورلتاى» فيه .

واجتمع إليه قواده من الشرق والغرب بعد أن قطعوا مسافات طويلة ورحلات شاقة . وجاء إليه ابنه «تولى» من خراسان» يجرُّ وراءه قوافل ممتدة من الجمال البيضاء ، بينما انحدر إليه «شاطا جاى» من قمم الجبال الثلجية يسوق أمامه مائة ألف جواد ، ومن هضبة «تيان شان» حضر إليه زعيم «الأويجور» أعزّ حليف للخان ، كما وفد إليه زعماء «القرغيز» وشيوخ «التركمان» .

واجتمع «الكورلتاى» فى سرادق أبيض ممتد وَسع ألفًا من الرجال ، وقدّم القادةُ والأمراءُ الهدايا من مختلف الأنواع إلى الخان

الذى جلس فوق عرش الشاه « علاء الـدين » وكان قد حمله معه من «سمر قند» ووضع إلى جـانبه صولجان الشاه الراحل وتـاجه ، وفَرش تحت عرشه اللباد الرمادى المنسوج مـن وبر الحيوان رمزًا لسيطرته على «الجوبى» .

وأخـذ الخان يقصّ على المجتمعين أخبـار حـروبـه ومعاركـه التـى خاضهـا ، عَازياً النصر الذى أحـرزه إلى التمسك بشريعة « اليـاسة » ، ومن ثـم نصح الأهـالى بالتزام نصـوصها . ثم التفـت إلى بنيه الثـلاثة ناصحًا يقول لهم : « لا تجعلوا للخلاف بينكم سبيلا » .

وفيما كـان المؤتمر منعقدًا وفـد « سـابوتـاى » قادمًـا مـن « بولنـدا » مصطحبًا معـه « جوشى » بعد أن أقنعـه بالمثول بين يدى أبيـه . وفرح الخان بلقـاء ابنه ، وركـع الابن بين يـدى أبيه آخـذًا بيده ليضعهـا على جبهته رمزًا للخضوع والولاء . وانفـضّ المؤتمر ، وعاد « جوشى » إلى « الفـولجا » ، ومضى « شـاطـا جـاى » إلى بـلاده ، ورجعت بعض الجيوش إلى « قره قرم » .

ولم يكن الخان وهو فى تلك السن قد هدأ على الرغم من كبره ، فلقد كان لـه خصمان لا معدى عن أن يثـأر منهما ، هما ملك « هيـا » فى نهاية الطريـق إلى «التبت» وآل «صُونْ » فى جنـوب الصين . من أجـل ذلك أرسل الخان قائده «سابوتاى» لغـزو بلاد « صُونْ » وأراد هو أن يخضع قبائل « هيا» .

وخرج الخان للقاء خصمه واستقبله خصومه بهجوم عنيف موحّد ،

غير أنهم لم يوفقوا ، وقُتل عدد كبير منهم ، بلغ فيما يقال ثلثمائه ألف رجل قتلوا فى المعركة وقَتل الخان غيرهم ممن بقوا بعد ذلك . أما ملك الـ «هيا» فقد لاذ بقلعة جبلية وأرسل يطلب الصلح من الخان ، وأجابه الخان إلى ما أراد وهو يضمر له الشر . .

وفيما كان الخان خارجًا بنفسه للقضاء الأخير على « آل « صُونْ » بلغه نبأ وفاة ابنه « جوشى » فى برارى « روسيا » فاهتمّ وحزن ، ولكنه على ذلك كتم همّه وحزنه ، وبينما هو فى الطريق تلبَّث وأرسل يطلب ابنه « تولى »، وحضر الابن ليلقى الأب ، فإذا الأب راقد قرب الموقد متدثّر بالفراء ، وكأن الخان قد أحسَّ الموت فالتفت إلى ابنه يخاطبه : «إنى لأرى منيَّتى قد حانت ، وسأترككم عما قريب » . ثم استدعى الخان إليه كبار ضباطه وأخذ يملى عليهم ويشير ، وفيما هو يملى ويشير ، لفظ أنفاسه الأخيرة دون جزع أوتأوُّه .

ومات الخان بعد أن خلّف لأبنائه إمبراطورية واسعة ممتدة وجيشًا كبيرًا مُعدًّا ، وكان موته عام ١٢٢٧ .

وركَز القوم سهماً فى الأرض أمام خيمة الخان الراحل ، وكان الخان قد أوصى بالانتقام من ملك الـ «هيا » . وحضر ملك الـ «هيا» فى الحاضرين للقاء الخان وهو يظنه حيًّا ، ولكنه ماكاد يصل هو ورجاله حتى أخذهم « المغول» على غرَّة وقتلوهم عن آخرهم .

* * *

لقد هال « المغول » موت الخان ما فى ذلك شك ، فهو الرجل الذى

بسط أيـديهم على العالم . مـن أجل ذلك كـان لابد لهم قبـل أن يواروا جثمانه التراب أن يعـرضوه على شعبه ، ومن بعـدها يحملونـه إلى مقرّه المختار إلى جـوار زوجه الأولى « بـورتاى » . والغـريب أن « المغـول » الذيـن قتلوا الناس بـاسم الخان حيًّا ، استرسلـوا فقتلوا الناس بـاسم الخان ميتـا ، فلكـى يُخْفُـوا عـن الأعـداء مـوت الخان مضـوا يقتلـون ويذبحون كل من يلقونه فى الطريق .

ويعزو« مـاركو بـولو » مـوت الخان إلى سهم أصـابه فى ركبتـه أثناء حصاره لإحدى القلاع فى إقليـم « صُونْ » ، على حين يُغفل المؤرخون هذه ويقولون إن مـوته كان إثر مرض اضطره إلى لـزوم فراشه ، وكان الطقس قاسيًا فعجَّل بموته .

وكانـت عادة «المغـول » أن يدفنـوا خانـاتهم فى سفح جبـل شاهـق يسمونه جبل « الطاى » مهما كانت الشقة بينهم وبينه ولو استغرق ذلك مائة يـوم سيرًا على الأقدام . وكـان من معتقداتهم أن كـل من يقتلـونه وهم يحملـون رفات الخان إلى مقـره الأخير يصبح خـادمًا للـراحل فى حياته الأخرى ، يستوى فى ذلك الرجال والحيوان . وما ندرى كم قتل « المغول » من رجال وحيوان فى طريقهم لدفن الخان !

وحُفر القبر تحت سنديانة ضخمة ، ويقولون : إنهم وكلوا إلى قبيلة برُمّتهـا العنايـة بالقبر وإطـلاق البخور الـذى انتشر دخانـه فى الغيضة المحيطة ثـم انتشر منها فى الغابات المجـاورة فغطى على ذلك كلـه وكاد يخفى القبر .

خاتمة المطاف

طوى « المغول » عامين فى حزن على زعيمهم الراحل « جنكيز خان» ولى ابنُه « تولى » فيهما أمر «المغول » يدبّر شئونهم مكان أبيه من حاضرة ملكه « قره قرم » . وما إن انقضى العامان وانسلخت عنهم فترة الحداد وخرج «المغول » من حزنهم حتى تهيأ الأمراء والقادة ليختاروا الخاقان الجديد أو الامبراطور الجديد ، تنفيذا لمشيئة الغازى الراحل . وعاد أبناء «جنكيز خان» كلهم على أنهم ملوك حاكمون ، يخوّل لهم هذا الحق ما أوصى به أبوهم قبل وفاته . فعاد « شاطاجاى » الغليظ الطبع ـ والذى غدا الابن الأكبر بعد أن توفى أخوه « جوشى » ـ من البلاد الإسلامية فى أواسط آسيا . كما عاد « أوجوتاى » اللين الطبع من سهول « جوبى » ، و « باطو » العظيم ـ حفيد « جنكيز خان » من ابنه « جوشى » ـ من برارى روسيا .

لقد شبّوا جميعًا عن الطوق وغدوا رجالا تجرى فى عروقهم دماء القبائل المغولية ، كما أصبحوا الآن سادة الدنيا يحكمون رقعة كبيرة من العالم ، وينعمون بما تنضم عليه من ثروات لم تكن لتخطر لهم على بال ، وهم الأسيويون الذين نشؤوا بين قوم بدائيين متوحشين ، فإذا هم

أربعتهم لكل واحد منهم جيش عظيم تحت إمرته يخضع لمشيئته ، سكروا بخمرة الحياة فامتلئوا نشوة وذاقوا ملذات الدنيا ونعموا برغدها ورفاهيتها ودانت لهم ربوعها ، وإذا هم كما خال لهم أبوهم قد وقع فى أيديهم ما تمنى لهم حين قال : « لقد كُتب لأحفادى أن يرتدوا فاخر الثياب الموشاة بالذهب ، وأن يطعموا شهى الطعام ما لذّ منه وطاب ، وأن يمتطوا صهوات الجياد العريقة، وأن يأنسوا بعشرة العذارى الفاتنات اللاتى تهفو إليهن القلوب ، وما أراهم سوف يفكّرون فيمن ساق إليهم هذا النعيم المحبَّب إلى النفس » .

هذا المُلك الواسع الذى وقع للأبناء سرعان ما أثار النزاع بينهم وحرّك الخلاف فى نفوسهم ، فما كاد العامان ينقضيان حتى وقف الأبناء الأربعة ينازع بعضهم بعضا . وكان أول ما ثار من ذلك موقف « شاطاجاى » منهم، فهو أكبرهم ، وهو بهذا جدير ـ وفق تقاليد المغول ـ بأن تكون إليه الرياسة الخاقانية . ولكن الأخوة وجدوا أنفسهم أمام وصية للغازى الراحل وما باستطاعتهم أن يخالفوا عما أوصى به أبوهم ، إذ كانت لا تزال هيبته تملأ نفوسهم وكأنه حىّ بينهم يمتثلون أمره ويستجيبون لرأيه ولا يخرجون عن طاعته . وكم حذّرهم أبوهم عواقب الفتنة وساق إليهم النُّذر إن هم اختلفوا على أنفسهم ، وكم أوصاهم أن يشد بعضهم أزر بعض ، وأن يفزعوا فى كل خلاف يجدّ بينهم إلى « الياسة » يجعلون من موادها حكَماً بينهم . ولقد أدرك الأب ببعد نظره أن امبراطوريته تلك الشاسعة ، التى لمّا يصلب عودها

بعد ، لن يُكتب لها البقاء إلا إذا بقيت فى سلطان رجل واحد يجتمع إليه أمرها كله .

وحين فكر « جنكيز خان » فى هـذا قبل أن يتخطّفه الموت فكر فى أن يجعل أمر تلك الامبراطورية إلى ألين ولده عريكة ، وأسمحهم نفسًا ، وأكرمهم خلقا ، وأنقاهم سريرة ، ليضمـن شعبه حول حاكمه فيقوى به الحاكم . من أجل ذلك فكر « جنكيز خان » فى ولده «أوجتاى » ولم يفكـر فى غيره من أبنـائه، لأنه رأى « أوجتـاى » يجمـع هذه الصفـات كلها . وكما فكّر الخان فى هذه حين اختـار « أوجتاى » فكّر فى غيرها ، فلقد رأى إن هـو ولىّ « تولى » أصغـر أبنائه فسـوف لا يرضـاه أخوتـه الآخرون، كما فكّر إن هو جعل الأمر إلى « شاطاجاى » الفظ الغليظ لم يرضـه إخوته ، وهكذا كـان اختيار الخان لابنه « أوجتاى » يمليـه هذا كله .

واجتمـع مجلـس الأمـراء فى « قره قـرم » ليختـاروا الخان ، وتقـدم «تولى» ـ وكان الأمر إليـه كما مرّ بنا ـ إلى هذا المجلس يطلـب اعفاءه من الحكم . وكـان المجلس يترسـم فى اختياره للخان ـــ مبادئ « اليـاسة » ويلتزم وصية الراحل ، من أجل هذا طلب المجلس من « أوجتاى » أن يقبل عرش أبيه . غير أن رئيس المجلـس لم يقر المجلس على هذا الرأى ورأى أنـه غير لائق أن يتقـدم« أوجتاى » أعمامـه أو أن يتقـدم شقيقـه الأكبر ، وارتضى أوجتـاى هـذا الـرأى . وبقى القـوم مختلفين أربعين يومًا يسـودهم الاضطراب ، يزيد فى ذلك القلق وهـذا الاضطراب ما

عُرف عن « أوجتاى » من صلابة رأى ، ينضم إلى ذلك أن الكهنة لم يكونوا على وفاق فيما حَدَسوا ، ولم يكونوا كلهم راضين بما كان .

من أجل هذا لم يجد الأمراء والقادة والمحاربين القدماء بُدًا من التدخّل فى الأمر ليحسموا هذا الخلاف ، فأقبلوا على « أوجتاى » يعنفون به أشد العنف ويذكّرونه بأن الخان قد اختاره خَلَفًا له ، وأنه لا مفرّ له من الانصياع لأمر الخان . وانضم إليهم « تولى » يذكّرهم بما أوصى به أبوه وهو على فراش الموت قبل أن يترك الحياة ، كما شارك «تولى » الرأى يى لوتشوساى الذى كان مستشارًا لـ « جنكيز خان» ، ولقد بذل هذا المستشار الحكيم كل ما فى وسعه واحتال ما وسعته الحيلة ليحول بين الناس وبين أن ينزلقوا إلى مزالق الطيش .

وتربّع « أوجتاى » على العرش ، نزولا على رأى الناصحين له . وفيما القوم ملتفون به يُملى على « يى لوتشوساى » فكره الثاقب ، إذا هو يتجه إلى « شاطاجاى » يقول له : ما أنت ـ وإن تك أكبر الأبناء ـ إلاّ فرد من أفراد الرعية ، وجدير بك فى سنّك أن تغتنم الفرصة فتكون أول راكع بين يدى أخيك على عرشه ليحذو الباقون حذوك . ولقد تردد « شاطاجاى » شيئًا ، ولكنه على هذا لم يجد مناصًا من أن يركع بين يدى أخيه . وحين ركع «شاطا جاى » ركع النبلاء والكبراء ، وغدا «أوجتاى » خاقانا يدين له الجميع .

وكان حكم « أوجتاى » ـ كما يقول المؤرخون ـ يمتاز بالتسامح ، يُعزى ذلك إلى وثوقه بالحكيم « يى لوتشوساى » . وقد مرّ بنا أنه كان

لا يؤيد الخان فى قسوته ، وهو الـذى أشار على الحاكم الجديد بأن يُعنى بتعزيـز إمبراطوريتـه ، وبأن يضع حـدًّا لذلـك الشرّ فى إبادة البشر .

ويحكى عـن هذا الحكيـم أنه عـارض « سابـوتاى » الـذى كان يحارب «الصُّون » مع « تولى » عندما همّ بذبح سكان مدينةمن المدن ، و كانت تضم مليونًا ونصف مليون من الناس .

وارتاح « أوجتـاى » إلى مستشاره الحكيم وأنس بـرأيه وكان يـأخذ بكل مـا يشير به ، وحين وجـد هذا المستشـار الخان معه وضـع له نظما جديدة للضرائب ، ففرض رأسًا من الماشية على كل مائة من «المغول» ، كما وضع مبلغًـا من الفضـة أو وزنًا مـن الحرير على كـل أسره صينية ، وهو الذى أشار على الخان الجديد باستخدام الكتبة الصينيين فى الإدارة الحكومية ، وهو الـذى أسس المدارس لأولاد « المغول » ، وأصبحت «قره قوم » بفضله تزخر بالمؤن والغلال والبضائع .

ولقد كانت للخان الجديد معارك ، اشتبك مع الشاه فأوقع به ، ولم تقـم للشاه بعـدها قـائمة . وفى عـام ١٢٣٥ جمع الخان الجديد مجلـس «الكورلتاى» الذى أسفر عن موجة غزو ثانية « للمغول » ، ولكن هذه الموجة ما لبثت أن تعثـرت لموت الخان عام ١٢٤١ . وانقضت سنوات عشر فى خلافات متصلة بين بيت « شاطا جاى » وبيت « أوجتاى » على العـرش ، وانتقـل العـرش مـن بيـت « أوجتـاى » إلى ابنـىْ «تـولى» : «مانجو» ثم «قوبلاى» من بعده .

* * *

وبدأت موجة الغزو الثالثة للمغول وكانت أشد الموجات الثلاثة عنفا . وأخذ المغول يغيرون على بلاد العالم مرة أخرى ، فغزا «هولاكو» شقيق «قوبلاى خان » العراق واستولى على « بغداد » وبلغت جيوشه قرب « بيت المقدس » ، وامتلك « أنطاكية » وزحف على آسيا الصغرى إلى أن وصل إلى «أزمير » وأصبح على مسيرة أسبوع واحد من القسطنطينية .

وحين ولى « مصر » قُطُز بن عبد الله المعزى سنة ١٢٦٠ ميلادية كانت الأراجيف حول تحرك «المغول » قد شاعت وذاعت ، فلقد عبروا الفرات وخرجوا يقصدون الشام وهدّدوا حلب بغاراتهم . وإذا صاحب حلب والشام يؤكد ما ذاع ، ويرسل إلى « قطز » يطلب منه العون على قتال « المغول » وصد غاراتهم ، وإذا « هولا كو » يرسل رسلا أربعة إلى « مصر » ومعهم رسالة منه إلى « قطز »يدعو فيها « قطز» إلى الاستسلام بعد تهديد ووعيد نقتطع للقارئ منها هذه العبارة ليعلم مدى ما انتهى إليه الغرور فى نفوس أولئك البرابرة . يقول « هولا كو » فى رسالته إلى « قطز » : « من ملك الملوك شرقا وغربا . . . . يعلم الملك « قطز » الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم . . . » ويمضى « هولاكو » على هذا النحو فى رسالته يمجد من شأنه ويهوّن من شأن « قطز » ويدعوه إلى الاستسلام والخضوع ، ويذكر بطشه وسلطانه ويذكر ضعف من يقف فى سبيله وهوانه .

فيجمع « قطز » إليه أولى الرأى يستشيرهم ، فإذا هم كلهم مجمعون على نجدة صاحب « حلب » وعونه ، وإذا هم مجمعون على قتل هؤلاء الرسل الأربعة ، فيقتلهم « قطز » ويعلق رؤوسهم فى جهات متفرقة من «القاهرة» : واحداً بسوق الخيل تحت « قلعة الجبل » ، وواحداً بظاهر « باب زويلة » ، وثالثا « بباب النصر » ، ورابعا بالريدانية . فعل هذا « قطز » لينفث فى روح شعبه وليهوّن من شأن عدوه ، وليلقى عليه الدرس الأول فى الإذلال والامتهان ، وليعرّفه أنه غير آبه بشأنه ولا مكترث بقوله .

وكان هولاكو قد عبّأ جموعا كثيرة من المغول أخذ يزحف بها ، لا يصادفه شىء فى طريقه إلاّ أتى عليه ، حتى إذا ما نزل « حرّان » وملك الجزيرة أرسل ولده « أشموط » إلى الشام . ويشرف « أشموط » على حلب فإذا الناس يهلعون فيتفرقون ثم يتجمعون وإذا هم بعد تجمعهم يتفرقون ، تهولهم تلك الجموع الغفيرة وذلك الجيش الجرار الذى قد ملأ الأرض ولم يترك على ظهرها شبرا ، هذا إلى ما عرف عن هذا الجيش من غدر وقسوة ، ثم ما عرف عنه من حيلة وخداع .

ولقد استولى المغول على حلب بعد أن غدروا بأهلها ، وبعد أن قتلوا وسلبوا وبعد أن نهبوا وسلبوا ، وحين نفض المغول أيديهم من حلب قصدوا إلى دمشق . وحين انتهى المغول إلى هذا قصدوا إلى غزة وبلد الخليل ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان ، وساقوا أمامهم الأسرى والأبقار والأغنام ، وحملوا معهم كل نفيس وغال . وهكذا

كـان شأنهم كلما دخلـوا قريـة أفسدوا فيهـا وعـاثوا ليلقـوا الرعـب فى القلوب ، ويشبعوا تلك الأنفس الظامئة إلى الشر والعدوان .

بلغ هـذا كله « قطـز » فأخذ يتهيـأ للقائهم واجتمـع بين يديـه جند كثيرون ، فألقـى الله فى روعه أن يخرج لهؤلاء المغـول ، لم يثنه عـن هذا الخروج ما ثنـى قادة وملوكـا عن لقاء « المغـول » من قبل . ولقـد عزم دون أن يـردّه عن هـذا العزم مـا كان يعلمـه من أن بلـدا مالم يقـو على الـوقوف أمـام زحف تلـك الجيـوش الجرارة ، بل لقـد امتلأ « قطـز » حماسـا وتصميما على القيـام بهذه الحملة ، فخـرج مـن مصر على رأس جيش مـن «مصر » و « الشام » ، ومضى بجيشه يطـوى الأرض حتى انتهى إلى « عين الجالوت » حيـث وقفت له جيوش « المغـول » ، وكان ذلك فى الخامس والعشرين من شهـر رمضان . وهناك استند المسلمون على مستنقعـات بيسان بجنـاحهم الأيمـن ، وهاجـم «المغول» جنـاح المسلمين الأيسر ، فتظاهر قطـز بالإنكسار والفرار محدثا ثغـرة بجناحه الأيسر ينـدفع فيهـا « المغـول » بقوة إلى مسـافـة تتيـح له الانقضـاض عليهم ، فيستـأنف « قطـز » الهجوم على العـدو وينفخ فى روح جنـاحه الأيسر حتى يثبت ، ويرمى « قطز » بنفسه فى المعمعة بعد أن يطرح عن نفسه خـوذته وهو يصيـح بأعلى صوته « وا إسـلاماه » فإذا الجنـود من حـوله يقـذفون بـأنفسهم فى ذلـك الأتون كما قـذف بنفسه « قطـز » لا يبالون الموت كما لم يبال هو ، وإذا المسلمون يثخنون فى عدوهـم ، وإذا المغول يولّـون الأدبار . وحين ولّوا لم تسعفهم أرجلهـم والمسلمون فى

إثرهـم حتى انتهـوا إلى بيسان ، عندهـا قنع المسلمـون بأن المغـول لن يعـودوا فـإذا المغـول لموّا شملهم مـرة ثـانيـة وأرادوا الإنقضـاض على المسلمين ، ولكـن المسلمين مـا أحسـوا منهـم هـذا التجمـع حتـى بادروهـم، وإذا « قطز » يصيـح صيحته الأولى « وا إسـلاماه » يقـولها مرات ثـلاثا ويشفعها بقولـه : « اللهم انصر عبدك قطـز على التتار » .
ويستجيب الله لقطـز ويؤيـد المسلمين من حـوله ، وإذا هـم جميعًا قـد أمكنهم الله من « المغول » مرة ثانية ، وإذا « المغول » كما فرّوا أولا فرّوا ثانيا ، ولكنهم حين فرّوا هذه المرة فرّوا لا يلوون على شيء .

وما كان « قطـز » وما كان المسلمون معـه يحلمون بهذا النصر ، وما كانوا يطمعون فى كثير منه أو قليل ، فهم لهذا أحسوا بقلوبهم أن الله من ورائهم قد أيّـدهم بنصره . وكان أكثرهم إيمانا بـذلك « قطز » ، فما إن رأى النصر بعينـه حتى نـزل عن فـرسه يمـرّغ وجهه فى التراب ويقبّـل الأرض ، ثم ينتصـب قائماً ليصلى ركعتين لله شكـرا على ما أعطـى من نصر وتأييد ، ثم يستقبل جنده ليراهم وقد امتلأت أيديهم بالمغانم .

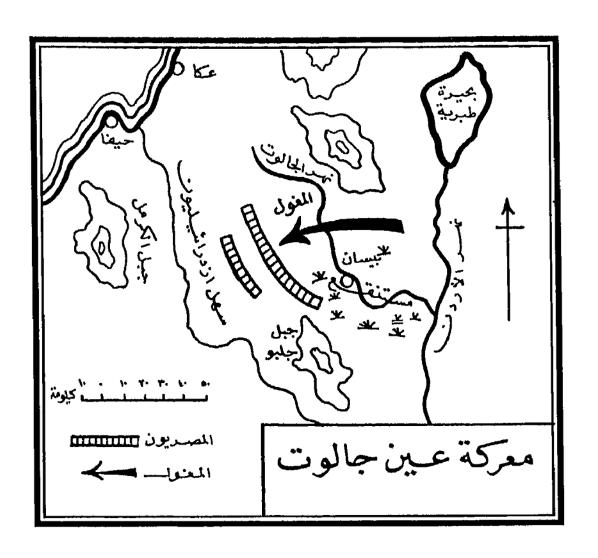
وتعتصم طائفة من « المغول » بالتل الذى كان إلى جانب المعركة فإذا المسلمون يحدقون بهم ويفنونهم عن آخرهـم ، وما سلم من « المغول » غير القليـل واسترد المسلمون بـذلـك ما كـانـوا قـد فقدوه مـن أرض وعتاد .

وكان الأمير « ركـن الدين بيبرس » من القـادة الذين أبلـوا فى تلك المعركـة بلاء عظيما ، فلقـد كان له الفضـل أولا فى مناوشـة « المغول »

وتعويقهم عن الهجوم ، وذلك حين أرسله « قطز » يسبقه إلى المعركة بفريق من الجيش ، فأخذ « بيبرس » بهذا الجمع الصغير الذى معه يراوغ « المغول » ، يُقْدم مرة ويحجم أخرى ، لا همّ له إلاّ أن يقف «المغول » فى مكانهم هذا إلى أن يصل «قطز » بجيشه . ولقد أفلح «بيبرس » ، فلقد انخدع « المغول » بأمره وخالوا أن من ورائه خدعة فتلبّثوا يحتاطون ، وظنوه يحتال للإيقاع بهم فتريثوا يتدبّرون .

وكان لـ « بيبرس » بعد هذه فضل آخر فى تلك المعركة حين جدّ فى إثر الفارين منها وتتبع جيوشهم حتى اضطرها إلى أن تخلى سبيل الأسرى الذين كانوا بين أيديهم من المسلمين .

وكان على مقدمة « المغول » قائد جبّار هو « كتبغا »الذى يرجعون إليه فى الرأى ويمضون فى أمرهم عن تدبيره ، وكان إلى هذا وذاك شجاعا مقداما له دراية شاملة بشئون الحرب ، ماهر فى انتزاع الحصون والاستيلاء على الممالك ، وهو الذى فتح الكثير من بلاد العجم والعراق ، وكان « هولاكو » يعتمد عليه ويتبرّك برأيه ولا يخالفه فيما يشير به . وكان هو الذى خرج للقاء « قطز » بعد أن ساق بين يديه جيوش «المغول» ومن انضم إليهم من غير « المغول » ، وحين رمى «قطز » بنفسه فى المعركة ليحمى جنوده رمى كذلك « كتبغا » بنفسه فى المعركة حتى لا يتخاذل جنده ، ولكن « قطز » عرف كيف يحمى نفسه ولم يعرف « كتبغا » كيف يحمى نفسه . وتقدم إلى « كتبغا » أمير من أمراء المسلمين ، وهو « جمال الدين آقوش الشمسى » وأمكنه



عكا
بحيرة طبرية
حيفا
نهر الجالوت
المغول
جبل الكرمل
سهل ازدرالئيلون
بيسان
مستنقع
نهر الأردن
جبل جلبو
كيلومتر
المصريون
المغول
معركة عين جالوت

الله مـن «كـتبغا » فـقتله شـر قـتلة .

وما من شـك فى أن مقتل هذا القائد كان له أثـر أى أثر فى اضطراب صفوف « المغول » وزلـزلة نفوسهم وبث الفزع فى قلـوبهم ، فلقد كان مقتلـه نصرًا كبيرًا أحس الجنـود المسلمون حـلاوته وأحبـوا أن يذيقـوا إخوانهم من حلاوة هذا النصر فحملوا رأس « كتبغا » إلى القاهرة حيث طيف به فى شـوارعها ليرى الناس ما أفـاء الله على المسلمين من نصر ، وما أعطاهم من تأييد وما أصاب به عدوهم من خذلان .

ومـا إن كتـب الله النصر لـ « قطـز » حتـى أخـذ يعيـد الأمـن إلى «الشـام»، وينشر السكينة بين ربـوعه ، وأقطـع الأمراء مـن أصحابـه ولايات «الشـام» وأناب عنه الأمير « علـم الدين سنجـر الحلبى » على «دمشق» .

نهاية دولة

وكما امتـدت الحرب غربًـا امتدت شرقًـا ، فلقد أرسـل « قوبـلاى خان» أسطوله للاستيلاء على « اليـابان » ، وامتد سلطانه إلى « الملايو » وما وراء «التبت » حتى « البنغال » ، وكـانوا يسمون عهده (١٢٥٩ ـ ١٢٩٤) «العصر الذهبى» للمغـول . فلقد كان يحكم رقعـة من أوسع الـرقاع ويتمتـع بجاه عظيـم وسلطـان كبير، لم يبلغه ملـك من ملـوك الغرب .

ونقل « قوبلاى خـان » عاصمة مُلكه إلى الصين خارجًا بـذلك عن مألـوف آبائه ، وأخذ كثيرًا من عـادات الصين حتى أصبح صينيًّـا أكثر منـه مغـوليًّـا . ولكـن الأيـام دارت دورتها ، ونسـى المغـول صلتهـم بأصلهم ، واندمجوا فى البلاد التى دخلوها ، وأسلم كثير منهم .

وما كاد الموت يختطف « قوبلاى خان » حتى تعرضت الامبراطورية المغولية إلى حروب وفتن وأصبحت ممالك متفرقة .

وفى سنة ١٤٠٠ ضمَّ « تيمـورلنك » القائد التركى أواسـط آسيا إلى الأقاليم الفارسية التى كان يحكمها ، وأوقع بالجيش الذهبى الذى كان يتزعمه « باتو » ابن « جوشى » هزيمة منكرة .

ولقد ظل « المغول » يملكون أمر الصين إلى عام ١٣٦٨ ، وما فقدوا قواعدهم فى روسيا إلا عام ١٥٥٥ عندما طردهم « إيفان » الرهيب .

وفى منتصف القرن الثامن عشر ــ أى بعد ستمائة عام من مولد «جنكيزخان » ــ نزحت آخر سلالة للغازى المغولى عن الهند عندما قبض الإنجليز على الأمر .

أما مغول الشرق فقد استسلموا لجيوش الامبراطور الصينى « كيين لونن » ، على حين أصبح خانات « التتار » فى شبه جزيرة « القرم » رعايا للقيصرة « كترينه » الروسية .

هكذا انقضت هذه الأعوام بما تحمل دون أن تخلّف أثرًا يدل عليها ، وعفى البلى معالم مدينة « قره قرم » التى كانت حاضرة لتلك الصحراء ، وغطتها كثبان الرمال ، وغُيِّب قبر « جنكيز خان » فلم يعد يُعرف له مكان ، كما غُيِّب قبر زوجه التى عاشت وفيَّة له . وإن القدر الذى قسا على هذا المحارب الراحل هذه القسوة فأخفى آثاره ، قسا عليه أخرى حين لم يرزق سيرته أديبًا من أدباء « المغول » يصوغها ملحمة من الملاحم . ومن عجب أن هذا الذى حفظه لنا التاريخ عن «جنكيز خان » لم يكن غير الذى سجله له الأعداء لا الأصدقاء .

* * *

ونظرة واحدة إلى خريطة « آسيا » فى القرن الثامن عشر تكشف لنا عن المقر الأخير الذى استقرَّت فيه تلك القبائل البدوية التى هى من سلالة جحافل « جنكيز خان » . فإلى الشرق البعيد من البادية

القاحلـة ، بادية « الجوبـى » حيث الجبال شـاهقة لا ترقـى السُّحب إلى قممها وتمرّ متطـامنة وئيدة من بينهـا ، وحيث الرياح الهوجـاء تعصف برمالها والشمس المتقدة تلهب صخورها ، وأنّى مددت الطرف لا تقع إلاّ على فيافى جرداء ؛ لا شجر ولا حيوان ، ولا مدن ولا إنسان ، كلأ هنا وهنـاك حول مسارب المياه التـى تنساب شحيحة بطيئـة . فى تلك البقاع التى ينتهى فيهـا المناخ إلى طرفيه من قيظ لافـح وبرد قارس ، فى تلك المساحات الشاسعة الممتدة بين بحيرة «بيقول » العظمى وما حولها من بحيرات تكتنفها الحرجات وتحلّق فى سمائها جوارح الطير ، تُـمعن حينا نحـو الشمال ، وتصوّب حينا صـوب الجنوب منذرة بميلهـا نحو الشمال أو انحـدارها إلى الجنـوب بما سيطرأ على المنـاخ مـن تقلب ومـا سيصيب الجو من اختـلاف . هناك حيث مدينة قره قـرم » التى دفنتها رمال الصحراء السافية ، وحيث قبر « جنكيـز خان » المندثر ، فى تلك المنطقة المتطرفة التى تغطى مـراعيها ثلوج الشتاء يعيش « المغول » الآن جائلين صيفهـم وشتاءهم ينـزلون فى قبـابهم المصنوعة مـن اللباد وبين أيديهم قطعان الماشية . ومـا من أحد يكاد يذكر أنـه فوق هذه الأرض عينها وعلى تلـك الهضاب نفسهـا زحف « جنكيـز خان » ، و زحفـت جيوشه معه لتُلقى الرعب فى القلوب وتنشر الفزع فى الأفئدة .

هكذا ارتفعت دولة « المغول » ثم وقعت ، وعادت كما كانت قبائل تغدو وتروح فى تلك البرارى ، حيث غدا وراح آبـاؤهم المحاربون من قبل .

كلمة أخيرة

وبعد ، فهذه هى سيرة المغولى « جنكيزخان » يسبقها شىء ويعقبها شىء آخر ، ويجتمع من هذا كله تاريخ « للمغول » يؤرخ لهم ، يفصّل شيئًا عن نشأة الدولة ويُجمل شيئًا عن نهايتها ، ويعرض تاريخ هذا المغولى كله ويستوعبه لايكاد يُفلت منه شىء . وما قصدت حين جمعت هذا التاريخ وبوَّبته هذا التبويب إلا أن أسوق صفحة يعنى كل مثقف أن يطالعها ، ويعنى كل عربىّ أن يُلمّ بدقائقها ، ففيها العبرة مزدوجة ، عبرة عن صاحبها وعبرة لنا . فما من شك أن صاحبها كان غازياً وكان شجاعًا وكان قائداً ، يُلقى علينا بسيرته الدرس بعد الدرس ، فى الوحدة بين صفوف الأمم وكيف تقودها إلى عزّة وكرامة ، وفى الشجاعة ونسيان الذات والإقدام وكيف يهيئ هذا كله للأمة أن تسود . هذا هو مكان العبرة عن «جنكيزخان» . أما مكان العبرة لنا من تلك السيرة فهو ما طالعتك به من انقسام الأمم . وكيف يئول بها هذا الانقسام إلى هوان ، ويعنينى ما أصاب الأمة الشرقية الإسلامية من ذلك وما مُنيت به من فُرقة ، وما جرّته تلك الفرقة إلى ذلك الخذلان الذى مرَّبنا .

وما أحوج الناس إلى أن يقرأوا التاريخ ، ويفيدوا من ذلك التاريخ العظات والعبر ، لاسيما إذا كان ذلك التاريخ قطعة من تاريخهم وصفحة من سجل حياتهم . وما من شك في أن تاريخ « المغول » كان قطعة من تاريخ الأمة العربية ، دخل على حياتها فملأ من تلك الحياة صفحات لا يصح أن تمر دون أن نعيها ، ودون أن نتدبّر ما فيها ، ودون أن نعرف ما كان منها لنا وما كان منها علينا ، وكان في سيرة هذا الغازى ما هو لنا وما هو علينا ، أَمْلَتْه علينا تلك الصفحات التي ضمت تلك السيرة .

وتلك القسوة التى عُرفت عن « المغول » فصوّرتهم غلاظ الأكباد وجفاة برابرة ، لنا منها أكبر درس وأبلغ عظة ، فالمرء إذا خاف حذر ، وإذا أراد أن يدفع عنه الشرَّ استعد لهذا الشر . وما كان « المغول » قساة وحدهم ، فمع كل فتح قسوة ، ومع كل غزو شدة ، فالمعتدون هم هم وإن اختلفت عصورهم وتباينت أجناسهم ، وإنما يختلفون فى لون تلك القسوة ومظهر تلك الوحشية . ولكن رُبّ ضارة نافعة . فلولا غزوات «جنكيز خان » وقسوته واعتداءاته على القيم الإنسانية وحريات الشعوب، لما نَعِم الناس بالسلام بعد زوال حكمه بالقدر الذى نعموا به بهذا السلام ، فالغزو والعدوان أكّد شعور الناس بقيمة السلام، وزادهم تمسكًا به وحماية له . والسلام كما نعلم غاية ، ولا بد لتحقيق هذه الغاية من أن نعدّ لنا عُدَّة من قوة ندفع بها عن أنفسنا عدوان أى معتد ، لكى نضمن لهذا السلام أن يكون ولا ينال منه

غاصب . فمن الغفلة بمكان أن نستنيم لدعاة مغرّرين يدعوننا للسلام وما أرادوا بهذه الدعوة الباطلة إلا أن يضمنوننا على الخنوع والخضوع حتى لا نشمّر عن ساعد الجدّ ونعدّ للشدائد عدّتها .

ولقد كانت الغزوات عامة ، وغزوات « جنكيزخان » خاصة ، عملا بغيضًا وكريها يتنافى مع كرامة الإنسان ، إلا أنها عن غير قصد كانت وسيلة لتلاقى الشرق والغرب ، وكان لهذا التلاقى أثره على مظاهر الفكر ، فخرج عن عزلته أو قصوره على مكان دون مكان وشاع بين أوسع رقعة من العالم ، فصار بذلك ملكًا للإنسان فى كل مكان .

سُقنا هذه السيرة لتحمل هذه المعانى ؛ لتحمل معالم التاريخ فنزداد به وعيًا ، ولتحمل مآسى التاريخ فتُنبّه منا الوجدان وتوقظ منا الفكر ، ولتدل الإنسانية عامة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، على اختلاف العصور وتقدم الحضارات .

سردنا هذه القصة لنهيب بالإنسان ــ أنَّى كان هذا الإنسان ـ ليعرف حق أخيه عليه ، وليعرف أن الظلم بغيض وأن مرتكبه آثم ، فلقد مضى «جنكيزخان » وهو يَعُدّ نفسه بطلا من الأبطال ، ولو أنه استمع فى قبره لمَا سجّله التاريخ عنه لودّ أن يُردَّ إلى عالم الحياة ثانية ليكفِّر عما ارتكبت يداه . فهل للإنسان أن يدرك أنه ليس فى ميزان التاريخ إلاّ سيرة فحسب ، وأن مقاييسه الخاصة فى الحكم على أعماله لن تقف عثرة فى طريق التاريخ ، ولن تلوى قصد المؤرخين عن أن يعرضوا سيرته ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر ؟

على أن اختلاف وجهات النظر لايعنى أنه ليس هناك مقياس عام استقرت عليه أحكام الإنسان منذ بدأت الخليقة . فالخير والحمق والفضيلة والجمال، وعمل الإنسان الدائب فى سبيل الإنسانية مبادئ قررتها طبائع الأشياء . وهى تتنافى مع العدوان والبطش والغزو مهما تكن هذه العناصر براقة وضاءة لامعة ، ولكنه بريق زائف وضوء مصيره ظلام . فهل الإنسان قادر دائماً على أن يحدد سيرته بين سير التاريخ ، فيأخذ جوانب القيم الثابتة المستقرة ؟ أم أن المغريات الزاهية قد تخطف بصره فيعدو وراء الأوهام؟

هنا تفترق سيرة عن سيرة ، ويختلف الحكم على الأشخاص فى صفحات التاريخ. فأما الذين يعجزون عن مقاومة أهوائهم فإن مكانهم فى صفحات التاريخ هو مكان « جنكيزخان » أيًّا كانت مظاهر الخير التى تنبثق عن شروره . وأما الذين يقدرون على مكافحة أهوائهم فهؤلاء هم عُمد التقدم الحضارى الإنسانى فى تاريخ البشر .

ثبت ببليوجرافى لكاتب هذه السطور

★ موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى . *

١ ـ الفن المصرى : العمارة	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧١
		طبعـــة ثانية ١٩٩٠
٢ ـ الفن المصرى : النحت والتصوير	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٢
		طبعـــة ثانية ١٩٩١
٣ ـ الفن المصرى القديم : الفن السكندرى والقبطى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٦
٤ ـ الفن العراقى القديم	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٤
٥ ـ التصوير الإسلامى الدينى والعربى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٨
٦ ـ التصوير الإسلامى الفارسى والتركى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨٣
٧ ـ الفن الإغريقى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨١
٨ ـ الفن الفارسى القديم	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨٩
٩ ـ فنون عصر النهضة	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨٨

* (الصور الملونة بالأجزاء التسعة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبيرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو») .

١٠ـالفن الرومانى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٢
١١ ـ الفن البيزنطى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٢
١٢ ـ فنون العصور الوسطى	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٣
١٣ ـ التصوير المغولى الإسلامى فى الهند	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٩٣
١٤ ـ الزمن ونسيج النغم		طبعـــة أولـى ١٩٨٠
(من نشيد أبو للو إلى أوليفييه ميسيان)		
١٥ ـ القيم الجمالية فى العمارة الأسلامية	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨١
		طبعـــة ثانيـة ١٩٩٢
١٦ ـ الإغريق بين الأسطورة والإبداع	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٨
		طبعـــة ثانية ١٩٩٢
١٧ ـ ميكلا نجلو	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٨٠
١٨ـ فـــن الواسطـــى مـن خـــلال مقـامات	دراسة	طبعـــة أولـى ١٩٧٤
الحريرى [أثر إسلامى مصور]	وتحقيق	طبعـــة ثانية ١٩٩٢
١٩ ـ معراج نامه [أثر إسلامى مصور]		طبعـــة أولـى ١٩٨٧

★ أعمال الشاعر أوفيد

٢٠ ـ ميتامور فوزيس [مسخ الكائنات]	ترجمة	طبعـــة أولـى ١٩٧١
		طبعـــة ثالثـة ١٩٩٢
٢١ ـ آرس أماتوريا [فن الهوى]	ترجمة	طبعـــة أولـى ١٩٧٣
		طبعـــة ثالثـة ١٩٩٢

★ أعمال جبران خليل جبران

٢٢ ـ النبى : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعـــة أولـى ١٩٥٩
		طبعـــة سابعة ١٩٩٠
		طبعـــة ثامنة ١٩٩٢

٢٣ ـ حديقة النبى : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٠
		طبعة سابعة ١٩٩٠
٢٤ ـ عيسى ابن الإنسان : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٢
		طبعة رابعة ١٩٩٠
٢٥ ـ رمل وزبد : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٣
		طبعة رابعة ١٩٩٠
		طبعة خامسة ١٩٩٢
٢٦ ـ أرباب الأرض : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٥
		طبعة ثالثة ١٩٩٠
٢٧ ـ روائع جبران خليل جبران . الأعمال المتكاملة	ترجمة	طبعة أولى ١٩٨٠
		طبعة ثانية ١٩٩٠
٢٨ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة	تحقيق	طبعة أولى ١٩٦٠
		طبعة سادسة ١٩٩٢
٢٩ ـ مولع بفاجنر : لبرنارد شو	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٥
		طبعة ثانية ١٩٩٢
٣٠ ـ مولع حذر بفاجنر	دراسة	طبعة أولى ١٩٧٥
	نقدية	طبعة ثانية ١٩٩٣
٣١ ـ المسرح المصرى القديم : لإتيين دريوتون	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٧
٣٢ ـ إنسان العصر يتوج رمسيس		طبعة ثانية ١٩٨٩
٣٣ ـ فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون : لبيير دانينوس	تأليف	طبعة أولى ١٩٧١
	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٤
		طبعة ثانية ١٩٨٩

٣٤ ـ إعصار من الشرق أو جنكيز خان	تأليف	طبعة أولى ١٩٥٢ طبعة خامسة ١٩٩٢
٣٥ ـ العودة إلى الإيمان : لهنرى لنك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٠ طبعة ثالثة ١٩٦٤
٣٦ ـ السيد آدم : لبات فرانك	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٨ طبعة ثانية ١٩٦٥
٣٧ ـ سروال القس : لثورن سميث	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢ طبعة ثانية ١٩٧٦
٣٨ ـ الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٢ طبعة ثانية ١٩٥٢
٣٩ ـ قائد البانزر : للجنرال جوديريان	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢
٤٠ ـ حرب التحرير	تأليف بالمشاركة	طبعة أولى ١٩٥١ طبعة ثانية ١٩٦٧
٤١ ـ تربية الطفل من الوجهة النفسية	ترجمة بالمشاركة	طبعة أولى ١٩٤٤
٤٢ ـ علم النفس فى خدمتك	ترجمة بالمشاركة	طبعة أولى ١٩٤٥
٤٣ ـ مصر فى عيون الأوروبيين من الرحالة والأدباء والفنانين (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠)	دراسة	طبعة أولى ١٩٨٤ طبعة ثانية ١٩٩٢
٤٤ ـ مذكراتى فى السياسة والثقافة	تأليف	طبعة أولى ١٩٨٨ طبعة ثانية ١٩٩٠
٤٥ ـ المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية [إنجليزى ـ فرنسى ـ عربى]	إعداد وتحرير	طبعة أولى ١٩٩٠

بالفـــرنسية

٤٦- Ramsès Re - Couronné : Hommage Vivant au Pharaon Mort, "UNESCO" 1974.

بالإنجـــليزية

٤٧- In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage " UNESCO " . 1972.

٤٨- The Muslim Painter and the Divine .The Persian Impact on Islamic Religious Paniting . Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press . London 1981.

٤٩- The Miraj - Mameh: A Masterpiece of Islamic Painting . Pyramid Studies and other Essays presented to . I.E. S . Edwards. The Egypt Exploration Society. London 1988.

أبحـــاث

٥٠- The Portrayal of the Prophet . The Times Literary Supplement December 1976.

٥١- Problèmatique de la Figuration dans l'art Islamique.

La Figuration Sacrèe .

La Figuration Profane.

Plastique et musique dans l'art pharaonique.

Wagner entre la théorie et l'application

سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣ .

Annuaire de Collège de France 73 e Année Paris, 11, Place Marcelin - Berthelot 1973.

٥٢ ـ المشاكل المعاصرة للفنون العربية . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة «مواقف» عدد ٢ آيار ١٩٧٤ . بيروت .

٥٣ ـ حرية الفنان . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .

٥٤ ـ رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقيت بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة «دولة قطر» فبراير ١٩٨٩ .

٥٥ ـ إطلالة على التصوير الإسلامى : العربى والفارسى والمغولى والتركى . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . أبريل ١٩٩١ .

٥٦ ـ سبيلٌ إلى تعميم مُدن التكنولوجيا «تكنوبوليس» فى العالم العربى . معهد العالم العربى بباريس يونية ١٩٩٠ .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٩٨٧ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 09 - 0088 -5

مطابع الشروق

القاهرة، ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت، ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

